بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وبعد:

أولا: مقدمات في علم العقيدة:

أولا: معنى العقيدة وأهميتها وخصائصها:

أ- معنى العقيدة لغة واصطلاحا:

معنى العقيدة لغة: العقيدة على وزن فعيلة، بمعنى مفعولة، أي شيء معتقد، ومادة "عقد" تدور بين عدة معان، منها: الربط والشد، والعهد، والملازمة، والتأكيد.

١- الربط والشد بقوة، يقال: عَقَدَ الحبلَ، يعقِده عقدا، إذا ربطه وشده بقوة.

٢- العهد، يقال: بين هذه القبيلة وتلك عقد، أي: عهد، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾[المائدة: ١]؛ أي: أوفوا بالعهود التي أكدتموها.

٣- الملازمة، يقال: عقد قلبَه على الشيء، أو عقد قلبُه الشيءَ إذا لزمه، ومنه ما جاء عن جرير بن عبدالله قال: رأيت رسول الله ﷺ يلوي ناصية فرس بإصبعه، وهو يقول: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم»(١)؛ أي: الخير ملازم لها كأنه عُقِد عليها.

٤- التأكيد، يقال: عقد البيعَ، إذا أكَّده، ومنه العقد المكتوب في البيع والإيجار وغيرهما، فإنه لم يكتب إلا بعد إيقاع البيع أو الإيجار أو الاستئجار وتأكيده.

معنى العقيدة اصطلاحا: الاعتقاد الجازم الذي لا يخالطه شك في المطالب الإلهية والنبوات وأمور

(١) أخرجه مسلم (ك: الإمارة، ح: ١٨٧٢).

المعاد وغيرها مما يجب الإيمان به.

والمراد بالمطالب الإلهية: الإيمان بالله في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

وكذلك يمكن تعريفها بلفظ: ما عقد الإنسان قلبه عليه من أمور الدين، ودان الله به.

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين في تعريف العقيدة اصطلاحا: (حكم الذهن الجازم؛ فإن طابق الواقع فالعقيدة صحيحة، وإن خالف الواقع فالعقيدة فاسدة)[1].

يلاحظ هنا: أن العقيدة تكون يقينية، ويكون محلها في القلب الذي ينعقد بها، وتكون متعلقة بأمور الغيب، وتضم كل مسلمات الدين وأصوله وفرائضه وقطعياته، وتدخل فيه الفرائض وغيرها من جهة التسليم والاعتقاد بها، وليس من جهة كيفية العمل.

الرابط بين المعنى اللغوي والاصطلاحي: الارتباط بينهما ظاهر، لأن هذا الذي جزم بالشيء وصمم عليه قد ألزمه قلبَه وشده بقوة بحيث لا يتفلت منه أبدا.

ب- أهمية العقيدة: الاعتقاد هو الأصل الذي ينبني عليه قبول الأعمال وصحتها، فأصول الدين: هي ما يقوم وينبي عليه الدين، والدين الإسلامي يقوم على التوحيد ولذلك سمي علم التوحيد وعلم العقيدة بـ"علم أصول الدين". فلا مدخل إلى هذا الدين إلا من باب التوحيد، ومن يريد أن يدخله لا يجد له بابا ينفذ منه سوى باب التوحيد، فلو دخل أحد من غير هذا الباب فإنه ينفذ إلى دين آخر غير دين الإسلام، فهذا كله من حيث الجملة يدل على أهمية العقيدة، وفيما يلي بيان ذلك بشيء من التفصيل، وهي كما يلي:

١- إن الله تعالى خلق هذا الكون من أجل تحقيق التوحيد بنوعيه: العلمي والعملي، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨] فهذه الآيات تبين الجانب العملي المتعلق بالتوحيد، وهو إفراد الله وحده بالعبادة كلها، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢]، وهذه الآية فيها بيان للجانب العلمي الاعتقادي المتعلق بالتوحيد، فهو سبحانه منفرد بأسمائه وصفاته وأفعاله كلها وليس له شريك في شيء من ذلك.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره: (ثم أخبر تعالى أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهن، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر بها الخلق، كل ذلك

---

(١) شرح العقيدة السفارينية (ص: ٧٥).

لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء، فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى وعبدوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه هي الغاية المقصودة من الخلق والأمر: معرفة الله وعبادته).

٢- العقيدة الصحيحة أساس الدين وأركان الإيمان: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[النساء: ١٣٦]، وقال النبي ﷺ في شرح الإيمان لما سأله عنه جبريل عليه السلام كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يوما بارزا للناس، إذ أتاه رجل يمشي فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، ورسله، ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر...» الحديث[١]. وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «...أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت...»الحديث[٢].

٣- اتفاق الرسل على التوحيد والإيمان باليوم وغير ذلك من أبواب الاعتقاد: وكان الرسل يركزون دعوتهم على التوحيد، وكانوا يبدؤون دعوتهم بالتوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وكانوا يركزون على مسائل العقيدة من الإيمان باليوم الآخر وغيرها، قال تعالى لآدم وحواء عليهما السلام حين أنزلهما إلى الأرض: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤ – ٢٥] وقال نوح عليه السلام وهو يجادل قومه ويبين نعم الله عليهم، كما أخبر الله عن ذلك فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح: ١٧ – ١٨] وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾[الشعراء: ٨٢] وقال تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾[العنكبوت: ٣٦] وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾[طه: ١٥] وقال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣٣] وقد أخبر الله عن خزنة جهنم بأنهم يحتجون يوم القيامة على الكفار بأن الرسل قد أنذرتهم اليوم الآخر فقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ

---

(١) أخرجه البخاري (ك: الإيمان، ح: ٥٠، ك: التفسير، ح: ٤٧٧٧) وهذا لفظه؛ و مسلم (الإيمان، ح: ٩).

(٢) أخرجه مسلم (ك: الإيمان، ح: ٨).

خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١] وقال تعالى عن الكفار عموما: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٤].

٤- الأحكام الشرعية مرتبطة بالتوحيد والعقيدة: قال تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ﴾ [المائدة: ٣] ولا شك أن تحريم ما أهل لغير الله وما ذبح على النصب والنهي عن الاستقسام بالأزلام مرتبط بالتوحيد والعقيدة، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾[البقرة: ٢٢٨] فالله عز وجل نهى المطلقات عن كتمان ما في أرحامهن مقرونا ومشروطا بالإيمان باله واليوم الآخر.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» (١). وعن أبي شريح العدوي قال: قال رسول الله ﷺ غداة فتح مكة: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما، ولا يعضد بها شجرة...» (٢). وعن أم حبيبة قالت: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ليال، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا»(٣).

٥- العقيدة الصحيحة أساس قبول الأعمال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٥٤] وقد اعتبر الإسلام عمل الداخل من غير باب التوحيد شركا، فأبطله، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ولو مات الفاعل مصرا على شركه لحرم الجنة وصار إلى النار، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ [المائدة: ٧٢].

٦- إن الله تعالى أمر بتعلم العقيدة في آيات كثيرة من القرآن الكريم: قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾ [محمد: ١٩] وقال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري (ك: الرقاق ح: ٦٤٧٥) ومسلم (ك: الإيمان ح: ٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (ك: العلم ح:١٠٤)، ومسلم (ك: الحج ح: ١٣٥٤:٤٤٦).

(٣) أخرجه البخاري (ك: الطلاق ح: ٥٣٣٤) ومسلم (ك: الطلاق ١٤٨٦).

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ [العلق: ١ – ٥]، وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وقال تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة: ٩٨].

٧– كثرة المسميات التي أطلقت على العقيدة الإسلامية: العقيدة الإسلامية أطلقت عليها أسماء متعددة ذات معان جميلة، فمنها: التوحيد، وأصول الدين، والسنة، والفقه الأكبر، والشريعة، والدين، والإيمان، وكثرة الأسماء تدل على حسن المسمى ومكانته وأهميته وفضله.

٨– العقيدة الصحيحة تحقق الأمن والهداية في الدنيا والآخرة: قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ١٢٦]

٩– العقيدة الصحيحة تورث الطاعة والتقوى والعمل الصالح، وتقي من الخسارة وقلة البركة ومن العذاب، قال تعالى: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ [العصر: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢]

١٠– العقيدة الصحيحة تثمر الحياة الطيبة والجزاء الأوفى والأجر الأحسن، قال تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢]

١١– خطورة الغلط في العقيدة: قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]

قال العلامة ابن القيم: (فرتَّب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريما منه وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم تحريما منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع بما هو أشد تحريما من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه

وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه)[1].

وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠] فالله عز وجل توعد الملحدين في أسمائه، وهذا يدل دلالة واضحة على خطورة الغلط في هذا الباب العظيم.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾[مريم: ٨٨ – ٩٢]

وهذا في التنزيه لأن الله نزَّه نفسه عن اتخاذ الولد، ومع ذلك قالوا: اتخذ الرحمن ولدا.

وأما في الإثبات فقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٢ – ٢٣]

فالذي جرهم إلى الفساد في السلوك والأعمال هو ظنهم الفاسد بربهم لأنه الخطأ في الاعتقاد له شؤم في الأعمال، والآية تدل على أن الخطأ والغلط في أسماء الله وصفاته ليس كالخطأ والغلط فيما سواه، بل قد يكون سبيلا إلى الهلاك والردى.

قال العلامة ابن القيم: (فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيرا مما يعملون، كان هذا إساءة لظنهم بربهم، فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأن كل من جحد صفات كماله، ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق به)[2].

ومن يعرف الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، ويتحلى بالعقيدة الصحيحة يكون من أبعد الناس عن الشرك والبدع والخرافات والأوهام، ويكون قوي الصلة بالله وحسن الرجاء به وشديد الخوف منه سبحانه وتعالى، ويوفق للتوحيد والسنة وإقامة الدين على الوجه الصحيح، ويكون من المفلحين الفائزين المقبولين عند الله تعالى.

ج– خصائص العقيدة الإسلامية: الخصائص جمع خِصِّيصة، وهي الصفة البارزة المميزة، والمراد بخصائص العقيدة: صفاتها البارزة التي تنفرد بها وتميزها عن بقية العقائد، فإن للعقيدة الإسلامية سمات بارزة كثيرة تميزها عن غيرها من العقائد، وفيما يلي ذكر شيء منها باختصار[3]:

١– أنها توقيفية: والمراد من كون العقيدة الإسلامية توقيفية أن رسول الله ﷺ قد أوقف أمته على

---

(١) إعلام الموقعين (٣٨/١).

(٢) انظر للتفصيل: المفيد في مهمات التوحيد (ص: ٤١-٦٥).

(٣) أخرجه البخاري (ك: الإيمان، ح: ٥٠، ك: التفسير، ح: ٤٧٧٧) وهذا لفظه؛ و مسلم (الإيمان، ح: ٩).

مباحث العقيدة، فلم يترك لهم شيئا إلا بينه لهم، فيجب على الأمة أن تقف عند الحدود التي حدها وبينها لهم.

وقد بين الرسول ﷺ العقيدة بالقرآن والسنة، فما ترك شيئا إلا بينه، وهذا يدل على أن مصادر العقيدة الصحيحة هي الكتاب والسنة، وأنه يجب الالتزام بالألفاظ العقيدة الواردة في الكتاب والسنة، وأن الألفاظ الأخرى المحدثة التي أحدثها المبتدعة يجب الاجتناب عنها، وأنه يجب الالتزام بما جاء في الكتاب والسنة فقط، وأنه ليس لأحد أن يحدث أمرا في الدين زاعما وجوب التزامه أو اعتقاده، فإن الله قد أكمل الدين وختمت النبوة وانقطع الوحي، والعقيدة توقيفية، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»(١). وأيضا عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد»(٢). وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: «صبحكم ومساكم...» ويقول: «أما بعد! فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»(٣). فلا نقول في أمور الدين ولا نعتقد إلا وفق ما جاء في الكتاب والسنة ولا نتعداهما.

٢- أنها غيبية: الغيب ما غاب عنك وهو خلاف الشهادة، والمراد من كون العقيدة الإسلامية غيبية أنها تبحث في قضايا غيبية لا مجال للعقل في إحاطتها وإدراكها، ومبناها على التسليم والتصديق المطلق بما جاء عن الله وعن رسوله ظاهرا وباطنا، قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ١ - ٣] قال الزهري: (من الله عز وجل الرسالة، وعلى رسول الله ﷺ البلاغ، وعلينا التسليم) (٤)،وقال أبو جعفر الطحاوي: (ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام)(٥). وقال ابن أبي العز في شرحه: (أي: لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين، وينقاد إليها، ولا يعترض عليها ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه)(٦)، وقال ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ): (اتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك، فهو أحرص على سعادتك، وأعلم بما ينفعك؛ لأنه من طور فوق إدراكك، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة

---

(١) أخرجه البخاري تعليقا بصيغة الجزم (ك: البيوع، ب: النجش، ك: الاعتصام بالكتاب والسنة ب: إذا اجتهد الحاكم...)، وأخرجه مسلم موصولا (ك: الأقضية، ح: ١٧١٨).

(٢) أخرجه البخاري (ك: الصلح، ح: ٢٦٩٧)، ومسلم (ك: الأقضية، ح: ١٧١٨).

(٣) أخرجه مسلم (الجمعة، ب: تخفيف الصلاة والخطبة ح: ٨٦٧).

(٤) أخرجه البخاري تعليقا بصيغة الجزم (ك: التوحيد، ص: ١٢٩٩ قبل الحديث: ٧٥٣٠).

(٥) العقيدة الطحاوية (ص: ١٤).

(٦) شرح العقيدة الطحاوية (٢٣١/١).

النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره؛ فإن ذلك طمع في محال. ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال، وهذا لا يدرك على أن الميزان في أحكامه غير صادق لكن العقل قد يقف عنده، ولا يتعدى طوره)[1]. فالأمور العقيدية من طور فوق إدراك البشر ومن نطاق أوسع من نطاق عقله، فهي لا تخضع للمختبرات الكيماوية والتحاليل المخبرية والعدسات المجهرية والمقاييس العقلية بل هي من الغيب ومن طور فوق إدراك البشر، ولذلك يجب الإيمان والتصديق والانقياد والتسليم لكل ما جاء في عن الله ورسوله ﷺ.

٣- أنها شمولية: لم تغفل العقيدة الإسلامية أمرا من أمور الدين والدنيا إلا أتت عليه بالإيضاح والبيان، فالله عز وجل ما فرط في الكتاب من شيء، والنبي ﷺ بين لأمته جميع ما يحتاجون إليه، فالمعتقد الإسلامي يعطي الإنسان تصورا كاملا عن الكون الذي يعيش ويحيا فيه، ويتناول جميع القضايا التي تستقيم بها حياة الإنسان، ويحيط به من حين ولادته إلى وفاته بل قبل ولادته إلى ما بعد وفاته حتى يستقر في الجنة أو النار، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ [الإنسان: ١ – ٥] فالعقيدة الإسلامية تعطي التصور الصحيح الكامل لكل ما يحتاج إليه الإنسان في الدنيا والآخرة.

٤- أنها وسطية: الوسط ما كان بين طرفي الشيء، ويأتي بمعنى العدل والخيار والأجود والأفضل، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة: ١٤٣] والمراد من كون العقيدة الإسلامية وسطية بأنها أفضل العقائد وأحسنها وأعدلها وأنه لا إفراط فيها ولا تفريط، وتظهر وسطية أمة الإسلام بين الأمم الأخرى في أمور كثيرة وفيما يلي ذكر بعضها:

أ- **في توحيد الله وصفاته،** فإن اليهود وصفوا الرب بصفات النقص التي يختص بها المخلوق، وشبهوه به فقالوا: إنه بخيل وفقير، وأنه يتعب ويستريح وغير ذلك من الأمور اللائقة بالمخلوق دون الخالق، والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق، وشبهوه به، وقالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، وأن المسيح ابن الله، وأنه يخلق ويرزق ويغفر ويحاسب ويثيب ويعاقب... ولكن المسلمين وصفوه بصفات الكمال، ونزهوه عن جميع صفات النقص وعن مماثلته لشيء من المخلوقات في شيء من الصفات،

(١) مقدمة ابن خلدون (الفصل السادس من المقدمة: علم الكلام، ص: ٣٨٤).

وقالوا: ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

ب- في أنبياء الله ورسله: اليهود قتلوا الأنبياء ورموهم بكل نقيصة واستكبروا عن اتباعهم، والنصارى غلوا في بعضهم، فاتخذوهم أربابا من دون الله، واتخذوا المسيح إلها. والمسلمون أنزلوا الأنبياء منازلهم وصدقوهم وآمنوا بهم جميعا عبيدا لله، ورسلا مبشرين ومنذرين، ولم يعبدوهم ولم يتخذوهم أربابا من دون الله تعالى.

ج- في الشرائع: اليهود منعوا أن يبعث الله رسولا بغير شريعة موسى عليه السلام، وقالوا: لا يجوز أن ينسخ الله ما شرعه، والنصارى جوزا لأحبارهم ورهبانهم أن يغيروا دين الله، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحله الله تعالى، وأما المسلمون فقالوا: لله الخلق والأمر، يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، والنسخ جائز في حياته ﷺ، وأما بعد وفاته ﷺ فليس لمخلوق أن يبدل أمر الخالق مهما بلغت منزلته وعظم قدره.

د- في الحلال والحرام: اليهود حرم عليهم كثير من الطيبات، قال تعالى: ﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾ [آل عمران: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٠]

والنصارى أسرفوا في إباحة المحرمات، فأحلوا ما نصت التوراة على تحريمه، ولم يأت المسيح عليه السلام بإباحته، فاستحلوا الخبائث وجميع المحرمات كالميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها.

وأما المسلمون فقد أحلوا ما أحل الله لهم من الطيبات وحرموا ما حرم عليهم من الخبائث، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[التحريم: ١]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾[الأعراف: ١٥٧]

هـ- في العبادة والاتباع: اليهود علموا ولم يعلموا، فهم المغضوب عليهم، واشتغلوا بدنياهم عن دينهم وآخرتهم، والنصارى عبدوا الله على جهالة، وغلوا في الرهبنة، وتعبدوا ببدع ما أنزل الله بها من سلطان، قال تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ ﴾[الحديد: ٢٧] فكانوا من العاملين الناصبين الضالين العابدين على غير هدى من الله تعالى.

وأما الأمة الوسط فهم علموا وعملوا، فعبدوا الله وحده بما شرع، ولم يعبدوه بالأهواء والبدع، ولم ينسوا نصيبهم وحظوظهم من الدنيا، فكانوا من المنعم عليهم، وقدوتهم في ذلك النبي ﷺ.

وسطية أهل السنة والجماعة: وأهل السنة والجماعة أوسط فرق هذه الأمة وأعدلها وأفضلها، وهم بين هذه الفرق مثل الأمة المحمدية بين الأمم الأخرى من حيث الفضل والتوسط والاعتدال، وقولهم وسط في باب الأسماء والصفات بين المعطلة والمشبهة، وفي باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد بين المرجئة والوعيدية من الخوارج والمعتزلة، وفي باب الإيمان بالقضاء والقدر بين القدرية والجبرية، وفي الصحابة وأهل البيت بين النواصب والروافض، وقولهم في جميع أبواب الدين وسط بين الغلو والجفاء والإفراط والتفريط(١).

ثانيا: موضوع علم العقيدة، وبعض المسميات التي أطلقت على العقيدة الإسلامية، وأهم الكتب المؤلفة في ذلك.

أ- موضوع علم العقيدة: موضوع هذا العلم الشريف هو أركان الإيمان الستة ولوازمها وما تفرع منها، وأركان الإيمان هي الواردة في حديث جبرئيل المشهور، فعن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يوما بارزا للناس، إذ أتاه رجل يمشي فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، ورسله، ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر...» الحديث(٢). وهو في حديث عمر بن الخطاب ﷺ مرفوعا بلفظ: «...أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت...»الحديث(٣)، فالإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر هذه هي أصول الإيمان وأركانها، وهذه هي موضوعات علم العقيدة من حيث الجملة.

والإيمان بالله هو الأصل الأصيل في أركان الإيمان، وبقية الأركان تابعة له ومتفرعة عنه، وراجعة إليه، وكل واحدة من هذه الأركان يدخل فيها مسائل كثيرة، مثلا: الإيمان باليوم الآخر يدخل فيه كل ما ورد في أخبار ذلك اليوم العظيم، وما يتعلق به، فيدخل فيه أشراط الساعة وأماراتها، والحياة البرزخية وفتنة القبر، وعذابه، ونعيمه، والنفخ في الصور، والبعث، والحشر، والشفاعة، ونشر الصحف، والحساب، والوزن والميزان، والحوض، وما في موقف القيامة من الأهوال والأفزاع وتفاصيل المحشر، والصراط والقنطرة والجنة ونعيمها، والنار وعذابها(٤)، وهكذا بقية الأركان ومسائلها ولوازمها، وكذلك يدخل فيه الدفاع عن العقيدة الصحيحة، والرد على العقائد الباطلة، والأديان الفاسدة، وسائر الملل الكافرة والنحل الضالة، والمذاهب الفكرية الهدامة، والفرق المحدثة والجماعات المنحرفة وأصحابها من أهل الأهواء والبدع والضلال وغيرهم.

ب- بعض المسميات التي أطلقت على العقيدة الإسلامية، وأهم الكتب المؤلفة في ذلك:

---

(١) انظر للتفصيل: وسطية أهل السنة بين الفرق للدكتور محمد باكريم محمد با عبد الله.

(٢) أخرجه البخاري (ك: الإيمان، ح: ٥٠، ك: التفسير، ح: ٤٧٧٧) وهذا لفظه؛ و مسلم (الإيمان، ح: ٩).

(٣) أخرجه مسلم (ك: الإيمان، ح: ٨).

(٤) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٥٢/١)، وفتح الباري للحافظ ابن حجر (٥٢/١-٥٣).

التوحيد، أصول الدين، السنة، الفقه الأكبر، الشريعة، الإيمان، الدين.

١– التوحيد:

أ– التوحيد في اللغة: التوحيد في اللغة مصدر من وحَّد يوحِّد توحيدا، إذا أفرده واعتقده واحدا.

ب– التوحيد في الاصطلاح: إفراد الله بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وبعبارة أخرى مختصرة: إفراد الله بما تفرَّد به، وبما أمر أن يُفْرَد به.

فنفرده في ملكه وأفعاله، فلا رب سواه، ولا شريك له، ونفرده في ألوهيته، فلا يستحق العبادة إلا هو، ونفرده في أسمائه وصفاته، فلا مثيل له في كماله ولا نظيره له.

ج– العلاقة بين التوحيد والعقيدة:

العقيدة ليست مقصورة على توحيد الله تعالى فقط، بل هي تشمل التوحيد وزيادة، فيدخل فيها مباحث أخرى مثل: الرسل ورسالاتهم، والملائكة وأعمالهم، والكتب السماوية، واليوم الآخر وما يتعلق به، وما يجري في ذلك اليوم العظيم، والقضاء والقدر وما يتعلق به، والإمامة، والصحابة، ومواقف المسلمين من الملل المنحرفة والفرق الضالة وغير ذلك.

فالعلاقة بين التوحيد والعقيدة علاقة جزئية؛ لأن التوحيد جزء من العقيدة، والعقيدة أعم وأشمل من التوحيد، فإنها تشمل مباحث التوحيد وغيرها.

د– لماذا سمي علم العقيدة بالتوحيد؟

الجواب: إن تسمية العقيدة بالتوحيد من باب تسمية الشيء بأشرف أجزائه، لأن توحيد الله تعالى هو أشرف مباحث علم العقيدة، وأساسها وجوهرها، وأما المباحث الأخرى فهي تابعة له وتعتمد عليه وتستند إليه وتدخل فيه بالالتزام.

هـ– ما الفرق بين العقيدة والتوحيد؟

الجواب: العقيدة أعم من جهة موضوعها، فإنها تشمل التوحيد وغيره، فيدخل فيها أركان الإيمان الستة، ويدخل فيها ردود علماء الإسلام على الديانات الأخرى والفرق والتيارات المعاصرة وغيرها، بخلاف التوحيد الذي يقتصر على توحيد الله تعالى.

ويلاحظ أيضا أن مباحث الإيمان بالكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر يدخل في إطار العقيدة بالمطابقة، وأما في التوحيد فيدخل فيه بالالتزام؛ إذ يلزم من إيمانك بالله أن تؤمن بملائكته وكتبه ورسله، والمغيبات التي أخبر عنها وأخبرت عنها رسله، والقدر الذي يجريه الله في عباده وفق إرادته ومشيئته.

و– مؤلفات في العقيدة تحت مسمى التوحيد:

كتاب التوحيد للإمام البخاري ضمن جامعه الصحيح: لقد أفرد أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد

الله محمد بن إسماعيل البخاري ٢٥٦هـ كتابا خاصا في جامعه الصحيح بعنوان: (كتاب التوحيد)، وخرج فيه أحاديث العقيدة.

كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري ٣١١هـ.

كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد، لأبي عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد المعروف بابن منده ٣٩٥هـ.

كتاب التوحيد لله عز وجل، لأبي محمد عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي ٦٠٠هـ.

كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، لشيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي ١٢٠٦هـ.

٢- أصول الدين: من مسميات علم العقيدة: أصول الدين.

أ-بيان المراد بأصول الدين ومعناها: "أصول الدين" مركب من كلمتين، وهما: أصول ودين، والأولى مضاف، والثانية مضاف إليه، فهو مركب إضافي.

والأصول مفردها أصل، ومعناه لغة: أساس الشيء.

واصطلاحا: ما له فرع، لأن الفرع لا ينشأ إلا عن أصل.

والدين: في اللغة: مأخوذ من الفعل الثلاثي دانَ يدينُ، وهو تارة يتعدى بنفسه، وتارة باللام، وتارة بالباء، ومعناه يختلف باختلاف ما يتعدى به.

فإذا تعدى بنفسه وقيل: "دانه" يكون بمعنى ملكه وساسه وقهره وحاسبه وجازاه.

وإذا تعدى باللام وقيل: "دان له" يكون بمعنى خضع وأطاع.

وإذا تعدى بالباء وقيل: "دان به" يكون بمعنى اتخذه دينا ومذهبا واعتاده واعتقده وتخلق به.

فالدين معناه يدور على الذل والخضوع والطاعة والاعتقاد.

والمراد بالدين هنا: دين الإسلام، وطاعة الله وعبادته وتوحيده وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وكل ما يتعبد الله به.

وبناء على ذلك يكون معنى أصول الدين: القواعد والأسس التي تصح بها العبادة، وتتحقق بها طاعة الله وطاعة رسوله بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، لأن الاعتقاد هو الأصل الذي ينبني عليه قبول الأعمال وصحتها.

الحاصل: معنى أصول الدين: ما يقوم وينبني عليه الدين، والدين الإسلامي يقوم على عقيدة التوحيد، ولذلك سمي علم العقيدة بعلم أصول الدين.

ما هي أصول الدين؟ المفهوم الحق لمصطلح أصول الدين هو أصول الإيمان الستة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[النساء: ١٣٦] وقال تعالى: ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال النبي ﷺ في شرح الإيمان لما سأله عنه جبريل عليه السلام كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يوما بارزا للناس، إذ أتاه رجل يمشي فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، ورسله، ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر...» الحديث[1]. وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «...أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت...»الحديث[2].

فهذه الأصول الستة هي التي يقوم عليها إيمان العبد، وتصح بها عبادته وهي التي يمكن أن يقال عنها بأنها موضوع علم العقيدة ومباحثه ومحاوره، وقد سبق بيانه من قبل، ولكن هنا سؤال، وهو: يصح تقسيم الدين إلى الأصول والفروع أم لا؟ فإليكم الجواب:

ب- النظر في تقسيم الدين إلى أصول وفروع وتفصيل القول في ذلك: هناك من يرى أن تقسيم الدين إلى أصول وفروع بدعة لأن هذا التقسيم لم يكن في عهد السلف، ولأن المقسمين إلى الأصول والفروع يجعلون الصلاة والزكاة والصيام من الفروع، هذا لا يسلم لهم على الإطلاق؛ لأن الصلاة والزكاة والصوم هذه كلها من أركان الإسلام، وهذا معروف[3]، ولكن يمكن أن يقال بأن هذا التقسيم للإفهام والتقريب والتيسير، وهو مقبول في كل العلوم والفنون، فكذلك لا مانع من قبوله هنا، وأما الصلاة والزكاة والصيام وغيرها من أركان الإسلام فلها جانبان: جانب يتعلق بالاعتقاد وآخر يتعلق بالعمل، فما كان متعلقا بالاعتقاد يحسب من الأصول وما كان متعلقا بالعمل يحسب من الفروع، فلا يقال أنها من الفروع على الإطلاق، ولا يقال أنها من الأصول على الإطلاق؛ بل لا بد من البيان والتفصيل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والدين القائم بالقلب من الإيمان علما وحالا هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع)[4]. وقال أيضا: (الدين نوعان: أمور خبرية اعتقادية وأمور طلبية عملية. فالأول كالعلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويدخل في ذلك أخبار الأنبياء وأممهم ومراتبهم في الفضائل وأحوال الملائكة وصفاتهم وأعمالهم، ويدخل في ذلك صفة الجنة والنار، وما في الأعمال من الثواب والعقاب وأحوال الأولياء والصحابة وفضائلهم ومراتبهم وغير ذلك. وقد يسمى هذا النوع أصول دين. ويسمى العقد الأكبر ويسمى الجدال فيه بالعقل كلاما. ويسمى عقائد واعتقادات، ويسمى المسائل العلمية والمسائل الخبرية، ويسمى علم المكاشفة.

---

(١) أخرجه البخاري (ك: الإيمان، ح: ٥٠، ك: التفسير، ح: ٤٧٧٧) وهذا لفظه؛ و مسلم (الإيمان، ح: ٩).

(٢) أخرجه مسلم (ك: الإيمان، ح: ٨).

(٣) انظر: شرح نظم الورقات في أصول الفقه للشيخ العثيمين (ص: ٥٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٥٥/١٠).

والثاني الأمور العملية الطلبية من أعمال الجوارح والقلب كالواجبات والمحرمات والمستحبات والمكروهات والمباحات؛ فإن الأمر والنهي قد يكون بالعلم والاعتقاد فهو من جهة كونه علما واعتقادا أو خبرا صادقا أو كاذبا يدخل في القسم الأول، ومن جهة كونه مأمورا به أو منهيا عنه يدخل في القسم الثاني مثل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فهذه الشهادة من جهة كونها صادقة مطابقة لمخبرها فهي من القسم الأول، ومن جهة أنها فرض واجب، وأن صاحبها بها يصير مؤمنا يستحق الثواب وبعدمها يصير كافرا يحل دمه وماله فهي من القسم الثاني)[1]. فبهذا التفصيل يمكن أن يقال بتقسيم الدين إلى أصول وفروع، وإلا لا يصح ذلك البتة، هذا ما يظهر لي، والله أعلم.

وكذلك يلاحظ هنا: أن العقيدة سميت بأصول الدين تمييزا لها عن الفروع، وذلك لا يعنى أن الأصول هي التي تؤخذ ويعمل بها فحسب، وأن أنه يمكن الاستغناء عن الفروع، فهذا الفهم غير صحيح البتة، لأن الدين كل لا يتجزأ، وقد عاب الله تعالى أهل الكتاب لكونهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعضه الآخر، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]

ج- مؤلفات في العقيدة تحت مسمى أصول الدين.

١- أصل السنة واعتقاد الدين، لابن أبي حاتم الرازي ٣٢٧هـ

٢- الإبانة عن أصول الديانة؛ لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ٣٢٩هـ.

٣- أصول الدين لعبد القاهر البغدادي ٤٢٩هـ.

٣- السنة: من مسميات علم العقيدة: السنة.

أ- تعريف السنة لغة واصطلاحا:

السنة لغة: من سنَّ يسِنُّ ويسُنُّ فهو مسنون، وسنَّ الأمر بينه، وهي تأتي لعدة معان، منها:

١- الطريقة المسلوكة: سواء كانت محمودة أو مذمومة، ومنه ما جاء عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ في حديث طويل: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[2].

٢- السيرة، وسنة الرسول ﷺ: سيرته التي كان يتحراها، فما ثبت عنه من قول أو فعل أو وصف أو تقرير قبل له سنة.

تعريف السنة في الاصطلاح: ما قاله رسول الله أو فعله أو قرر عليه.

ب- العلاقة بين مسمى السنة ومسمى العقيدة: لما كانت السنة مصدرا من مصادر العقيدة وطريقة من

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/٣٣٥-٣٣٦).

(٢) أخرجه مسلم (ك: الزكاة، ح: ١٠١٧).

طرق إثبات العقيدة الصحيحة أطلق أهل العلم على عقيدة السلف اسم السنة بسبب اتباعهم لطريقة رسول الله ﷺ وأصحابه في ذلك.

قال ابن رجب: (ومراد هؤلاء الأئمة بالسنة: طريقة النبي ﷺ التي كان عليها هو وأصحابه السالمة من الشبهات والشهوات... ثم صار في عرف كثير من العلماء المتأخرين من أهل الحديث وغيرهم السنة عبارة عما سَلِمَ من الشبهات في الاعتقادات خاصة في مسائل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكذلك في مسائل القدر وفضائل الصحابة، وصنفوا في هذا العلم تصانيف، وسموها كتب السنة)[1].

ج- مؤلفات في العقيدة تحت مسمى السنة.

السنة لابن أبي شيبة ٢٣٥هـ، **السنة** للإمام أحمد ٢٤١هـ، **السنة** للأثرم، أبي بكر أحمد بن محمد البغدادي ٢٧٣هـ، **السنة** لأبي علي حنبل بن إسحاق بن حنبل بن هلال ٢٧٣هـ، **السنة** لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ٢٧٥هـ، **السنة**. لعمرو بن أبي عاصم الضحاك الشيباني ٢٨٧هـ، **السنة**. لعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ٢٩٠هـ، **السنة**. لمحمد بن نصر بن الحجاج المروزي ٢٩٤هـ. **صريح السنة**. لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٣١٠هـ. **السنة**. لأبي بكر أحمد بن محمد الخلال ٣١١هـ. **شرح السنة**. لأبي محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري ٣٢٩هـ.

٤- الفقه الأكبر: من مسميات علم العقيدة: الفقه الأكبر.

أ- تعريف الفقه لغة واصطلاحا:

الفقه في اللغة: الفهم، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾[هود: ٩١]، أي: ما نفهم، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤].

وفي الاصطلاح: معرفة الأحكام الشرعية العملية التكليفية[2].

ب- المراد بالفقه لدى الأوائل والأواخر: وكان الفقه يطلق في القرون الأولى على العلم بأحكام الشريعة كلها، ومنه ما جاء عن معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت النبي يقول: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»[3] وعن ابن عباس أن النبي ﷺ دخل الخلاء، فوضعت له وضوءا قال: «من وضع هذا؟» فأُخْبِرَ، فقال : «اللهم فقهه في الدين»[4].

ولكن المتأخرين خصوا اسم الفقه بمعرفة مسائل الحلال والحرام وغيرها.

ج- سبب تسمية العقيدة بالفقه الأكبر:

---

(١) كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة (ص: ١١-١٢).

(٢) انظر: شرح نظم الورقات في أصول الفقه (ص: ٢٤-٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (ك: الاعتصام بالكتاب والسنة، ح: ٧٣١٢)، ومسلم (ك: الزكاة، ١٠٣٧).

(٤) أخرجه البخاري (ك: الوضوء، ح: ١٤٣).

سمى العلماء العقيدة بالفقه الأكبر مقارنة بفقه الفروع، فقولنا: الفقه الأكبر بشعر بأن هناك فقها آخر ليس بأكبر، وهو فقه ما أطلق عليه اسم الفروع. قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (العلم بأن الله واحد، هذا يدخل في العقائد، فليس فقها في اصطلاح أصول الفقه، ولكنه في الشريعة فقه؛ بل هو أعظم الفقه، ولهذا سمى بعض العلماء علم العقائد الفقه الأكبر، وما يتعلق بأفعال المكلفين سماه الفقه الأصغر، وهو جدير بأن يسمى الفقه الأكبر، أي: ما يتعلق بالله عز وجل هو الفقه الأكبر، وما يتعلق بأفعالنا فهو الفقه الأصغر)[1].

وتسمية العقيدة بالفقه الأكبر يعني الاهتمام بها والبدء بها في الدعوة، والبدء بتصحيحها قبل القيام بالأعمال، ولا يعني إهمال أداء الأعمال وعدم معرفة كيفية القيام بها، وعدم تعلم الحلال والحرام، وعدم معرفة أدلتها التفصيلية فإنها جميعا من الدين ولا يمكن الاستغناء عن بعضه والاكتفاء بالبعض الآخر.

د- مؤلفات في العقيدة تحت مسمى الفقه الأكبر.

أول من استخدم مصطلح (**الفقه الأكبر**) هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت ١٥٠هـ، فقد روي عنه كتاب بهذا الاسم، وقد بحث فيه الإمام بعض مسائل الاعتقاد، وهو مشهور عند أصحابه[2]، وله شروح منها: **شرح الفقه الأكبر**، لملا علي القاري الحنفي ١٠١٤هـ.

٥- الشريعة: من مسميات علم العقيدة: الشريعة.

أ- تعريف الشريعة لغة واصطلاحا:

الشريعة في اللغة: قال ابن فارس: (الشين والراء والعين أصل واحد، وهو شيء يفتح في امتداد يكون فيه. من ذلك الشريعة، وهي مورد الشاربة الماء)[3].

الشريعة في الاصطلاح: لفظ الشريعة من الألفاظ التي تستعمل بحسب السياق وما تضاف إليه، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن على ثلاثة معان:

١- التوحيد (العقيدة) قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورى: ١٣]، وأهم ما أوصى الله به الأنبياء هو إقامة التوحيد ونبذ الشرك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]

٢- ما سوى التوحيد: قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]

٣- الدين كله: قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

---

(١) شرح نظم الورقات في أصول الفقه (ص: ٢٥-٢٦).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٤٦/٥).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٢٦٢/٣).

[الجاثية: ١٨]

فلفظ الشريعة لفظ مشترك، استعمل لعدة معان، فتارة بمعنى التوحيد والعقيدة، وتارة بمعنى الفقه، وتارة بمعنى الدين كله، ولكن المتعارف في اصطلاح العلماء الآن أن (الشريعة هي: الأمر والنهي والحلال والحرام والفرائض والحدود والسنن والأحكام)[١]، وهي بهذا الاعتبار بمعنى الفقه، وقد تقدم الكلام عنه.

العلاقة بين العقيدة والشريعة: العقيدة تستلزم الشريعة، والشريعة تستلزم العقيدة، فإذا ذكرت إحداهما مفردة تشمل الأخرى، وإذا ذكرتا معا يكون لكل واحدة منها معنى، فيكون المراد بالعقيدة الأعمال القلبية الباطنة وما تعورف عليه من أبواب الاعتقاد، ويكون المراد بالشريعة الأعمال الظاهرة، ولكن إذا ذكرت أي واحدة منهما مفردة تكون شاملة للأخرى، وهذا مثل الإسلام والإيمان تماما، فالإيمان يمثل جانب العقيدة والإسلام يمثل جانب الشريعة، وهما من الألفاظ التي قيل فيها: إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

ج- مؤلفات في العقيدة تحت مسمى الشريعة.

١- الشريعة لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري ٣٦٠هـ.

٢- الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي ٣٨٧هـ.

٦- الدين: من مسميات علم العقيدة: الدين.

أ- تعريف الدين لغة واصطلاحا:

الدين في اللغة معناه الذل والخضوع والطاعة والاعتقاد، وقد تقدم.

الدين في الاصطلاح: هو اعتقاد قداسة ذات، ومجموعة السلوك الذي يدل على الخضوع لتلك الذات ذلا وحبا، رغبة ورهبة.

وهذا التعريف عام يدخل فيه جميع الأديان السماوية وغير السماوية، ويدخل فيه الصحيح وغير الصحيح[٢].

ولكن المراد بالدين عندنا دين الإسلام الذي جاء به النبي ﷺ قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وهو بهذا الاعتبار يكون بمعنى الشريعة الإسلامية التي جاء بها النبي ﷺ.

ب- العلاقة بين الدين والعقيدة: مثل العلاقة بين العقيدة والشريعة، وقد تقدم.

ج- من ا لمؤلفات في العقيدة تحت مسمى الدين.

الدين الخالص للسيد محمد صديق حسن خان القنوجي ١٣٠٧هـ.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٦٢).

(٢) انظر: دراسات في الأديان: اليهودية والنصرانية لشيخنا الدكتور سعود الخلف حفظه الله (ص: ١١-١٢).

٧- الإيمان: من مسميات علم العقيدة: الإيمان.

أ- تعريف الإيمان لغة واصطلاحا:

الإيمان في اللغة: الإيمان مشتق من فعل "أَمِنَ" من الأمانة والأمن، الذي هو ضد الخيانة، ومعناه: التصديق مع الأمن، والتصديق مع الطمأنينة، فالإيمان في اللغة: تصديق مخصوص.

قال الراغب: (الإيمان هو التصديق الذي معه أمن)(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (تفسيره بلفظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق مع أن بينهما فرقا)(٢)، وقال أيضا: (ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار، لا مجرد التصديق)(٣).

الإيمان في الاصطلاح: تنوعت عبارات أهل السنة والجماعة في تعريف الإيمان ومن أشهرها: اعتقاد بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

ب- العلاقة بين الإيمان والعقيدة: مفهوم العقيدة أوسع من الإيمان لأنها تشمل مسائل الإيمان وغيرها، ولكن مفهوم الإيمان أوسع باعتبار أنه شعب تجمع العقيدة والشريعة، فمن وجه يكون الإيمان أعم، ومن وجه تكون العقيدة أعم.

ج- من ا لمؤلفات في العقيدة تحت مسمى الإيمان.

كتاب الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ٢٢٤هـ

كتاب الإيمان لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ٢٣٥هـ.

كتاب الإيمان للحافظ محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده ٣٩٥هـ.

تنبيهان عن المؤلفات في العقيدة:

أولا: العلماء المتقدمون لم يكونوا يقسمون تصانيفهم إلى العقائد والأحكام، والأصول والفروع، وكانت كتبهم تشتمل على مباحث العقيدة، وكانوا يجعلون لها عناوين بارزة تدل على مسائل العقيدة، فالإمام مالك عنون في الموطأ بـ(كتاب القدر) و(كتاب جهنم)، والإمام البخاري بدأ كتابه بـ(كتاب بدء الوحي) ثم كتاب الإيمان وكتاب العلم، وكذلك فيه كتاب أحاديث الأنبياء وكتاب المناقب وكتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ وكتاب مناقب الأنصار، وكتاب القدر، وكتاب الفتن، وكتاب أخبار الأحاد، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، وختمه بكتاب التوحيد، والإمام مسلم بدأ بـ(كتاب الإيمان)، وكذلك ذكر فيه كتاب الإمارة، وكتاب الفضائل، وكتاب فضائل الصحابة، وكتاب القدر، وكتاب صفة القيامة والجنة والنار، وكتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، وكتاب الفتن وأشراط الساعة، والإمام أبو داود

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٦)

(٢) مجموع الفتاوى (٢٩١/٧)

(٣) مجموع الفتاوى (٦٣٨/٧)

عنده كتاب الفتن والملاحم وكتاب المهدي، وكتاب السنة، والإمام الترمذي عنده كتاب القدر، وكتاب الفتن، وكتاب صفة القيامة والرقائق والورع، وكتاب صفة الجنة، وكتاب صفة جهنم، وكتاب الإيمان، وكتاب المناقب، والإمام النسائي عنده كتاب الإمامة وكتاب الإيمان وشرائعه، والإمام ابن ماجه ذكر في المقدمة أربعا وعشرين بابا، وبدأ بـ(باب اتباع سنة رسول الله ﷺ) وكذلك ذكر فيه كتاب الفتن، وهكذا في كتب الحديث الأخرى، فهي مشتملة على كتب وأبواب مفردة متعلقة بالعقيدة، وإن كانت لم تفرد للكتابة عن العقيدة.

ثانيا: كتب المتقدمين في العقائد كانت كثيرا ما تتضمن مسائل فقهية وآدابا شرعية، مثلا شرح السنة للبربهاري، فقد تكلم فيه عن أحكام النكاح والطلاق والمعاملات، وشرح السنة للمزني تكلم فيه عن أحكام قصر الصلاة في السفر، وأبو جعفر الطحاوي تكلم عن المسح على الخفين، وغيرهم كثير، وكان ذلك منهم لأحد أمرين:

١- ساق أئمة السلف بعض مسائل الفروع والعبادات والحلال والحرام في ثنايا مصنفاتهم في العقيدة باعتبار أن دين الله تعالى وشريعته وسنة النبي ﷺ شاملة للأصول والفروع، والاعتقادات والأعمال، قال تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٧٧] فهم ما كانوا يفرقون في ذلك.

٢- وكانوا يذكرون مسائل الفقه والعبادات للرد على الفرق المخالفة ولبيان ما امتاز به أهل السنة والجماعة ووفقوا له من موافقة السنة عموما وفي تلك المسائل خصوصا. فمن الخوارج من أنكر القصر في السفر، وأنكرت الروافض والخوارج المسح على الخفين، وأحلت الروافض نكاح المتعة، وأنكرت الجمعة والجهاد إلا خلف المعصوم...هكذا فالأئمة ذكروا هذه المسائل وأمثالها للرد عليهم والتحذير منهم، ولبيان ما امتاز به أهل السنة وتميزوا به ووفقوا له من موافقة السنة والحق والهدى.

ثالثا: مفهوم أهل السنة والجماعة، ومصادر التلقي عندهم ومنهجهم في الاستدلال:

أ- معنى أهل السنة والجماعة: هذا المسمى يجمع وصفين لأصحابه، وهما: السنة، والجماعة.

وقد تقدم معنى السنة في اللغة وفي الاصطلاح، وذكرنا أن العلماء يعرفونها اصطلاحا بأنها: ما نقل عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خَلْقي أو خُلُقي.

والسنة قد تطلق على ما يقابل البدعة، كقولهم: طلاق السنة كذا، وطلاق البدعة كذا، وفلان على السنة، إذا وافق التنزيل والأثر في القول والفعل، وفلان على البدعة إذا عمل خلاف ذلك.

والسنة بهذا الاعتبار تشمل ما كان عليه النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون، وصحابته الكرام من

الاعتقادات والأقوال والأعمال.

وأما الجماعة فهي مأخوذ من الجمع، وهو ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض، يقال: جمعته فاجتمع، والجماعة العدد الكثير من الناس أو القوم المجتمعون على أمر ما أو طائفة يجمعهم غرض واحد.

المراد بها شرعا: هم الرسول ﷺ وأصحابه والتابعون وتابعوهم بإحسان.

والنبي ﷺ سئل عن الفرقة الناجية فأجاب بقوله: من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي، ومرة بقوله، هي: الجماعة.

فالمتمسكون بالحق المتمثل في الكتاب والسنة والسائرون على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه هم الجماعة، ولو كان عددهم قليلا بل ولو كان فردا واحدا؛ ولذلك فسر بعض أهل العلم الجماعةَ بأشخاص تمثل فيهم المنهج الحق والاتباع الخالص.

فقد سئل عبد الله بن المبارك، فقيل له: من الجماعة؟ فقال: أبو بكر وعمر. قيل له: قد مات أبو بكر وعمر. قال: فلان وفلان. قيل له: قد مات فلان وفلان. فقال عبد الله بن المبارك: أبو حمزة السكرى جماعة. قال أبو عيسى الترمذي بعد أن ذكر قول ابن المبارك المذكور: (وأبو حمزة هو محمد بن ميمون، وكان شيخا صالحا، وإنما قال هذا في حياته عندنا)[1]. وفي رواية قيل لابن المبارك: من الجماعة؟ قال: محمد بن ثابت، والحسين بن واقد، وأبو حمزة السكري. قال أحمد بن شبّويه: ليس فيهم شيء من الإرجاء[2].

وسئل إسحاق بن راهويه، فقيل له: يا أبا يعقوب! من السواد الأعظم؟ فقال: محمد بن أسلم وأصحابه ومن تبعه، ثم قال: سأل رجل ابن المبارك فقال: يا أبا عبد الرحمن! من السواد الأعظم؟ قال: أبو حمزة السكري. ثم قال إسحاق: في ذلك الزمان -يعني أبا حمزة-، وفي زماننا محمد بن أسلم ومن تبعه. ثم قال إسحاق: لو سألت الجهال من السواد الأعظم؟ قالوا: جماعة الناس، ولا يعلمون أن الجماعة عالم متمسك بأثر النبي ﷺ وطريقه، فمن كان معه وتبعه فهو الجماعة، ومن خالفه فيه ترك الجماعة. ثم قال إسحاق: لم أسمع عالما منذ خمسين سنة أعلم من محمد بن أسلم[3]. وفي رواية بلفظ: (لم أسمع عالما منذ خمسين سنة كان أشد تمسكا بأثر النبي ﷺ من محمد بن أسلم)[4].

قال ابن القيم معلقا على جواب الإمام إسحاق المذكور ومقررا له: (صدق والله، فإن العصر إذا كان فيه إمام عارف بالسنة، داع إليها، فهو الحجة، وهو الإجماع، وهو السواد الأعظم، وهو سبيل المؤمنين التي من فارقها واتبع سواها ولّاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم، وساءت مصيرا)[5].

---

(١) سنن الترمذي (ص: ٤٩٠).

(٢) تهذيب التهذيب (٤٣٨/٢ ترجمة: الحسين بن واقد المروزي).

(٣) حلية الأولياء (٢٣٨/٩-٢٣٩).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٩٧/١٢).

(٥) إغاثة اللهفان (١١٦/١).

فالذين اجتمعت فيهم صفات الاتباع الكامل للكتاب والسنة، وساروا على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وتمسكوا بالحق واتبعوه، فهم الجماعة، وهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، ولو كان عددهم قليلا، فإن العبرة بموافقة الحق واتباعه، لا بالعدد وكثرته.

قال عمرو بن ميمون الأودي صحبت معاذا ﷺ باليمن فما فارقته حتى واريته بالتراب بالشام، ثم صحبت بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود ﷺ، فسمعته يقول: عليكم بالجماعة، فإن يد الله على الجماعة، ثم سمعته يوما من الأيام وهو يقول: سيلي عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فصلوا الصلاة لميقاتها، فهي الفريضة، وصل معهم فإنها لك نافلة. قال: قلت: يا أصحاب محمد! ما أدري ما تحدثون؟ قال: وما ذاك؟ قلت: تأمرني بالجماعة وتحضني عليها، ثم تقول لي: صل الصلاة وحدك وهي الفريضة، وصل مع الجماعة وهي نافلة؟ قال: يا عمرو بن ميمون! قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية، تدري ما الجماعة؟ قلت: لا. قال: إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وأن الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك، وفي رواية فقال ابن مسعود -وضرب على فخذي-: ويحك أن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وأن الجماعة ما وافق طاعة الله تعالى[1]. قال نعيم بن حماد: يعني إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد وإن كنت وحدك؛ فإنك أنت الجماعة حينئذ[2].

وقال أبو عثمان سعيد بن العباس الرازي: (لو لم يبق أحد في الدنيا إلا رجل واحد من أهل السنة والجماعة لكان أكثر؛ لأنه دين الله الأعظم، الذي أظهره على الدين كله، ولو كره المشركون)[3].

وقال أبو شامة المقدسي ٦٦٥هـ: (وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فالمراد به لزوم الحق واتباعه، وان كان المتمسك بالحق قليلا والمخالف كثيرا؛ لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم، ولا نظر الى كثرة أهل الباطل بعدهم)[4].

فالجماعة هنا هم المجتمعون على الحق وإن كانوا قليلين وكان المخالف لهم كثيرا، فإن يد الله معهم؛ لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ، ولا عبرة ولا التفات ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل من بعدهم.

ومعنى أهل السنة والجماعة باختصار: المتبعون لمنهج الرسول ﷺ وأصحابه في الأصول والفروع.

وسموا بأهل السنة والجماعة، لأنهم عملوا بالسنة وتمسكوا بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، ولأنهم حققوا معنى الجماعة التي أمرت بها النصوص الشرعية وتجنبوا الإحداث والفرقة التي حذرته منها النصوص الشرعية ونهت عنها.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (٤٦/٤٠٩)، وانظر: الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص: ١٩-٢٠)، وإغاثة اللهفان (١/١١٥).

(٢) تاريخ مدينة دمشق (٤٦/٤٠٩)، وانظر: الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص: ٢٠)، وإغاثة اللهفان (١/١١٥).

(٣) طبقات المحدثين بأصبهان (٢/٣٤٦-٣٤٩، الطبقة الثامنة، ترجمة إبراهيم بن عيسى الزاهد برقم: ٢٠٧).

(٤) الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص: ١٩).

إطلاقات أهل السنة: لهذا المصطلح لدى أهل العلم الراسخين ثلاث إطلاقات:

١- أهل السنة المحضة: وهم المتمسكون بما كان عليه النبي ﷺ والصحابة: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم معروف قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد فإنه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم، ومن خالف ذلك كان مبتدعا عند أهل السنة والجماعة)[١]، وهؤلاء هم أهل السنة بحق وهم الجديرون بهذا الاسم، وإن كان الآخرون يدعون ذلك لأنفسهم، ويسمون أنفسهم بأهل السنة والجماعة ولكن الأمر ليس بالدعوى والتسمي والتمني.

٢- أقرب الطوائف إلى الحق في المجتمعات والبلاد التي يكثر ويتنوع فيها أهل البدع: قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن الكلابية: (إنهم أقرب طوائف أهل الكلام إلى السنة والجماعة والحديث، وهم يعدون من أهل السنة والجماعة عند النظر إلى مثل المعتزلة والرافضة، بل هم أهل السنة والجماعة في البلاد التي يكون أهل البدع فيها هم المعتزلة والرافضة ونحوهم)[٢].

٣- كل من أثبت خلافة الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل: وهذا في مقابل الرافضة، فإنهم ينكرون خلافة هؤلاء الخلفاء الثلاثة، فمن أثبت خلافتهم فهو من أهل السنة بهذا الاعتبار، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (لفظ أهل السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة، وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى ويقول إن القرآن غير مخلوق وإن الله يرى في الآخرة ويثبت القدر وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة)[٣].

فكل من ليس برافضي فهو من أهل السنة من حيث الإطلاق العام، ولكنه من حيث الإطلاق الخاص فلا يدخل فيهم إلا من كان على ما كان عليه النبي ﷺ والصحابة في العقيدة والعمل في جميع أبواب الدين وأصول الاعتقاد، وقد يتجوز في ذلك فيطلق ويراد به أقرب الطوائف إلى الحق ولكن يكون ذلك في المجتمعات والبلاد التي يكثر فيها أهل البدع بأصنافهم وأنواعهم.

مسميات أخرى أطلقت على أهل السنة والجماعة: ثمة مسميات أخرى أطلقت على أهل السنة والجماعة وحملة العقيدة الصحيحة منها: السلف الصالح، أهل الحديث، أهل الأثر، الفرقة الناجية، الطائفة المنصورة.

ب- مصادر التلقي عندهم: قسم بعضهم مصادر تلقي العقيدة عند أهل السنة والجماعة إلى مصادر أصلية وفرعية، فالمصادر الأصلية هي: الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة الصالح، والإجماع، وأما المصادر الفرعية فهي: العقل السليم والفطر السليمة والحسّ، ولكن الإجماع والعقل والفطرة وغيرها فهي كلها

---

(١) منهاج السنة النبوية (٢/٦٠١).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/٨٧)، وانظر: درء تعارض العقل والنقل (٦/٢٩٢).

(٣) منهاج السنة النبوية (٢/٢٢١).

تابعة لنصوص الوحي من الكتاب والسنة ومحكومة بها، وليس لشيء منها استقلال ذاتي، ولذلك الكتاب والسنة وفق فهم السلف الصالح هو الركن الركين والأصل الأصيل والمعين الصافي لتلقي العقيدة الصحيحة، فالعقيدة الإسلامية لها مصدران فقط، وهما: كتاب الله عز وجل، وما صح من سنة رسول الله ﷺ لأن الله تعالى **أمرنا باتباع ما أنزله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ**: قال تعالى: ﴿ **ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ** ﴾ [الأعراف: ٣] وقال تعالى: ﴿ **وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** ﴾ [الحشر: ٧]، وأمرنا بطاعة الله وطاعة رسوله وأمرنا بالرد إلى الله وإلى رسوله عند التنازع: قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا** ﴾ [النساء: ٥٩] . فقد أمر الله بطاعة الله وطاعة الرسول أمرا مطلقا، وأمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله وإلى رسوله ﷺ. قال العلماء: الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول بعد موته هو الرد إلى سنته.

والاعتصام بالكتاب والسنة من أعظم نعم الله تعالى، وهو سبب للعصمة من الوقوع في الحيرة والاضطراب، ومن الوقوع في الخطأ والانحراف والزلل، ومن التفرق والضياع والضلال، قال تعالى: ﴿ **فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ** ﴾ [طه: ١٢٣]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي»(١).

ج- منهجهم في الاستدلال: إن أهل السنة والجماعة لهم في تقرير مسائل الاعتقاد خصائص ومميزات وفقوا لها وامتازوا بها عن الفرق الأخرى، وهي كثيرة، وفيما يلي ذكر جملة منها باختصار:

١- التمسك بالكتاب والسنة: أهل السنة والجماعة يتمسكون بالكتاب والسنة، وإليهما يرجعون ويتحاكمون، ومنهما يصدرون، وعليهما يعتمدون، وبهما يستدلون، وهذا منهجهم في جميع أبواب الدين، وخاصة في مسائل الاعتقاد، وهذا من أهم خصائصهم، ولذلك تكون كتبهم ومؤلفاتهم وأحكامهم وأقوالهم وتقريراتهم وخطبهم وفتاواهم مدللة مزدانة بآيات الكتاب وأحاديث المصطفى ﷺ، وما ذلك منهم إلا عملا بالكتاب والسنة، وامتثالا وطاعة لله ولرسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ **ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ** ﴾ [الأعراف: ٣] وقال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ**

---

(١) أخرجه الحاكم (ك: العلم ١/١٧٢)، والدارقطني في السنن (ك: الأقضية والأحكام وغير ذلك ٥/٤٤٠ ح: ٤٦٠٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١/٥٦٦ ح: ٢٩٣٧)، وفي السلسلة الصحيحة ضمن كلامه على (ح: ١٧٦١).

تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]وقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي»(١).

٢- التمسك بآثار السلف الصالح وفهمهم للنصوص وعملهم بها وتطبيقهم لها: إن جميع الفرق المنحرفة تنتسب إلى الكتاب والسنة، ولا تجرؤ على التبرؤ منهما بالكلية، وهي تدعي الاستدلال بالكتاب والسنة فيما ذهبت إليه من الأحكام والعقائد، فاتباع الصحابة والأخذ بفهمهم هو الفيصل في هذه الصورة بين الحق والباطل، وهو مناط النجاة والهداية، وهو سبيل النجاة والفلاح، ومخالفته من سبل الفرق الهالكة، ولذلك أهل السنة والجماعة يتمسكون بآثار الصحابة والتابعين، قال الإمام أحمد بن حنبل: (أصول السنة عندنا التمسك بما عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم، وترك البدع)(٢). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله ﷺ باطنا وظاهرا، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله ﷺ حيث قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»(٣)، ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، ويوثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد، وبهذا سموا أهل الكتاب والسنة، وسموا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسما لنفس القوم المجتمعين، والإجماع هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين، وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة وظاهرة مما له تعلق بالدين)(٤)، وقال أيضا أثناء المناظرة حول العقيدة الواسطية: (وقلت مرات: قد أمهلت كل من خالفني في شيء منها ثلاث سنين؛ فإن جاء بحرف واحد عن القرون الثلاثة التي أثنى عليها النبي حيث قال: خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم يخالف ما ذكرته؛ فأنا أرجع عن ذلك، وعلي أن آتي بنقول جميع الطوائف من القرون الثلاثة توافق ما ذكرته من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية والأشعرية والصوفية وأهل الحديث

---

(١) أخرجه الحاكم (ك: العلم ١/١٧٢)، والدارقطني في السنن (ك: الأقضية والأحكام وغير ذلك ٥/٤٤٠ ح: ٤٦٠٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١/٥٦٦ ح: ٢٩٣٧)، وفي السلسلة الصحيحة ضمن كلامه على (ح: ١٧٦١).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/١٧٦ رقم: ٣١٧).

(٣) أخرجه أبو داود (ك: السنة ح: ٤٦٠٧)، واللفظ له، والترمذي (ك: العلم ح: ٢٦٧٦)، وابن ماجه (المقدمة ح: ٤٢)، وابن حبان كما في الإحسان (المقدمة ح:٥)، والحاكم (ك: العلم ١/٩٥-٩٧)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وكذلك صححه الألباني في الإرواء (٨/١٠٧-١٠٩ح: ٢٤٥٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٣/١٥٧).

وغيرهم)[1]، وتمسكهم بهذا الأصل ثابت بالكتاب والسنة وأقوال السلف وإجماعهم، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١٠٠]وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء: ١١٥].

٣- النظر إلى مجموع الأدلة: أهل السنة والجماعة ينظرون إلى مجموع الأدلة، ويأخذون بها جميعا، ولا ينظرون إليها بعين واحدة، فلا يأخذون بها من طرف ويغفلون الطرف الثاني، بل ينظرون إليها بالعينين، فقد استدلت القدرية بالآيات الدالة على إثبات المشيئة للعباد، والآيات الدالة على نسبة الأفعال كالإيمان والكفر والطاعة والمعصية إليهم مثل: قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩]وقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾[المدثر: ٣٧]وقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾[التكوير: ٢٨]وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

واستدلت الجبرية بالآيات الدالة على إثبات المشيئة لله تعالى، والآيات الدالة على عموم خلقه وقدرته ومشيئته، والآيات التي فيها نفي الفعل عن العبد وإثباتها لله تعالى مثل: قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾[الأنعام: ١٠٢] وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾[الزمر: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾[الأنفال: ١٧] وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

وكلتا الطائفتين الجبرية والقدرية لديهم طرف من الحق وطرف من الباطل، وكل من الجبرية والمعتزلة

(١) العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: ٢٣٥).

ترد أدلتهم أدلة الطرف الآخر، وبمجموع تلك الأدلة يتبين الحق، وهو إثبات المشيئة للعباد، وكونها واقعة بمشيئة الله تابعة لها...وهكذا في المسائل الأخرى وأدلتها...

٤- رد المتشابه إلى المحكم: أهل السنة والجماعة يردون المتشابه المحتمل إلى المحكم البين، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[آل عمران: ٧] قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»(١). قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: (إذا قال لك بعض المشركين: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[يونس: ٦٢]، أو استدل بالشفاعة أنها حق، أو أن الأنبياء لهم جاه عند الله أو ذكر كلاما للنبي ﷺ يستدل به على شيء من باطله، وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره؛ فجاوبه بقولك: إن الله ذكر في كتابه أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه، وما ذكرته لك من أن الله ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية، وأن كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[يونس: ١٨] هذا أمر محكم بَيِّن لا يقدر أحد أن يغير معناه. وما ذكرته لي أيها المشرك من القرآن أو كلام رسول الله ﷺ لا أعرف معناه، ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله. وهذا جواب جيد سديد، ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله؛ فلا تستهن به؛ فإنه كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[فصلت: ٣٥])(٢).

٥- مراعاة ألفاظ الكتاب والسنة وما ورد عن السلف عند بيان العقيدة: أهل السنة والجماعة يلتزمون بألفاظ الكتاب والسنة عند بيان العقيدة، ويجتنبون الألفاظ والمصطلحات الكلامية والفلسفية المحدثة المجملة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (أهل السنة والحديث فيهم رعاية لألفاظ النصوص وألفاظ السلف)(٣)، وقال أيضا: (ذكرت في النفي التمثيل، ولم أذكر التشبيه؛ لأن التمثيل نفاه الله بنص كتابه حيث قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾[الشورى: ١١]، وقال:﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾[مريم: ٦٥] فكان أحب إليَّ من لفظ ليس في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله)(٤) وقال أيضا: (قولي: "من غير تكييف ولا تمثيل" ينفي كل باطل، وإنما أخذت هذين الاسمين؛ لأن التكييف مأثور نفيه عن السلف، كما قال ربيعة ومالك وابن عيينة وغيرهم المقالة التي تلقاها العلماء بالقبول الاستواء معلوم والكيف

---

(١) أخرجه البخاري (ك: التفسير، سورة آل عمران ح: ٤٥٤٧)، ومسلم (ك: العلم، ح: ٢٦٦٥).

(٢) كشف الشبهات (ص: ٢٣).

(٣) بيان تلبيس الجهمية في بدعهم الكلامية (٢/١١٠) ط. الأولى عام ١٣٩٢هـ.

(٤) العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: ٢٣٠-٢٣١).

مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة)[1]، وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (والتشبيه كالتمثيل، وقد يفرق بينهما بأن التمثيل التسوية في كل الصفات، والتشبيه التسوية في أكثر الصفات، لكن التعبير بنفي التمثيل أولى لموافقة القرآن: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى: ١١])[2]؛ فالأصل في هذا الباب هو الاعتصام بالألفاظ الشرعية، وأما الألفاظ الحادثة المجملة فينظر فيها ويستفسر عن معناها: فإن كان لها معنى باطل رد اللفظ والمعنى، وإن كان لها معنى حق رد اللفظ وقبل المعنى، وعبر عن المعنى الصحيح بالألفاظ الشرعية. مثلا : لو قال قائل: إن الله في جهة، أو: هل لله جهة؟ فيقال: لفظ الجهة ليس في الكتاب والسنة إثباته ولا نفيه، وفي النصوص ما يغني عنه، مثل العلو، والفوقية، والاستواء على العرش، وصعود الأشياء إليه، ونزولها منه. وهذا اللفظ لا نثبته ولا ننفيه لعدم ورود ذلك، وأما المعنى فينظر فيه، هل المقصود به شيء مخلوق محيط بالله عز وجل؟ فهذا معنى باطل، لا يليق بالله، فإنه سبحانه لا يحيط به شيء من المخلوقات، ولا يمكن أن يكون داخل شيء من مخلوقاته، وإن كان المراد بالجهة ما فوق العالم فهذا حق ثابت كما دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة[3].

٦- تقديم الشرع على العقل عند توهم التعارض: الواقع أنه لا تعارض بين العقل السليم والنقل الصحيح، وإذا توهم شخص التعارض بينهما فيجب عليه تقديم الشرع على العقل، وقد كان تقديم ما في الكتاب والسنة على غيرهما من معقول أو غيره من مسلمات منهج السلف وأهل السنة والجماعة.

رابعا: المقارنة بين مصادر التلقي عند أهل السنة والجماعة ومصادر غيرهم من المخالفين:

أهل السنة والجماعة يتمسكون بالكتاب والسنة وفق فهم السلف الصالح، ولا يقدمون على الوحي الإلهي غيره في حال من الأحوال، ويميزون بين صحيح الأحاديث والأخبار والآثار وسقيمها ولا يأخذون إلا بما صح منها ولكن المخالفون لهم وإن كانوا يدعون التمسك بالكتاب والسنة وتارة يستدلون بهما في كتبهم، ويذكرون فيها الآيات والأحاديث ولكنهم لا يميزون بين الصحيح والسقيم من الأحاديث والأخبار، ولا يتقيدون في فهمهم للنصوص بفهم السلف الصالح، ويقدمون غيره عليهما، ولا يكتفون بهما، ولا يعدونهما الأصل الأصيل المرجوع إليه عند التنازع، فالفرق الكلامية من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية ومن نحا نحوهم يقدمون العقل على النقل ويقومون بتأويل النصوص التي لا توافق مقاييسهم العقلية وأصولهم البدعية، والشيعة الإمامية يزعمون تحريف القرآن الكريم فلا يرونه حجة، وكذلك لا يحتجون بأحاديث أهل السنة ومروياتهم لمجيئها عن طريق الصحابة الذين هم في زعمهم كفار مرتدون، وإنما يأخذون منها ما وافق مرويات بعض أهل البيت وشيعتهم الذين كانوا مع علي ﷺ في

(١) العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: ٢٣٢).

(٢) القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى (ص: ٣٩).

(٣) انظر: القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى (ص: ٤٤).

معاركه السياسية، ويحصرون ذلك في الغالب ما كان من طريق علي وأولاده الأئمة، ولا يرون الحجة في شيء من الكتاب والسنة والإجماع إلا إذا كان مصحوبا بقول إمامهم، والفرق الصوفية يستدلون بالكشف والذوق والوجد ويقدمون دلالاتها على دلالات الكتاب والسنة، ونصوص الكتاب والسنة في الحقيقة عند هؤلاء المخالفين كلهم بمثابة الشهود الزائدة.

خامسا: مناقشة دعوى تقديم العقل على النقل: هناك من يزعم التعارض بين العقل والنقل ويرى تقديم العقل على النقل عند التعارض، ولكن هذا غير صحيح وبيان ذلك فيما يلي:

أ- لا تعارض بين النقل الصحيح والعقل السليم: هذا أصل أصيل عند أهل السنة والجماعة، وذلك لأن كل ما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع فهو حق وصدق، فلا يمكن أن يناقضه العقل السليم، وإن توهم التعارض بينهما فالخلل إما في العقل والفهم بأنه لم يدركه جيدا ولم يفهمه على الوجه الصحيح، وإما أن ذلك النقل ليس بصحيح وليس بثابت عن المعصوم ﷺ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه معصومون لا يقولون على الله إلا الحق ولا ينقلون عنه إلا الصدق، فمن ادعى في أخبارهم ما يناقض صريح المعقول كان كاذبا بل لا بد أن يكون ذلك المعقول ليس بصريح أو ذلك المنقول ليس بصحيح، فما علم يقينا أنهم أخبروا به يمتنع أن يكون في العقل ما يناقضه، وما علم يقينا أن العقل حكم به يمتنع أن يكون في أخبارهم ما يناقضه)[1] وقال أيضا: (إن ما خالف العقل الصريح فهو باطل، وليس في الكتاب والسنة والإجماع باطل، ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعض الناس أو يفهمون منها معنى باطلا؛ فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة)[2]، وقال أيضا: (ما عُلِم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة؛ بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط، وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه؛ فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها؛ بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع. وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار -كمسائل التوحيد والصفات، ومسائل القدر والنبوات والمعاد، وغير ذلك-، ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط؛ بل السمع الذي يقال إنه يخالفه إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة فلا يصلح أن يكون دليلا لو تجرد عن معارضة العقل الصريح فكيف إذا خالفه صريح المعقول)[3]، وقال ابن القيم: (إن الحجج السمعية مطابقة للمعقول، والسمع الصحيح لا ينفك عن العقل الصريح؛ بل هما أخوان نصيران وصل الله بينهما، وقرن أحدهما بصاحبه)[4]، فالسمع الصحيح والعقل السليم أخوان نصيران، فلا يتعارضان ولا يتناقضان، ولا يختلفان،

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/٤٠٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/٤٩٠).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (١/١٤٧)، وانظر: الصواعق المرسلة (٣/٨٢٩).

(٤) الصواعق المرسلة (٢/٤٥٧).

وإن توهم متوهم التعارض والاختلاف والتناقض بينهما فالخلل إما في عقله وفهمه، وإما في سمعه وأن ذلك الدليل ليس بثابت عن المعصوم ﷺ.

ب- عند توهم التعارض بين الدليلين: إن كان كلاهما قطعيين فلا يحصل بينهما تعارض أصلا، كما تقدم، وإن كان أحدهما قطعيا والآخر ظنيا فيقدم القطعي على الظني، وإن كان كلاهما ظنيين فينظر إلى قرائن الترجيح والذي احتفت به القرائن يرجح على ما ليس كذلك، فلا يصح القول بتقديم العقل على النقل على الإطلاق، بل الواجب المتحتم تقديم النقل على العقل عند توهم التعارض بينهما، وذلك لما يأتي.

ج- وجوب تقديم النقل على العقل عند توهم التعارض: عند توهم التعارض بين العقل والنقل وعجز المكلف عن إزالة هذا التعارض يجب تقديم النقل على العقل، وفي هذه الحالة يتهم العقل، ولا يطعن في النقل، ويكون النقل هو المقدَّم والمتَّبع، قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، فهذا هو القانون الكلي عند أهل السنة والجماعة في هذه الحالة.

وعن عمرو بن مهاجر، عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى الناس (أنه لا رأي لأحد مع سنة سنها رسول الله ﷺ)[١]، وقال الشافعي: (وإذا ثبت الخبر عن النبي ﷺ لم يجز تركه لشيء)[٢]، وقال أيضا: (يسقط كل شيء خالف أمر النبي ﷺ، ولا يقوم رأي ولا قياس، فإن الله عز وجل قطع العذر بقوله ﷺ)[٣].

د- تقديم العقل على النقل قدح في العقل: وذلك لأن العقل قد دل على صدق الرسول دلالة عامة مطلقة، وأنه يجب تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، فلو قدم العقل على النقل، مع شهادة العقل بصدق الرسول وعصمته ووجوب تصديقه وطاعته لكان ذلك تناقضا وتراجعا واضطرابا من العقل، وقدحا في العقل، وفي هذه الصورة لا يسلم للعقل، وهذا كالعامي الذي يبحث عن المفتي، فدل عليه رجل عامي آخر، ثم اختلف العامي الدال والمفتي وجب على المستفتي أن يقدم قول المفتي، فإن قال له العامي: أنا الذي دللتك عليه، وأنا الأصل في وصولك إليه، وأنت بهذا الفعل تقدح في الأصل الذي علمت بأنه مفت! قيل: له أنت بنفسك شهدت على نفسك -حين دللت على غيرك- بأنك لست عالما ولا مفتيا، وأنك لست أهلا لأن تقلد ويؤخذ منك في هذا الباب[٤].

والعقول البشرية متفاوتة وليس لها ضابط موحد، فكل يدعو ويقرر ما يحلو له ويستحسنه بعقله، فمنهم من ينكر وجود الله تعالى، ومنهم من ينكر أسماء الله وصفاته، ومنهم من ينكر أسماء الله دون

---

(١) أخرجه الآجري في الشريعة (٤٢٣/١ برقم: ١٠٧) بإسناد حسن.

(٢) الأم (٥٩٢/٣).

(٣) الأم (٥٩٥/٣).

(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١٣٨/١-١٣٩).

صفاته... وهكذا عقول البشر وتقريراتها مختلفة غاية الاختلاف، وهي داعية باستمرار إلى النزاع والخلاف والشقاق والهلاك. فلا يمكن الاعتماد عليها في هذا الباب البتة.

هـ- العقل قوته محدودة وحدوده ضيقة: لا شك أن العقل نعمة، وقد أمر الله باستعمالها، ولكن الأمور العقدية بتفاصيلها ليست داخلة تحت نطاق البشر، وهي أوسع من نطاق عقلهم، والقوى البشرية كلها محدودة بحدود لا تدرك ما وراء تلك الحدود، فقوة البصر في العين عاجزة عن الإبصار في الظلام ومحتاجة إلى النور، فكذلك العقل البشري له إطار محدود ومجال معين لا يمكن أن يتعداه.

وقد ذكر ابن بطة بإسناده أن رجلا من المسلمين أتى عبد الله بن العباس رحمة الله عليه بابن له، فقال: لقد حيرت الخصومة عقله، وأذهبت المنازعة قلبه، وذهبت به الكلفة عن ربه، فقال عبد الله: امدد بصرك يا ابن أخي، ما السواد الذي ترى؟ قال: فلان، قال: صدقت. قال: فما الخيال المسرف من خلفه؟ قال: لا أدري. قال عبد الله: يا ابن أخي، فكما جعل الله لأبصار العيون حدا محدودا من دونها حجابا مستورا، فكذلك جعل لأبصار القلوب غاية لا يجاوزها، وحدودا لا يتعداها. قال: فرد الله عليه غارب عقله، وانتهى عن المسألة عما لا يعنيه، والنظر فيما لا ينفعه، والتفكر فيما يحيره[1].

وقال ابن خلدون: (واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك، فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك، لأنه من طور فوق إدراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الالهية وكل ما وراء طوره؛ فان ذلك طمع في محال، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فطمع أن يزن به الجبال، وهذا لا يدرك على أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره) [2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فما أخبرت به الرسل من تفاصيل اليوم الآخر، وأمرت به من تفاصيل الشرائع لا يعلمه الناس بعقولهم، كما أن ما أخبرت به الرسل من تفصيل أسماء الله وصفاته لا يعلمه الناس بعقولهم، وإن كانوا قد يعلمون بعقولهم جُمَلَ ذلك)[3].

فالعقل له حكم داخل حدود مملكته، وهو عاجز وقاصر خارج سلطانه، وفي كلا الحالين لا يستغني عن الوحي، ولا يستقل بالهداية، وليس له دخل في الغيبيات، فتفاصيل كثير من صفات الله أو الملائكة أو اليوم الآخر لا تعلم إلا من طريق النقل، وإنما يعلم بالعقل أصول الاعتقاد الكبار مثل: الإقرار بوجود الله، وربوبيته، وإفراده بالعبادة، واتصافه بالكمال المطلق، وثبوت المعاد والجزاء، ونحو ذلك،

---

(١) الإبانة (ص: ٤٢٢).

(٢) مقدمة تاريخه (١/٤٦٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٣/١١٥).

ويكون ذلك على سبيل الإجمال، وأما التفصيل فخاصية النقل.

و- تقديم العقل على الإطلاق -مع كونه غير صحيح- يضعف الثقة بالكتاب والسنة، ويفتح باب التحريف والتأويل والرد والإنكار على مصراعيه لكل فاسد ومغرض ومبتدع وصاحب هوى بدعوى أنه لا يوافق العقل، ويلزم منه أن الوحي الإلهي فيه تلبيس، وأنه ليس واضحا تماما وليس كافيا لهداية الناس إلى غير ذلك من اللوازم الباطلة، وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم.

سادسا: مناقشة دعوى عدم الاستدلال بأخبار الآحاد في العقيدة: هناك من يدعي عدم صحة الاستدلال بأخبار الآحاد في مسائل الاعتقاد، ولائك أنها دعوى باطلة، وبيانها وتفصيلها فيما يلي:

أولا: بيان المراد بأخبار الآحاد: قسم أهل العلم الأحاديث النبوية باعتبار وصولها إلينا؛ أي: باعتبار عدد رواتها ونقلتها إلينا إلى قسمين: متواتر وآحاد.

فالمتواتر: ما رواه عدد كثير تحيل العادة تواطؤهم وتوافقهم على الكذب، ويكون هذا العدد الكثير موجودا في جميع طبقات السند؛ أي: من أوله إلى آخره، ويكون مستند خبرهم الحس كقولهم : سمعنا ورأينا وشاهدنا، ولا يكون عند هم شك في ذلك.

وأما أخبار الآحاد فالمقصود بها: كل حديث لم يبلغ إلى حد التواتر ولم يجمع شروط الحديث المتواتر، وليس المقصود بها أن راويها قد انفرد بروايتها وأنه لم يروها غيره بل كل حديث لم يجمع شروط المتواتر يصنف في أخبار الآحاد وإن كان مرويا عن غير واحد.

ثانيا: نماذج من أقوال أهل الكلام على دعواهم أن أخبار الآحاد لا يحتج بها في باب الاعتقاد: ذهب أهل الكلام المذموم، وقرروا في كثير من كتبهم أن أخبار الآحاد ظنية، فلا يجوز الاعتماد عليها والاستدلال بها في باب العقائد، وإنما يمكن الاستدلال بها في الأحكام العملية، قال القاضي عبد الجبار المعتزلي ٤١٥هـ: (وأما ما لا يعلم كونه صدقا ولا كذبا، فهو كأخبار الآحاد، وما هذه سبيله يجوز العمل به إذا ورد بشرائطه، وأما قبوله فيما طريقه الاعتقادات فلا... وههنا أصل آخر، وهو أن ما هذا سبيله من الأخبار فإنه يجب أن ينظر فيه، فإن كان مما طريقه العمل عمل به إذا أورد بشرائطه، وإن كان مما طريقه الاعتقادات ينظر، فإن كان موافقا لحجج العقول قبل واعتقد موجبه، لا لمكانه بل للحجة العقلية، وإن لم يكن موافقا لها فإن الواجب أن يرد ويحكم بأن النبي لم يقله...)[1]. وقال أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني ٤٧٨هـ: (وأما الأحاديث التي يتمسكون بها، فآحاد لا تفضي إلى العلم، ولو أضربنا على جميعها لكان سائغا...)[2]. وقال الملا علي القارئ ١٠١٤هـ: (فإن

(١) شرح الأصول الخمسة (ص: ٧٦٩-٧٧٠).

(٢) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد (ص:١٥٠).

الآحاد لا تفيد الاعتماد في الاعتقاد)[1].

فهذه العبارات المنقولة من كتب أصحابها تبين موقف القوم من أخبار الآحاد بأنها ظنية الثبوت لديهم، وأنها لا تفيد اليقين في زعمهم، فلا تصلح للاحتجاج في باب الاعتقاد، وإنما يمكن الاحتجاج بها في الأحكام، وقد استدلوا لذلك ببعض النصوص التي تنهى عن اتباع الظن كقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وهذه الدعوى قد تبدو جميلة عند بعض الناس، وتكون مستساغة لديهم ولكنها في الحقيقة دعوى فاسدة باطلة، وفيما يلي إلقاء ضوء يسير عليها؛ ليعلم الجاهل وينتبه الغافل وينجلي الحق من الباطل، وبالله التوفيق.

ثالثا: الرد على دعواهم أن أخبار الآحاد لا يحتج بها في باب الاعتقاد: ولا شك أن دعوى أهل الكلام المعطلة أن أخبار الآحاد من الأحاديث النبوية لا يحتج بها في باب الاعتقاد باطلة من وجوه كثيرة، وفيما يلي ذكر بعضها:

أولا: إطلاق القول بظنية أخبار الآحاد وعدم ثبوتها وعدم إفادتها اليقين غير صحيح؛ لأنها ليست أخبار آحاد محضة، مجردة عن قرائن الصحة بل هي محتفة بالقرائن الدالة على صحتها وثبوتها، فعدالة رواتها وديانتهم وأمانتهم وصدقهم وتحفظهم وتحريهم الصواب، ورواية الأئمة لها، وشهرتها، وتعدد طرقها، وإخراج الأئمة الجهابذة النقاد لها في دواوين الحديث ولا سيما التي التزمت منها بالصحة وخاصة صحيح البخاري وصحيح مسلم، وتلقي الأمة لها بالقبول ... هذه كلها قرائن في غاية القوة تدل على صحة هذه الأحاديث وثبوتها وبالتالي هي مفيدة للعلم اليقيني النظري.

قال العلامة ابن القيم: (فإذا اجتمع في قلب المستمع لهذه الأخبار العلم بطريقها ومعرفة حال رواتها وفهم معناه حصل له العلم الضروري الذي لا يمكنه رفعه ... ومن تأمل ذلك أفاده علما ضروريا بما ينقلونه عن نبيهم أعظم من كل علم ينقله كل طائفة عن صاحبه وهذا أمر وجداني عندهم لا يمكنهم جحده بل هو بمنزلة ما تحسونه من الألم واللذة والحب والبغض)[2].

ثم إن هذه الأخبار التي زعموا أنها آحاد موافقة للقرآن الكريم ومفسرة له ومفصلة لما أجمله . وقد ذكر سلام بن أبي مطيع ١٦٤هـ – وهو من شيوخ شيوخ البخاري – المبتدعة يوما فقال : (ويلهم ماذا ينكرون من هذه الأحاديث، والله ما في الحديث شيء إلا وفي القرآن مثله يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥، ، ولقمان: ٢٨ ، والمجادلة : ١] ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨و٣٠] ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾

(١) شرح الفقه الأكبر. (ص: ١٢٧-١٢٨).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (٣٥٨/٢).

[الزمر: ٦٧] ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. ونحو ذلك فلم يزل سلام بن أبي مطيع يذكر الآيات من العصر إلى غروب الشمس(١).

وكذلك يوافقها الأحاديث المتواترة والعقل الصريح والفطرة السليمة وإجماع السلف وما كان هذا شأنه لا يصح أن يقال عنه بأنها ظنية الثبوت وأنها لا تفيد العلم واليقين.

ثانيا: دعوى الاحتجاج بأخبار الآحاد في الفروع والأحكام العملية دون الأصول والعقائد قول مبتدع وتفريق باطل ومخالف لطريقة السلف المتوارثة.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة شريك بن عبد الله القاضي؛ فعن عباد بن العوام قال: قدم علينا شريك بن عبد الله واسطا، فقلنا له: إن قوما ينكرون هذه الأحاديث! وذكروا له بعض أحاديث الصفات، قال شريك: "فما يقولون؟" قالوا: يطعنون فيها. فقال:"إن الذين جاءوا بهذه الأحاديث هم الذين جاءوا بالقرآن، وبأن الصلاة خمس، وبحج البيت، وبصوم رمضان، (يعنى تفاصيلها)، فما نعرف الله إلا بهذه الأحاديث(٢).

وعن الإمام إسحاق بن راهويه – رحمه الله – قال : دخلت على عبد الله بن طاهر فقال لي: يا أبا يعقوب! تقول إن الله ينزل كل ليلة؟ فقلت: أيها الأمير! إن الله بعث إلينا نبيا، نقل إلينا عنه أخباره، بها نحلل الدماء، وبها نحرم، وبها نحلل الفروج، وبها نحرم، وبها نبيح الأموال، وبها نحرم، فإن صح ذا صح ذاك، وإن بطل ذا بطل ذاك! قال: فأمسك عبد الله(٣).

وقال العلامة ابن القيم: (إن هذه الأخبار لو لم تفد اليقين فإن الظن الغالب حاصل منها، ولا يمتنع إثبات الأسماء والصفات بها كما لا يمتنع إثبات الأحكام الطلبية بها، فما الفرق بين باب الطلب وباب الخبر بحيث يحتج بها في أحدهما دون الآخر؟ وهذا التفريق باطل بإجماع الأمة فإنها لم تزل تحتج بهذه الأحاديث في الخبريات العلميات كما تحتج بها في الطلبيات العمليات، ولا سيما والأحكام العملية تتضمن الخبر عن الله بأنه شرع كذا وأوجبه ورضيه دينا فشرعه ودينه راجع إلى أسمائه وصفاته، ولم تزل الصحابة والتابعون وتابعوهم وأهل الحديث والسنة يحتجون بهذه الأخبار في مسائل الصفات والقدر والأسماء والأحكام ولم ينقل عن أحد منهم البتة أنه جوز الاحتجاج بها في مسائل الأحكام دون الأخبار

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٢٩٨/٣) نقلا من الرد على الجهمية لابن أبي حاتم وحكم الحافظ على الإسناد بالصحة.

(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة (٢٧٣/١ برقم : ٥٠٨)، والآجري في الشريعة (١١٢٦/٣ برقم: ٦٩٥) وغيرهما، وصححه الألباني في مختصر العلو (ص: ١٤٩).

(٣) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (ص: ٤٥١-٤٥٢) وغيره، وصححه العلامة الألباني في مختصر العلو (ص: ١٩٢).

عن الله وأسمائه وصفاته، فأين سلف المفرقين بين البابين؟)[1].

ثالثا: إن كثيرا من الأحاديث العملية تتضمن المسائل العقدية، فمن ذلك ما جاء عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تشهد أحدكم، فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم! إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ بعث معاذا ﷺ إلى اليمن، فقال:«ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؛ فإن هم أطاعوه لذلك؛ فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوه لذلك؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم»[3].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي؛ فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو؛ فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة»[4].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم! رَبَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمد الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»[5].

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي تضمنت عقائد وأحكاما، فهل ترى أن نردها ولا نعمل بها مطلقا لكونها أحاديث آحاد تضمنت عقائد، أم نعمل بها في الأحكام دون العقائد من غير دليل على هذا التفريق، أم نعمل بها فيما تضمنته من عقائد وأحكام، وهذا هوا لحق الذي قام عليه الدليل، فيجب الأخذ بأحاديث الآحاد الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ في جميع أبواب الدين من غير تفريق بين العقائد والأحكام.

قال الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي: (اعلم أن التحقيق الذي لا يجوز العدول عنه:

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٤١٢/٢).

(٢) أخرجه البخاري (ك: الجنائز، ح: ١٣٧٧) ومسلم (ك: المساجد ومواضع الصلاة، ح: ٥٨٨)، واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (ك: الزكاة، ح: ١٣٩٥)، ومسلم (ك: الإيمان، ح : ١٩).

(٤) أخرجه مسلم (ك: الصلاة، ح: ٣٨٤).

(٥) أخرجه البخاري (ك: الأذان، ح: ٦١٤).

أن أخبار الآحاد الصحيحة كما تقبل في الفروع، تقبل في الأصول، فما ثبت عن النبي ﷺ بأسانيد صحيحة من صفات الله يجب إثباته واعتقاده على الوجه اللائق بكمال الله وجلاله على نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وبهذا تعلم أن ما أطبق عليه أهل الكلام ومن تبعهم أن أخبار الآحاد لا تقبل في العقائد، ولا يثبت بها شيء من صفات الله- زاعمين أن أخبار الآحاد لا تفيد اليقين، وأن العقائد لا بد فيها من اليقين- باطل، لا يعول عليه، ويكفي من ظهور بطلانه أنه يستلزم رد الروايات الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ بمجرد تحكيم العقل.

والعقول تتضاءل أمام عظمة صفات الله...فيجب على المسلم أن يتقبل كل شيء عن النبي ﷺ بسند صحيح، ويعلم أنه إن لم يحصل له الهدي والنجاة باتباع ما ثبت عنه ﷺ؛ فإنه لا يحصل له ذلك بتحكيم عقله التائه في ظلمات الحيرة والجهل. وعلى كل حال فإثبات صفات الله بأخبار الآحاد الصحيحة واعتقاد تلك الصفات كالعمل بما دلت عليه من أوامر الله ونواهيه، كما أنها تثبت بها أوامره ونواهيه وكذلك تثبت بها صفاته)[1].

رابعا: جاءت نصوص كثيرة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ تدل على صحة الأخذ بخبر الواحد والعمل به، فيما يلي الإشارة إلى بعضها:

أ- الأدلة من الكتاب العزيز على حجية خبر الواحد في باب الاعتقاد: المتأمل في كتاب الله تعالى يجد آيات كثيرة تبين حجية خبر الواحد بيانا واضحا بحيث يشفي العليل ويروي الغليل، ومن ذلك:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ١-٤].

فهذا نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه ينذرهم من عذاب الله ويأمرهم بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ويبشرهم بمغفرة الذنوب والتأخير في الأجل.

وهكذا أرسل إبراهيم وإسماعيل وهود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم من الأنبياء والرسل عليهم السلام إلى أقوامهم، ولم تكن دعوتهم مقصورة على بيان الأحكام العملية لهم بل كانوا يدعونهم إلى

(١) مذكرة في أصول الفقه (ص: ١٢٤-١٢٥).

إصلاح الاعتقاد قبل العمل فكانوا يبدؤون دعوتهم بكلمة الإخلاص فكانوا يدعونهم إلى الله سبحانه، ويعرفونهم بالله ويأمرونهم بإخلاص العبادة لله وحده وعدم الإشراك به سبحانه، وبذلك قامت الحجة عليهم.

وهؤلاء الرسل الذين أرسل كل واحد منهم إلى قومه مع كونهم آحادا قامت بهم الحجة على أقوامهم فعلم من ذلك وجوب قبول أخبار الآحاد الصحيحة وبطلان القول باشتراط التواتر إذ لو كان التواتر شرطا ما قامت الحجة بالرسل على أقوامهم.

٢- وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

فالله سبحانه وتعالى فرض على العباد تحكيم رسوله ﷺ وأقسم على انتفاء إيمان المؤمنين منهم حتى يحكموا رسوله ﷺ في جميع ما يتنازعون فيه من دقيق الدين وجليله وفروعه وأصوله. وقد اتفق المسلمون أن فرض تحكيمه ﷺ لم يسقط بموته بل هو ثابت بعد موته كما كان ثابتا في حياته، وأن تحكيمه ليس مختصا بالأحكام والعمليات دون العقائد والعلميات ثم إن كان متواتر أخباره وآحادها لا تفيد علما ولا يقينا -كما زعم البعض - لم يكن لتحكيمه والرد إليه وجه.

٣- وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ ﴾ [المائدة: ٦٧].

لا شك أن النبي ﷺ مرسل إلى الناس كافة، ويجب عليه تبليغهم جميعا كل ما أنزل إليه من ربه، فلو كان خبر الواحد غير مقبول لتعذر إبلاغ الشريعة إلى الكل ضرورة لتعذر خطاب جميع الناس شفاها، وكذلك تعذر إرسال عدد التواتر إليهم.

٤- وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٥٩ – ١٦٠]. فالله سبحانه وتعالى توعد على كتمان ما أنزل من البينات، فيجب على كل واحد إخبار ما سمع من الرسول ﷺ ويجب العمل بخبره وإلا لم يكن لإخباره فائدة.

٥- وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ

لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فقد أمر الله تعالى أن تخرج طائفة من المؤمنين للتفقه في الدين، وأن هذه الطائفة بعد التعلم والتفقه ترجع إلى قومها، وتقوم بتعليمهم وتبصيرهم وتخويفهم، وأنه يجب على القوم قبول ما أخبرت به الطائفة.

والطائفة عدد دون التواتر فقد تطلق على الواحد فما فوق؛ قال الإمام البخاري في صحيحه في أول كتاب الآحاد: (ويسمى الرجل طائفة لقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ [الحجرات: ٩] فلو اقتتل رجلان دخلا في معنى الآية).

فتبين مما سبق أنه لا يشترط التواتر للبلاغ وإلا لما أمرت الطائفة بالإنذار ولا القوم بالحذر والقبول بل خبر الواحد العدل كاف لذلك.

٦- وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ٦] وفي قراءة ﴿ فتثبتوا ﴾ من التثبت.

إن الله سبحانه وتعالى أمرنا في هذه الآية بالتثبت من خبر الفاسق، وفي ذلك دلالة على الجزم والقطع بقبول خبر الواحد الثقة، وأنه لا يحتاج إلى التثبت لعدم دخوله في الفاسق الذي أمرنا بالتأكد والتثبت من خبره.

قال القرطبي: (في هذه الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلا لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق)[١].

٧- وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

فالله سبحانه وتعالى أكمل لنا الدين وضمن حفظه ومعلوم أن أغلب السنة أخبار آحاد، وأكثر معاملات الدين والدنيا تتحقق بخبر الواحد، فلو قيل أن أخبار الآحاد غير موثقة وغير صالحة للاعتماد تتعطل المعاملات كلها بل أشنع من ذلك أنه يلزم منه أن الله سبحانه وتعالى تخلى عن حفظ هذا الدين وهذا في عبارة العلامة ابن حزم: (انسلاخ من الإسلام، وهدم للدين، وتشكيك في الشرائع)[٢].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٠٠).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام (١/١١٦).

٨- ذكر الله تعالى في القرآن أن الرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا يقبلون خبر الواحد ويقطعون بمضمونه، فموسى عليه السلام صدَّق الرجل الذي جاءه من أقصى المدينة يسعى قائلا: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠] فجزم بخبره وخرج هاربا وقبل خبر بنت مدين لما قالت له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥]، وقبل خبر أبيها في قوله : هذه ابنتي وتزوجها بخبره.

وقبل يوسف عليه السلام خبر الرسول الذي جاءه من عند الملك وقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠].

والأدلة من القرآن على وجوب العمل بخبر الواحد كثيرة، ولعل ما ذكرت من الآيات القرآنية فيها كفاية ومقنع وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ب – الأدلة من السنة النبوية على حجية خبر الواحد في الاعتقاد: جاءت السنة النبوية موافقة لكتاب الله تعالى في الدلالة على حجية خبر الآحاد من غير تفريق بين الأحكام والاعتقاد، وفي ذلك أحاديث كثيرة ووقائع لا تحصى، وفيما يلي الإشارة إلى بعضها:

١- عن مالك بن الحويرث قال : أتينا النبي ﷺ ونحن شبيبة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله ﷺ رقيقا، فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا، أو قد اشتقنا، سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه، قال: «ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم...» الحديث[(١)].

فقد أمر النبي ﷺ كل واحد من هؤلاء الشبيبة أن يعلم كل واحد منهم أهله ما تعلمه من النبي ﷺ من الأعمال والأخلاق والعقائد ... فلو لم يكن خبر الواحد تقوم به الحجة لم يكن لهذا الأمر معنى.

٢- عن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: نضّر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه[(٢)].

فالنبي ﷺ خص مبلغ الحديث كما سمعه بهذا الدعاء المبارك وهو عام يتناول جميع الأحاديث النبوية سواء كانت متعلقة بالأحكام أو الاعتقادات، ثم إن النبي ﷺ لم يشترط لسماع حديثه عددا

---

(١) أخرجه البخاري (ك: أخبار الآحاد، ح: ٧٢٤٦)، ومسلم، (ك: المساجد ومواضع الصلاة، ح: ٦٧٤).

(٢) أخرجه أبو داود (ك: العلم، ح: ٣٦٥٥)، والترمذي (ك: العلم، ح: ٢٧٩٤)، وابن ماجه (المقدمة، ح: ٢٣٠). والحديث متواتر عن رسول الله ﷺ فقد رواه عنه أربعة وعشرون صحابيا وخرجه سبعة وثلاثون إماما في أكثر من خمسة وأربعين كتابا، وبلغت طرقه سبعة وخمسين طريقا ومائة طريق. انظر للتفصيل: دراسة حديث: "نضّر الله امرأ سمع مقالتي ... رواية ودراية (ص : ٢٢٧).

قليلا أو كثيرا بل ندب لذلك شخصا واحدا فلو لم يكن الإيمان بالأمور العقدية التي دلت عليها أخبار الآحاد واجبا لما كان لأمر النبي ﷺ بتبليغ حديثه مطلقا معنى، بل لبين الرسول ﷺ أن ذلك مقصور على أحاديث الأعمال فقط وأن ذلك لا يشمل أحاديث العقائد ولكن لما لم يفعل النبي ﷺ ذلك دل على كونه حديثه حجة في الأحكام والعقائد على حد سواء إذ لم يكن النبي ﷺ ليؤخر البيان عن وقت الحاجة.

٣- قد اشتهر واستفاض بالنقل المتواتر عن النبي ﷺ أنه كان يعتمد على آحاد الصحابة ويرسلهم إلى النواحي والقبائل والبلاد بالدعاء إلى الإسلام، وفصل الخصومات، وتحصيل الزكوات؛ فقد بعث مصعب بن عمير ﷺ إلى المدينة، وبعث كلا من معاذ بن جبل وعلي بن أبي طالب وأبي موسى الأشعري وأبي عبيدة بن الجراح — رضي الله عنهم – إلى اليمن في أوقات مختلفة، وبعث عتاب بن أسيد ﷺ إلى مكة، بعث رسائله بيد آحاد الصحابة إلى العظماء والملوك.

ولو لم يكن خبر هؤلاء الآحاد مما تقوم به الحجة ويجب العمل لم يكن لبعثهم فائدة، ولما أمضى النبي ﷺ أحكامهم وأخبارهم ولما نفذ أمورا بمقتضى كلامهم، علما بأن مهمتهم لم تكن قاصرة على تعليم الأحكام العملية فقط بل كانت إصلاحاتهم ودعواتهم شاملة لجميع جوانب الدين.

خامسا: الإجماع على الاحتجاج بأخبار الآحاد: لقد حكى جماعة من أهل العلم الإجماع على حجية الخبر الواحد على الإطلاق من غير تفريق بين الأحكام والاعتقادات منهم العلامة ابن حزم حيث قال: (فإن جميع أهل الإسلام كانوا على قبول خبر الواحد الثقة عن النبي ﷺ يجري على ذلك كل فرقة عملها كأهل السنة والخوارج والشيعة والقدرية، حتى حدث متكلموا المعتزلة بعد المائة من التاريخ فخالفوا الإجماع في ذلك)[١]. وقال العلامة ابن عبد البر: (كلهم يدين بخبر الواحد العدل في الاعتقادات، ويعادي ويوالي عليها، ويجعلها شرعا ودينا في معتقده، على ذلك جماعة أهل السنة)[٢]. وقال العلامة ابن القيم: (فهذا الذي اعتمده نفاة العلم عن أخبار رسول الله ﷺ خرقوا به إجماع الصحابة المعلوم بالضرورة وإجماع التابعين وإجماع أئمة الإسلام ووافقوا به المعتزلة والجهمية والرافضة والخوارج الذين انتهكوا هذه الحرمة وتبعهم بعض الأصوليين والفقهاء وإلا فلا يعرف لهم سلف من الأئمة بذلك)[٣]. وقال الشيخ محمد بن إبراهيم الوزير اليماني ٨٧٠هـ: (وقد انعقد إجماع المسلمين على وجوب قبول الثقات فيما لا يدخله النظر، وليس ذلك بتقليد، بل عمل بمقتضى الأدلة القاطعة الموجبة لقبول أخبار الآحاد، وهي محررة في موضعها من فن الأصول، ولم يخالف في

(١) الإحكام في أصول الأحكام (١٠٨/١).

(٢) التمهيد (٨/١).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة (٣٦٢/٢).

هذا إلا شرذمة يسيرة وهم متكلموا بغداد من المعتزلة، والإجماع منطبق عليهم قبلهم وبعدهم على بطلان قولهم)[1].

الحاصل: إن دعوى الاحتجاج بأخبار الآحاد في الفروع والأحكام العملية دون الأصول والعقائد قول مبتدع وتفريق باطل ومناقض لنصوص كثيرة من الكتاب والسنة ومخالف لطريقة السلف الصالح المتوارثة .

رابعا: الجواب عن شبهات المعطلة في عدم الاحتجاج بأخبار الآحاد في باب الاعتقاد: وأما الشبهات التي تعلق بها المعطلة لدعواهم أن أخبار الآحاد لا يحتج بها في باب الاعتقاد؛ فهي شبهات واهية أو بعيدة عن محل النزاع، فزعمهم أن خبر الواحد يفيد الظن لجواز الخطأ والنسيان على الواحد، وعلى هذا فلا يجوز الأخذ بخبر الواحد في العقيدة؛ لأن العقيدة مبناها على اليقين لا على الظن، وأن النصوص قد جاءت بالنهي عن اتباع الظن.

فالجواب عن ذلك: إن أخبار الآحاد التي هي موضوع بحثنا هنا ليست أخبار آحاد محضة بل تحفها قرائن ودلائل تدل على صدقها وثبوتها فهي ليست قائمة على الظنون والأوهام المنهي عن اتباعها والجري وراءها بل العمل بها قائم على العلم واليقين أو الظن الغالب على أقل تقدير .

وأما الظن الوارد ذكره في النصوص، الذي نهينا عن العمل به؛ فهو الظن الذي بمعنى الشك والوهم والتهمة، وأما الظن الغالب أو الظن بمعنى العلم واليقين، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فلا مانع من العمل به بل هو مطلوب ومحبوب.

ولو سلم من باب الفرض أن أخبار الآحاد لا تفيد إلا الظن بمعنى الخرص والتخمين فلا يصح الاستدلال بها في باب الأحكام، لأن الأحكام أيضا لا تبنى على الوهم والتخمين فاستدلالكم بها في باب الأحكام دون العقائد تفريق بين متماثلين وجمع بين متضادين .

ثم إن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وعمل الصحابة وإجماع الأمة كل ذلك تقضي على مثل هذه الشبهات وتبين وجوب العمل بها في العقائد والأحكام على حد سواء.

وأما احتجاجهم ببعض الأحاديث والآثار التي قد يفهم منها بعض الناس عدم الأخذ بخبر الواحد كحديث ذي اليدين ﷺ، وقصة أبي بكر ﷺ مع حديث المغيرة بن شعبة ﷺ في ميراث

(١) الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم (٦٣/١).

الجدة، وحديث عمر ﷺ في رد خبر أبي موسى الأشعري ﷺ في الاستئذان.

فالجواب عن ذلك: إن رد الرسول ﷺ لخبر ذي اليدين ﷺ، ورد أبي بكر ﷺ لحديث المغيرة بن شعبة ﷺ، ورد عمر ﷺ لحديث أبي موسى الأشعري ﷺ لم يكن لأنها أخبار آحاد، وإنما كان ذلك لمعنى آخر كالاحتياط أو زيادة التثبت ونحوها، ثم إن هذه الوقائع التي رد فيها خبر الواحد نرى أنه قد قبل خبره بانضمام ثان أو ثالث إليه، وهذا لا يخرجه عن كونه أخبار آحاد بل هذه الوقائع فيها دلالة على قبول أخبار الآحاد فهي حجة عليهم وليست حجة لهم فانقلب السحر على الساحر.

الحاصل: القول بأن أحاديث الآحاد لا تثبت بها عقيدة قول محدث مبتدع لا أصل له في الدين، ولم يقل به أحد من السلف رضوان الله عليهم أجمعين، وأن الحق هو الأخذ بخبر الواحد الصحيح والاحتجاج به في باب العقائد والأحكام على حد سواء وهو الذي تدل على الأدلة القاطعة.

ثانيا: إثبات وجود الله تعالى:

أولا: أدلة وجود الله تعالى:

الأدلة على وجود الله تعالى كثيرة، ولا تحتاج لكثرة بحث وتعب وطول عناء ومشقة، وهي من الكثرة والوفرة بحيث لا يمكن حصر أفرادها وأجزائها، ويمكن تقسيمها في أربعة أنواع، وهي: الأدلة الفطرية، والأدلة الحسية، والأدلة العقلية، والأدلة الشرعية، قال الشيخ محمد بن صالح العثمين: (الأدلة على وجود الله عز وجل كثيرة: شرعية، وعقلية، وحسية، وفطرية)[1]، وفيما يلي ذكرها وبيانها باختصار:

١- دليل الفطرة: إن دليل الفطرة راسخ في نفوس البشر إلا ما غير منها، والدليل إذا كان راسخا في النفس لا يحتاج الشخص معه إلى استدلال، ولذلك قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (دلالة الفطرة على وجود الله أقوى من كل دليل لمن لم تجتله الشياطين)[2]، فدليل الفطرة أصل لكل الأدلة الأخرى الدالة على الإقرار بوجود الرب تعالى، وهي مؤيدة له، ومثبتة للإقرار، ولتقرير أصل هذا الدليل إليك بعض الأدلة الدالة على ذلك:

١- لجوء الإنسان وفزعه إلى خالقه سبحانه عند الشدة والحاجة: قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[يونس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾[الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾[الزمر: ٨]

---

(١) شرح العقيدة السفارينية (ص: ٤٣).

(٢) شرح العقيدة السفارينية (ص: ٤٣).

فرجوع الإنسان وإنابته إلى ربه عند الشدائد دليل على أنه يقر بفطرته بخالقه وربه سبحانه وتعالى، وهكذا كل إنسان إلى رجع إلى نفسه أدنى رجوع عرف افتقاره إلى الباري سبحانه في جميع أحواله وشؤون حياته.

٢- ورود التكليف بتوحيد العبادة أولا: إن أول ما يكلف به العبد هو عبادة الله جل وعلا، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨] ، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١] وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل: ٣٦]،وقد تواترت الأخبار أن النبي ﷺ كان يدعو الكفار إلى الإسلام والشهادتين، وكان يأمر الصحابة بذلك، ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ بعث معاذا رضي الله عنه إلى اليمن؛ فقال: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؛ فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة... » الحديث(١).

والشاهد هنا: أنه لو لم يكن الإقرار بالله وربوبيته فطريا لدعاهم إليه أولا، لأن الأمر بتوحيده في عبادته فرع عن الإقرار به وبربوبيته فيكون بعده، وكذلك لو لم يكن الإقرار بالرب تعالى فطريا لساغ لمعارضي الرسل عند دعوتهم إلى إفراده سبحانه بالعبادة أن يقولوا لهم: نحن لم نعرفه أصلا، فكيف يأمرنا، ولكن لم يحدث هذا الاعتراض، فدل ذلك على أن معرفتهم بربهم كانت مستقرة في فطرهم.

٣- إلزام المشركين بتوحيد الربوبية ليقروا بتوحيد الألوهية، قال تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٥٩ – ٦٤]، والآيات في ذلك كثيرة.

والشاهد هنا: أن المشركين لو لم يكونوا مقربين بربوبية الله تعالى لما قررهم به، ولهذا كانت الرسل تقول لأقوامها: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ

(١) أخرجه البخاري (ك: الزكاة، ح: ١٣٩٥) واللفظ له؛ و مسلم (الإيمان، ح: ١٩).

﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [إبراهيم: ١٠] قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فدل ذلك على انه ليس في الله شك عند الخلق المخاطبين وهذا يبين انهم مفطورون على الإقرار)[١].

٤- التصريح بأن الفطرة مقتضية للإقرار بالرب وتوحيده وحبه: قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الروم: ٣٠-٣١].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أوينصرانه أويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء. هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[٢].

وعن عياض بن حمار المجاشعي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني، يومي هذا. كلُّ مالٍ نَحَلْتُه عبدا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا...» الحديث[٣].

فإقامة الوجه للدين حنيفا هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولكن المؤثرات الخارجية – الشياطين، الآباء والأجداد من الكفار، المجتمع الفاسد، الصحبة السيئة- قد تغيرها، ولم يقل النبي ﷺ: [أو يسلمانه]، فهذا يدل على أن المراد بالفطرة هي فطرة الإسلام، وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول للعقائد الصحيحة، وليس المراد أن الإنسان حين يخرج من بطن أمه يكون عالما بهذا الدين ويكون موحدا لله تعالى، لأن الله تعالى قال: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، وإنما المراد أن فطرته تكون مقتضية وموجبة لدين الإسلام، ولمعرفة الخالق والإقرار به، ومقتضيات هذه الفطرة تحصل شيئا فشيئا، وذلك بحسب كمال الفطرة وسلامتها من الموانع.

لـ(قد وجدت في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا قصور، ومدن بلا مدارس، ولكن لم توجد أبدا مدن بلا معابد)[٤]، والطفل الصغير إذا ضُرِب من خلفه فجأة يسأل مباشرة دون تردد: من ضربني؟ وإذا قيل له: ما ضربك أحد أو هذه الضربة حصلت بنفسها من غير أن يفعلها أحد لا يقبل؛ لأنه يعلم بفطرته أن كل

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٨/٤٤١).

(٢) أخرجه البخاري (ك: الجنائز، ح: ١٣٥٨)، واللفظ له، ومسلم (ك: القدر، ح: ٢٦٥٨).

(٣) أخرجه مسلم (ك: الجنة وصفة نعيمها، ح: ٢٨٦٥).

(٤) هذا قول أحد مؤرخي الإغريق، وهو "بلوتارخ"، ذكره الدكتور صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي في : الإلحاد وسائله وخطره وسبل مواجهته (ص: ١٤)، وانظر: شموع النهار (ص: ٣٣).

حادث لا بد له من محدِث[1]، ويقول البدوي الذي لم تتغير فطرته: البعرة تدل على البعير، وآثار الأقدام تدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وبحار ذات أمواج، وأرض ذات فجاج؟ كيف لا تدل على الصانع اللطيف الخبير العليم القدير[2]؟.

فالفطرة السليمة تدل على وجود الخالق، ليست هذه الفطرة التي فطر عليها الإنسان وحده بل فطر عليها جميع الخلق، حتى البهائم العُجْمْ تعرف خالقها، قال الله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ ﴾[الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ ﴾[النور: ٤١]؛ فما من شيء إلا يسبح بحمد الله تعالى ويعلم تسبيحه وصلاته، والمسبح لا يسبح إلا من يعرفه، والمصلي لا يصلي إلا لمن يعرفه بل إن الله عز وجل علمها سبل بقائها وما يحفظها ويقيمها ويصلحها. قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠] وقال تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[الأعلى: ١ – ٣]، ومن هذه الهداية التي فطرت عليها هذه المخلوقات هداية الذكر للأنثى كيف يأتيها، وهداية الجنين للخروج من الرحم عند الولادة، وهدايته لالتقام الثدي بعد الولادة، وهدايته لمعرفة أمه دون غيرها إلى غير ذلك من هداية المخلوقات إلى مصالحها.

٢– الأدلة الحسية: فإن حدوث الأشياء ووجود المخلوقات أمر ملموس ومشاهد ومحسوس، وهي مبثوثة في هذا الكون العظيم، ويراها الإنسان في الآفاق والأنفس، وكل هذه المخلوقات دالة على خالقها، وكل هذه الحوادث دالة على محدثها. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٣٠٥/٨)، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٢٠٣/٣)، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٥٨/٥)، وانظر أيضا: الإلحاد وسائله وخطره وسبل مواجهته (ص: ٣٩-٤٠)، وشموع النهار (ص: ١٠٥-١٠٦)، وسابغات (ص: ٧٤).

(٢) انظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٢٨٩/٥)، والرياض الناضرة والحدائق الزاهرة (ص: ٢٢٢)، والبراهين العقلية على وحدانية الرب ووجوه كماله (ص: ٢٦).

نَطِقُونَ ﴾[الذاريات: ٢٠ – ٢٣]، وقال الشاعر:

فوا عجبا كيف يعصي الإله ..... أم كيف يجحده الجاحد؟

ولله في كل تحريكة..... وفي كل تسكينة شاهد

وفي كل شيء له آيةٌ..... تدل على أنه الواحد[١]

فجميع المخلوقات بأنواعها وأصنافها، وبجميع أفعالها وحركاتها وسكناتها تدل على خالقها وبارئها ومالكها ورازقها ومدبر أمورها؛ فإنها مخلوقة مربوبة، والمخلوق لا بد له من رب خالق[٢].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (حدوث الأشياء دليل على وجود الله عز وجل، وتقرير هذا الدليل: أن نقول: كل حادث لا بد له من محدث، وإذا تتبعنا الأشياء وجدنا أنه لا محدث لهذا الحادث إلا الله عز وجل)[٣].

الأدلة العقلية: إن هذا الكون بما فيه الإنسان لم يوجَد من غير خالق، وكذلك لا يستطيع الإنسان أو غيره من المخلوقات أن تخلق نفسها بنفسها، فإذا علم بطلان القسمين تعين أنه إنما خلقه الخالق القدير الحكيم العليم جل وعلا. قال السعدي: (اعلم –رحمك الله– أنك إذا نظرت إلى العالم العلوي والسفلي وما أودع فيه من المخلوقات المتنوعة الكثيرة جدا، والحوادث المتجددة في كل وقت، وتأملته تأملا صحيحا، عرفت أن الأمور –الممكن تقسيمها– في العقل ثلاثة:

أحدها: أن توجد هذه المخلوقات والحوادث بنفسها من غير محدِث ولا خالق، فهذا محال ممتنع، يجزم العقل ضرورة ببطلانه، ويعلم يقينا أن من ظن ذلك فهو إلى الجنون أقرب منه إلى العقل، لأن كل من له عقل يعرف أنه لا يمكن أن يوجد شيء من غير موجد ولا محدث.

الثاني: أن تكون هذه المخلوقات محدِثَة وخالقة نفسَها، فهذا أيضا محال ممتنع يجزم العقل ضرورة ببطلانه وامتناعه، فكل من له أدنى عقل يجزم أن الشيء لا يحدث نفسه، كما أنه لا يحدث بلا محدث، وإذا بطل هذان القسمان عقلا وفطرة تعين القسم:

الثالث: وهو أن هذه المخلوقات والحوادث لها خالق خلقها، ومحدث أحدثها، وهو الرب العظيم الخالق لكل شيء، المتصرف في كل شيء، المدبر للأمور كلها.

ولهذا نبه الله على هذا التقسيم العقلي الواضح لكل عاقل؛ فقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[الطور: ٣٥-٣٦].

---

(١) الأبيات المذكورة لأبي العتاهية، وهي في ديوانه (ص: ١٢٢).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة (١١٢/٢)، والأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين (ص: ٣٦)، والرياض الناضرة والحدائق الزاهرة (ص: ٢٢١-٢٢٢)، والبراهين العقلية على وحدانية الرب ووجوه كماله (ص: ١٦)، وشموع النهار (ص: ٨٨).

(٣) شرح العقيدة السفارينية (ص: ٤٢).

فالمخلوق لا بد له من خالق، والأثر لا بد له من مؤثر، والمحدَث لا بد له من محدِث، والموجَد لا بد له من موجِد، والمصنوع لا بد من صانع، والمفعول لا بد له من فاعل. هذه قضايا بديهية عقلية، يشترك في العلم بها جميع العقلاء، وهي من أعظم القضايا العقلية؛ فمن ارتاب فيها أو شك في دلالتها فقد برهن على اختلال عقله وضلاله)[1].

و**سلسلة العلل والأسباب يجب أن تنتهي إلى السبب الأول الذي لا بداية له:** فإن التسلسل في الفاعلين باطل بإجماع العقلاء، ويمكن توضحيه بمثال، فلو قدرنا أن هناك جنديا، وبيده مسدس، وأمامه أسير، ويريد أن يطلق النار عليه، ولكنه لا يستطيع أن يطلق النار عليه حتى يأتيه الإذن من الضابط الذي فوقه، وهذا الضابط لا يعطيه الإذن حتى يأتيه الإذن من الضابط الذي فوقه، والذي فوقه لا يأذن له بذلك حتى يأتيه الإذن من الذي فوقه، وهكذا في سلسلة طويلة غير متناهية، وإذا كان الأمر كذلك فلن يأتي الأمر، ولن يصدر الإذن، ولن تنطلق الرصاصة، فإذا قُدِّر أن الرصاصة انطلقت، فمعنى ذلك أن الأمر قد جاء من عسكري انتهت إليه السلسلة، وهو غير محتاج إلى إذن أحد لإصدار الأمر وإعطاء الإذن واتخاذ القرار[2].

والأمثلة على ذلك كثيرة[3]، وهي كلها تبين استحالة التسلسل في العلل والفاعلين، وقد علمنا أننا بكل ما في هذا الكون موجودون الآن، ونحن حوادث مفتقرون في وجودنا إلى سبب أحدثنا، ومفتقرون إلى السبب الأول الذي لا بداية له، وهو الله تعالى، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

٤- الأدلة الشرعية: جميع الشرائع الإلهية والكتب السماوية وما فيها من أحكام وأخبار, وما جاء به الأنبياء والمرسلون، وكل ما يدل على التوحيد، ويرد على الشرك، ويدل على الرسالات السماوية السابقة، ويدل على رسالة رسولنا محمد ﷺ، ويدل على البعث بعد الموت والحساب والجزاء والجنة والنار فهذا كله يدل على الخالق جل وعلا وكمال علمه وحكمته ويرد على دعوى الإلحاد[4]، قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (جميع الشرائع دالة على وجود الخالق وعلى كمال علمه وحكمته ورحمته؛ لأن هذه الشرائع لابد لها من مشرع، والمشرع هو الله عز وجل)[5].

---

(١) البراهين العقلية على وحدانية الرب ووجوه كماله (ص: ١٥-١٦)، واللفظ له، والرياض الناضرة والحدائق الزاهرة (ص: ٢١٤-٢١٥)؛ وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٥٩/٥)، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٤٩٣/٢)، والله يتجلى في عصر العلم (نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد؟ كتبه: فرانك ألن، ص: ١١-١٦).

(٢) انظر: شموع النهار (ص: ١٦١-١٦٢).

(٣) انظر أمثلة أخرى غير ما ذكرت في: منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى (٤٠٣/١-٤٠٤)، وشموع النهار (١٦٢).

(٤) انظر: الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين (ص: ٦٥-٦٦).

(٥) شرح العقيدة السفارينية (ص: ٤٤).

ثانيا: مناقشة دعاوى المنكرين لوجود الله عز وجل:

١- دعوى الفلاسفة ومن تابعهم: زعمت جماعة من الفلاسفة عن خلق الكون وإيجاده أنه صدر عقل أول عن عقل محض، وهو الله عندهم، ومن العقل الأول صدرت عقول أخرى بعضها من بعض، إلى عشرة عقول، ومن العقل العاشر الذي يسمونه العقل الفعال فاضت العناصر الأربعة التي يتركب منها جميع المخلوقات الأرضية من الجماد، والنبات، والحيوان البهيم، والإنسان(١).

وتابعتهم على ذلك الإسماعيلية فزعمت أن جميع المبدعات الروحانية والمخلوقات الجسمانية من جماد وحيوان ونبات وإنسان... ونجوم وكواكب... هذه كلها وجدت بواسطة العقل والنفس، وزعموا أن الله أبدع العقل الأول وهو تام بالفعل، وبتوسط هذا العقل أبدع النفس وهي غير تامة، ولما اشتاقت النفس إلى كمال الفعل احتاجت إلى حركة من النقص إلى الكمال، والحركة تحتاج إلى وسيلة، وهي الأفلاك السماوية(٢).

فالإنسان وما سواه من المخلوقات كلها وجدت بواسطة العقل الفعال في زعم الفلاسفة، وهي وجدت بواسطة العقل والنفس في زعم أذنابهم من الإسماعيلية إلا أن الإسماعيلية فصَّلوا خلق المعدن والنبات والإنسان —والأخير هو المقصود ذكره هنا— تفصيلا ازدادوا به ضلالا وكفرا وشركا وإلحادا وزندقة على مشايخهم من الفلاسفة.

ولا شك أن ما ذهبت إليه الإسماعيلية وشيوخهم من الفلاسفة في حدوث الكائنات ووجود المخلوقات من أبطل الباطل؛ فإنهم بهذه المقالة الشنيعة والعقيدة الفاسدة ما قدروا الله حق قدره بل كذبوه فيما أخبر به، وعطلوه عن خلقه، وجعلوا العقل والنفس مع الأفلاك والكواكب والنجوم بمنزلة الخالق المدبر المحيي المتصرف في العباد... ولا شك أن هذه الدعوى منهم زندقة واضحة، ووثنية ظاهرة، وشرك جلي بالله تبارك وتعالى. وهو قول لا ينتمي إلى عقل ولا إلى شرع، و إنما ينتمي إلى الوثنية اليونانية التي تتعبد للكواكب والنجوم، وتدعي لها أرواحا وتصرفا وتدبيرا. ولا يختلف عن دعوى عباد الأصنام في أصنامهم من مشركي العرب والهندوس ومن على شاكلتهم. وجميع آيات التوحيد في القرآن ترد عليهم، وتبين ضلالهم، وكفى بها برهانا ساطعا وحجة واضحة لمن أراد الله هدايته(٣).

---

(١) انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي ضمن كتاب: تراث الإنسانية (٢/٥٧٦-٥٧٨)؛ و"في سبيل موسوعة فلسفية" (الفارابي، الفيض والعقول الإبداعية عند الفارابي ص: ٦١-٦٩ وابن سينا، ابن سينا والفيض الإلهي ص: ٤٥-٤٨)؛ وأصل الإنسان وسر الوجود (الفيض والإبداع بمفهوم الفارابي، ص: ١٥٩-١٦٤ والفيض عند ابن سينا، ص: ١٧٢-١٧٤).

(٢) انظر: الإسماعيلية المعاصرة (ص: ٧٤-٧٥)؛ والإسماعيلية تاريخ وعقائد (ص: ٣٩٨ و٤٠٧).

(٣) انظر: مقالا لشيخنا سعود بن عبد العزيز الخلف —حفظه الله— بعنوان: قول الفلاسفة المنتسبين للإسلام في توحيد الربوبية، عرض ونقد في ضوء السلف (ص: ٣٨٣-٣٨٤)، وهو منشور في مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ج ١٣ ع ٢١ رمضان ١٤٢١هـ.

وبالإضافة إلى ما سبق يمكن أن يقال في بيان بطلان ما نسبوا إليه الخلق من العقل والنفس ما يلي[1]:

١- إن هذه العقول والنفوس التي يدعونها لا يقر بها جل بني آدم، وليس لها في نفوسهم أي صدى ولا أثر، فلا تجد أحدا منهم يدعو في رخاء ولا شدة العقل أو النفس الكلية ولا غيرهما بل لا يدعو إلا الله تعالى. وما ذلك إلا لأنهم لا يعرفون خالقا غيره سبحانه. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥].

٢- قولهم عن الله تعالى بأنه عقل، هذا في الحقيقة نفي للخالق تعالى؛ لأن العقل ما هو إلا معنى من المعاني، وهو أشبه ما يكون في دعواهم بالفكر أو الخيال، والمعاني ليس لها وجود ذاتي في الخارج، بل تكون قائمة بغيرها أو صادرة عن غيرها مثل الكلام والأفكار والخيالات، فهذه المعاني تقوم بغيرها ولا تقوم بنفسها. وهم ينفون أن يكون الله قائما بغيره أو صادرا عنه، وإذا كان الله معنى، وليس له وجود ذاتي في الخارج، وليس قائما بغيره، وليس صادرا عن غيره فمعناه أنه ليس له وجود أصلا. وهو قول يتناقض تماما مع دعوى وجوده ودعوى صدور العالم منه.

٣- إذا تبين أن العقل معنى من المعاني و ليس له وجود ذاتي في الخارج، وإنما هو موجود ذهني قائم بالنسبة لنا بالعقل المركب في أجسادنا. فالادعاء بأنه صدر عنه النفس دعوى مرفوضة عقلا، لأنه لا وجود له بنفسه في الخارج، فكيف يكون موجدا لما له وجود خارجي مستقل؟.

فهذا مرفوض عقلا، كما لو قلنا: إن أحدا من الناس تخيل خيال طائرة، ثم الطائرة التي تخيلها بذهنه أنتجت حصانا محسوسا، فلو قال قائل ذلك، لقيل له: هذا كذب وجنون.

فإن قيل: إن ما يتعلق بالعقل الأول، أو العقل الفعال أو نحوه، يختلف عما عليه الإنسان لقيل له: من أخبرك بذلك؟ هل اطلعتم على تكون العقل الأول ومادته وفعله، أم تخرصون وتخبطون؟ لا شك أنهم يخرصون ويخبطون.

٤- إن العقل الأول لا يمكن بحال أن يوجد عنها ما يسمونه بالنفس أو غيرها؛ لأنها إن كانت من جنس العقل الأول، فقد نتج عندنا تكرار من الصنف نفسه، وإن كانت من غير جنسه فهي دعوى باطلة يرفضها الواقع؛ لأن العقل الأول عندهم ذو صفة واحدة وكيفية واحدة، فكيف ينتج عنه ما هو خلاف جنسه؟.

٥- إن ما نسبوا إليه الخلق والإيجاد هي أشياء عاجزة تماما، فإن العقل الأول أو النفس أو مجموعهما أمور معنوية عاجزة، يدل على عجزها في دعواهم أنه لم يصدر عن كل واحد منها إلا شيء واحد، أو شيئان

---

(١) الوجوه التالية في الرد مستفادة من المقال السابق لشيخنا سعود بن عبد العزيز الخلف – حفظه الله– (ص: ٣٨٧-٣٩٠) ومقال آخر له –يسر الله طبعه ليعم النفع به– بعنوان: قول فلاسفة اليونان الوثنين في توحيد الربوبية (ص: ٥٣).

أو ثلاثة أشياء، وهذا دليل عجزها وضعفها. وإذا نظرنا إلى الكون والمخلوقات الموجودة فيه وجدنا فيها ما هو أقوى وأقدر بكثير مما زعموا أنه أصلها ومادتها. ومعنى ذلك أنها أعظم من موجدها وخالقها فيما يزعمون!.

٦- الإنسان وكذلك غيره من الحيوانات مكونة من شيئين: روح ومادة. أما الروح فلا نعلم كنهها ومادتها. وأما المادة الموجودة في هذه المخلوقات من الحيوانات وغيرها التي تحيط بنا، فإن لها مكونات لا نكاد نحصيها كثرة من تراب وماء وهواء ونار ونور وخشب ومعادن وحيوانات... ولها تكوين آخر تتكون منه مثل: الدم والعصب والعظم، وكل نوع من هذه الأنواع مكون من مكونات عديدة كثيرة، لا يعلم عددها إلا الذي خلقها.

فكيف أمكن لما يسمونه العقل أو النفس أو هما معا أن يوجدا تلك المكونات العديدة المتنوعة وهما فاقدان لهما؟ وكيف أمكن لهما أن يوائما بينهما تلك الموائمة العجيبة التي تدل على علم وحكمة متناهية؟ وكيف أمكن لهما الرعاية والعناية بالاستمرار حتى تحققت هذه النتائج الباهرة؟ وهل يمكن أن تعزى هذه الأشياء الغريبة العجيبة المتناهية في العلم والحكمة إلى أمور معنوية قائمة في الأذهان، والتي ليس لها وجود في الخارج؟

لا شك أن ذلك لا يمكن بداهة، بل وراء هذه المخلوقات خالق عظيم، مدبر عليم حكيم، له كل صفات الكمال والجلال، ولا بد أن يعزى إليه القدرة التامة على إيجاد كل موجود وتدبيره وتنظيم شؤون خلقه، وأن له القدرة المطلقة على إيجاد الأشياء من العدم المحض وتدبيرها والتصرف فيها.

يتبين مما سبق بطلان ما زعمت الفلاسفة ومن وافقهم من الإسماعيلية، وأن مزاعمهم لا تمت بصلة إلى العقل الذي يزعمون أنهم أربابه، كما لا تمت إلى الشرع الذي يزعمون أنهم ينتصرون له باستدلالاتهم العقلية، بل قولهم في غاية الفساد والبطلان، ولا يعدو عن كونه ظنا كاذبا وخيالا فاسدا وخرصا باطلا.

٢- دعوى الدهرية: هم الذين أخبر الله عنهم بقوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** ﴾ [الجاثية:٢٤]، قال الطبري: (يقول تعالى ذكره مخبرا عن هؤلاء المشركين أنهم قالوا: وما يهلكنا فيفنينا إلا مر الليالي والأيام وطول العمر، إنكارا منهم أن يكون لهم رب يفنيهم ويهلكهم)[(١)].

وقد رد الله عليهم مقالتهم بأن هذا صادر عن غير علم، وإنما هي ظنون وأوهام وتخيلات، وصدق الله العظيم؛ إذ كيف يكون الدهر الذي هو عبارة عن مرور الأيام والليالي مالكا لحياتهم ومماتهم؟ وكيف يمكن لعاقل يحترم نفسه أن يسلم بأن السافل الناقص العاجز الأخرس الأبكم المجرد عن العقل والشعور

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩٦/٢١).

والإدراك –وهذه صفات الدهر– يستطيع أن يتحكم في الأعلى القادر العاقل المتكلم الناطق المفكر– وهذه صفات الإنسان؟ فإنه من المستحيل عقلا أن يضع القانون من لا يعلم شيئا عن القانون، وأن يضع نظاما للأحياء من ليس بحي في نفسه[1].

والله عز وجل هو الذي خلق الليل والنهار، وجعلهما خلفة، ويقلبهما كيف شاء، قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[الفرقان: ٦٢]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار»[2]. وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم، يقول: يا خيبة الدهر. فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر. فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما»[3].

فالله عز وجل يقلّب الليل والنهار (من حر إلى برد، ومن برد إلى حر، ومن ليل إلى نهار، ونهار إلى ليل، ويديل الأيام بين عباده)[4]، كما أنه سبحانه يقلّب (أحوال العالم بإنزال المطر الذي هو سبب خلق النبات والحيوان والمعدن، وذلك سبب تحويل الناس من حال إلى حال المتضمن رفع قوم وخفض آخرين)[5].

والله عز وجل ليس هو الزمان ومحل الحوادث، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ولا يتوهم عاقل أن الله هو الزمان؛ فإن الزمان مقدار الحركة. والحركة مقدارها من باب الأعراض والصفات القائمة بغيرها كالحركة والسكون والسواد والبياض. ولا يقول عاقل: إن خالق العالم هو من باب الأعراض والصفات، المفتقرة إلى الجواهر والأعيان، فإن الأعراض لا تقوم بنفسها، بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به، والمفتقر إلى ما يغايره لا يوجد بنفسه؛ بل بذلك الغير؛ فهو محتاج إلى ما به في نفسه من غيره، فكيف يكون هو الخالق؟ ثم أن يستغني بنفسه وأن يحتاج إليه ما سواه، وهذه صفة الخالق سبحانه، فكيف يتوهم أنه من النوع الأول)[6].

فهو سبحانه غني بذاته، قائم بنفسه، غير مفتقر إلى غيره، وما سواه مخلوق مربوب ومحتاج إليه، وهو الذي خلق الدهر وما فيه، وبيده الأمر، (وقد بَيَّن أنه يقلب الليل والنهار، وهما الدهر، ولا يمكن أن المقلِّب

---

(١) انظر: الإسلام ونظرية داروين (ص: ٢٨ و ٣١).

(٢) أخرجه البخاري (ك: التوحيد، ح: ٧٤٩١)، ومسلم (ك: الألفاظ من الأدب وغيرها، ح: ٢٢٤٦).

(٣) أخرجه مسلم (ك: الألفاظ من الأدب وغيرها، ح: ٢٢٤٦/٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٦٦٨).

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٤٩٢/٢).

(٦) مجموع الفتاوى (٤٩٢/٢).

[بكسر اللام] هو المقلَّب [بفتحها])[1].

فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الدهر وهو الذي يقلب الليل والنهار، والمقلِّب غير المقلَّب، والخالق غير المخلوق، وليس أحدهما هو الآخر، بل هو سبحانه بائن بذاته عن مخلوقاته، وليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، وقد اتفق على ذلك سلف الأمة وأئمتها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الخالق تعالى بائن من مخلوقاته، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته)[2].

٣- دعوى حدوث الكون ونشأة المخلوقات صدفة: هناك من يزعم أن هذا الكون وجد صدفة، وأنه ليس وراء نشأته ووجوده إرادة واختيار ولا تدبير وتخطيط، وإنما اجتمعت ذرات هذه المخلوقات صدفة فوجد هذا الكون، قال "داروين": (نستطيع القول أن مفصل الباب مصنوع من قبل الإنسان، ولكننا لا نستطيع الادعاء بأن المفصل المدهش الموجود في صدفة المحار هو من صنع كائن عاقل)[3]. وقال أيضا: (إن مفصل الباب يومئ إلى صانعه الإنسان، أما المفصل الحي فهو نتيجة للصدفة)[4]. وقال "برتراند راسل": (ليس وراء نشأة الإنسان غاية أو تدبير، إن نشأته وحياته...ليست إلا نتيجة لاجتماع ذرات جسمه عن طريق المصادفة)[5].

وهؤلاء الملاحدة لما أنكروا الخالق الذي خلقهم ونسوه عميت بصائرهم، وزاغت قلوبهم، وضلوا، وتاهوا، وتناقضوا، وأتوا بما لا يقره العقل، ولا يشهد له الواقع، وتأباه الفطرة السليمة. والمتأمل في كلامهم يرى تناقضهم واضحا؛ فعندما يذكر أحدهم أن مفصل أي باب بسيط يومئ إلى صانعه الإنسان ولكن المفصل الحي الذي يصفه بأنه مدهش لم يصنعه صانع حكيم عاقل. فهذا تناقض صارخ يندر أن يشاهد في دنيا العلم، وهل يستطيع أن يقول عاقل بأن كوخا صغيرا لحارس لا بد أن بنَّاء ماهرا بناه، ولكن أثرا معماريا فخما مثل القلعة الحمراء أو أهرام مصر لا يحتاج إلى أي بناء أو مهندس![6].

وههنا سؤال لا يمكنهم الإجابة المقنعة عليها وهو: من خلق هذه الذرات وهذه المواد التي تكون منها أجسام المخلوقات؟ فإنهم يجيبون: إن العلم أثبت أنها وجدت دائما منذ الأزل. فنحن نطرح عليهم سؤالا لا بد من إجابته لإثبات هذا المدعى، وهو: أين الدليل العلمي التجريبي القاطع الذي يثبت

---

(١) القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى (ص: ١٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢٦/٢)، وانظر: (٨٣/٥ و٥٩٨/١٢)، والمسائل العقدية المتعلقة بآدم عليه السلام (١٩٠/١-١٩٢).

(٣) نقلا من كتاب: دارون ونظرية التطور (ص: ٢٠).

(٤) نقلا من المصدر السابق (ص: ١١١).

(٥) نقلا من كتاب: الله يتجلى في عصر العلم (المادية وحدها لا تكفي، كتبه: أبر فنج وليام نو بلوتشي ص: ٥٧)؛ وركائز الإيمان بين العقل والقلب (ص: ٤٤)؛ و"في موكب النبيين" (٩٨/١) .

(٦) انظر: دارون ونظرية التطور (ص: ٢١).

صدق دعواكم أن هذه الذرات وهذه المادة كانت موجودة منذ الأزل؟ وليس عندهم أي دليل علمي قاطع على ذلك[1].

وقد يقول قائلهم: إن أصل الخلق كان كُرَيَّة بسيطة ذات خلية واحدة، وهي صغيرة كرأس الدبوس، كانت تسبح في اللازمان واللامكان، ثم انفجرت فجأة قبل (١٥) مليار سنة! فنتج عن هذا الانفجار تكون هذا الكون بالتدريج، فأصل هذا الكون كله إذن: رأس دبوس هذا!

ولكن السؤال: من أين جاءت نقطة الدبوس هذه؟ ليس له جواب عندهم البتة، ولا يستطيعون أن يجيبوا عنه إجابة مقنعة إلى يوم القيامة.

ثم إن هذه الكرية لماذا قررت الانفجار فجأة؟ وكيف يُنْتِج الانفجار نظاما بديعا؟ وهل الانفجار يناسب النظام؟ فقد يقول الملحد بأنه حصلت تفاعلات أنتجت خلايا اجتمعت فتكونت بعد الانفجار بهذا النظام البديع في كل شيء.

وهذا الجواب منهم شبيه بدعوى تحول دراجة أطفال ذات ثلاث عجلات إلى طائرة فخمة متطورة إثر تعرضها لسلسلة من الحوادث العشوائية، ولكن السؤال هنا: كيف حصل هذا الاجتماع للخلايا؟ وكيف وجدت الحياة من جماد؟ وكيف أنتجت نقطة من مادة جامدة حياة كاملة وعقلا ومدارك ومشاعر؟ والقاعدة أن فاقد الشيء لا يعطيه.

فيقول الملحد: إن ذلك حصل تلقائيا وصدفة من غير إرادة من أحد.

فبالصدفة في زعمهم وجدت الأرض، وبالصدفة وجدت السماوات، وبالصدفة وجدت الأنهار، وبالصدفة وجدت الأشجار...بالصدفة وبالصدفة... الحيوانات، البهائم، الأسماك، الطيور، الإنسان...كل شيء وجد عندهم بالصدفة.

فالصدفة عند الملاحدة بمثابة الرب المكوِّن لهذا الكون، وهي الملجأ الأخير عندهم، ولكنها فرضية وهمية وباطلة بلا شك، فإنه لو وضعت مجموعة من الآلات الكاتبة والأوراق أمام مجموعة من الأطفال، ليعبثوا ويلعبوا بها، فهل من الممكن أن نجد بعد فترة أمام كل طفل وآلةٍ قصيدةً رائعة تنافس قصائد كبار الشعراء؟ وإذا وضعنا في صندوق قصاصات صغيرة مكتوب في كل واحدة منها حرف، ثم رج الصندوق رجا شديدا، ثم فتح، فهل يصدق عاقل بأن الحروف تجمعت فكونت كتابا علميا دقيقا أو خطبة بارعة أو محاضرة حماسية أو قصيدة رائعة؟ ولو رمينا حجارة خلف ظهورنا واحدة تلو الأخرى، فهل يمكن أن نجد إذا التفتنا بيتا جميلا أو عمارة شامخة أو مبنى رائعا مثل مبنى: المسجد الحرام، أو المسجد النبوي أو مسجد قباء أو مسجد الميقات، أو كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وغيرها من العمائر الشامخة والمباني الراقية؟

---

(١) انظر: الشرك في القديم والحديث (١/٧٠١-٧٠٢).

الجواب في كل ما سبق عند كل عاقل: "لا"، وأما عند الملاحدة فـ"نعم"!![1].

والدلائل العلمية المادية المستندة إلى الوسائل الإنسانية كلها تحيل وجود المتقنات الراقية الدقيقة المعقدة بالمصادفة، ولا يعلم إلى يومنا هذا أية مصادفة أنتجت واقعا عظيما ذا روح عجيبة في روعة الكون، فلا نجد في عالم الواقع والحقيقة أن مطبعة أو سيارة أو طائرة وجدت بالصدفة، والعقلاء كلهم متفقون على أن الصدفة لا تنتج نظاما، ولا يمكن أن تكرر نظاما واحدا، ولا يمكن أن تبرز فيها دائما آثار القصد والإرادة، ولا يمكن أن توجد حقائق منتظمة باستمرار[2].

بل لا بد من تصميم وتخطيط وقصد وإرادة وهدف وغاية، وكل ما في الكون يحكي أنَّه إيجاد موجد حكيم عليم خبير، وأنه هو الذي خلقه وأوجده وأحكمه وأتقنه، ولولا حفظه وإمساكه وتدبيره لزالت الدنيا، قال السعدي: (**فلو تركت هذه العوالم العظيمة ساعة واحدة؛ بل لحظة واحدة للمصادفة والفوضوية لزالت السماوات والأرض، واختبطت العوالم** ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر: ٤١])[3].

٤- نسبة الملاحدة الخلق والتكوين والتدبير إلى الطبيعة: يعلل كثير من الملاحدة وجود الأشياء وحدوثها بالطبيعة، فيقولون: الخلق إنما هو من الطبيعة، وأن الطبيعة هي التي خلقت وأوجدت، وهي التي توجد وتُحدِث[4]، وقد راجت هذه الفرية كثيرا وخاصة في عصرنا هذا، وكلامهم هذا مجمل يحتاج إلى بيان وتفسير؛ ولذلك يقال لهم: ماذا تريدون بالطبيعة؟ هل تعنون بالطبيعة ذوات الأشياء؟ أم تريدون بها السنن والقوانين والضوابط التي تحكم الكون؟ أم تريدون بها قوة أخرى وراء هذا الكون أوجدته وأبدعته؟ فإن الطبيعة تحتمل اليوم لدى بعض الناس ثلاثة مفاهيم[5]:

١- أن المراد بالطبيعة الكون نفسه؛ فالجماد والنبات والحيوان كل هذه الكائنات هي الطبيعة.

وهذا التفسير أشبه ما يكون بتفسير الماء بالماء، ونسبة الخلق والإيجاد إلى الطبيعة بهذا المفهوم يعني أن الشيء هو الخالق لنفسه، وأن هذه الأشياء هي التي أوجدت ذواتها، فالكون خلق الكون، والسماء خلقت السماء، والأرض خلقت الأرض، والكون خلق الإنسان والحيوان، وهكذا... فتكون هذه الأشياء هي الخالقة والمخلوقة في الوقت ذاته، ولا شك أن هذا مفهوم غير دقيق وحكم غير سديد، فإنه

---

(١) انظر: الإلحاد وسائله وخطره وسبل مواجهته (ص: ٣٥-٣٦).

(٢) انظر: العقيدة في الله (ص: ٧٧-٧٩)، والإلحاد وسائله وخطره وسبل مواجهته (ص: ٣٣-٣٦)، والشرك في القديم والحديث (٢/٧٣٤-٧٤٤)، والمسائل العقدية المتعلقة بآدم عليه السلام (١/٤١٤-٤١٧).

(٣) الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين (ص: ٣٩).

(٤) انظر: هذي هي الأغلال (ص: ١٦١ و١٦٨-١٧٠ و٢٧٢).

(٥) انظر: العقيدة في الله (ص: ٧٩-٨٣)، والشرك في القديم والحديث (٢/٧٢٠-٧٣٠).

لا يمكن أن تكون هذه الأشياء وُجِدت بذاتها من غير سبب، ولا يمكن ازدواج الخالق والمخلوق في كائن واحد، ويستحيل أن يكون السبب عين المسبب، والطبيعة من سماء وأرض ونجوم وغيرها لا تملك عقلا ولا سمعا ولا بصرا ، فلا تستطيع أن تخلق إنسانا سميعا بصيرا عليما عاقلا مدركا؛ وفاقد الشيء لا يعطيه؛ فضلا أن يخلق شيئا أحسن وأفضل وأرقى منه، وهذا أمر واضح[1]. قال السعدي مبينا بطلان نسبة الخلق والإيجاد إلى الطبيعة: (فإذا كان ما ادعاه المشركون من مشاركة غير الله مع الله يقتضي في العقل المحال وخراب الوجود فكيف يكون حال الدهريين الماديين الذين يزعمون ويفترون أن الطبيعة هي التي أوجدت جميع الموجودات ذواتها وأفعالها وصورها، وهي مع ذلك لا حياة لها ولا علم ولا قدرة، هل فوق هذا المحال محال؟ وهل يتصور أبلغ من هذا المحال؟)[2].

٢- إنها عبارة عن القوانين التي تحكم الكون، وأن المراد بها صفات الأشياء وخصائصها من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والحركة والسكون والنمو والاغتذاء والتزاوج والتوالد، وأن هذا الكون يسير على سنن وقوانين، والأحداث التي تقع فيه تقع وفق هذه القوانين، وكل هذه الصفات والخصائص والقابليات والقوانين هي الطبيعة.

ولكن هذه القوانين والخصائص فيها وصف وبيان للطبيعة، فهي واصفة ومفسرة لها، ووجود قانون يفسر ظاهرة معينة لا يلغي وجود سبب لنشأتها، ولا يغنينا عن القول بوجود خالق لها، ومعرفتنا بالقوانين التي تعمل بها الطائرة وتطير وتهبط على وفقها لا يلغي وجود صانع لها، وهل يمكن أن نقول بما أن المعاملات المالية لها قوانين حسابية، فإن هذه القوانين يمكنها إنشاء محل تجاري؟ وهل يمكن لقوانين الميكانيكا أن تصنع سيارة؟ أم أنها تحتاج إلى صانع يطبق هذه القوانين؟ والجاذبية تفسير وتوصيف لظاهرة طبيعة موجودة في الكون، وليست بخالقة[3].

ونسبة الخلق والإيجاد إلى الطبيعة بهذا المفهوم في الحقيقة ليس جوابا عن السؤال المطروح: من خلق الكون؟ وأوجد المخلوقات؟ وأودع فيها هذه الصفات والخصائص؟ وسن لها هذه القوانين؟ وجعلها تسير وتعمل على وفقها؟ وإنما فيه كشف وبيان وتفسير -إلى حد ما- للكيفية التي يعمل بها الكون. فالماء في البحر يتبخر ويصير سحابا، وهذا السحاب يتحول إلى الماء، فينزِل المطر من السماء، والدم لونه أحمر؛ لأن فيه خلايا حمراء، وهذه الخلايا حمراء؛ لأن فيها مادة تسمى (الهيموجلوبين)، وهذه المادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأكسيجين في القلب، وهذه الخلايا التي تحمل (الهيموجلوبين) ينتجها الكبد، ولذلك يكون الدم لونه أحمر، فهذا كله بيان لكيفية عمل الكبد والقلب والخلايا والدم وغيرها،

---

(١) انظر: العقيدة في الله (ص: ٧٩-٨٠)، والشرك في القديم والحديث (٢/٧٢١-٧٢٢).

(٢) الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين (ص: ٨٣)، وانظر: (ص: ٢٦ و٣٩ و٥٥-٥٦ و٦٤).

(٣) انظر: سابغات (ص: ٨١)، وشموع النهار (ص: ١٤٧).

وبيان لارتباط بعضها ببعض ارتباطا كليا، وأنها جميعا تسير نحو أداء واجبها المطلوب بكل دقة وإتقان؛ ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائما إلى نتيجة معلومة؟ وكيف تنظم نشاطها حتى تطير الطيور في الهواء، وتعيش الأسماك في الماء، ويوجد الإنسان في هذه الدنيا بجميع ما لديه من القدرات والإمكانيات العجيبة المتنوعة، فهذا النوع من الكشف والبيان والتوجيه يبين لنا الكيفية التي يعمل بها الكون؛ ولكنه لا يجيب عن السؤال المطروح: من خلق هذه الأشياء؟، ومن الذي أودع فيها هذه الخصائص والمزايا؟ ومن الذي خلق الماء وأجرى السحاب؟ وليس سؤالنا وبحثنا هنا عن الكيفية التي يعمل بها الكون، ولذلك نريد إجابة عن موجد الكون، وموجد القوانين التي تحكمه، وموجد هذه الأشياء، وموجد خصائصها وصفاتها[1].

والطبيعة إذا فسرت بخصائص الأشياء وصفاتها فهي بنفسها مفتقرة ومحتاجة إلى من يحملها ويحفظها، ودالة على بارئها وفاطرها وكمال قدرته وعلمه وحكمته، فلا يصح أن توصف بالخلق والإيجاد: قال ابن القيم: (وإن قالت لك [نفسك]: بل الطبيعة عرض محمول مفتقر إلى حامل، وهذا كله فعلها بغير علم منها ولا إرادة ولا قدرة ولا شعور أصلا، وقد شوهد من آثارها ما شوهد! فقل لها: هذا مالا يصدقه ذو عقل سليم، كيف تصدر هذه الأفعال العجيبة والحكم الدقيقة التي تعجز عقول العقلاء عن معرفتها وعن القدرة عليها ممن لا عقل له ولا قدرة ولا حكمة ولا شعور؟ وهل التصديق بمثل هذا إلا دخول في سلك المجانين والمبرسمين[2]. ثم قل لها بعد: ولو ثبت لك ما ادعيت، فمعلوم أن مثل هذه الصفة ليست بخالقة لنفسها ولا مبدعة لذاتها، فمن ربها ومبدعها وخالقها؟ ومن طبَّعها وجعلها تفعل ذلك؟ فهي إذا من أدل الدلائل على بارئها وفاطرها وكمال قدرته وعلمه وحكمته، فلم يُجْدِ بك تعطيلك رب العالم وجحدك لصفاته وأفعاله إلا مخالفتك العقل والفطرة)[3]، وقال السعدي: (إنك إذا تصورت قول هؤلاء الملحدين الماديين الذين زعموا أن الحوادث كلها من أولها إلى آخرها: حوادث الطبيعة، ومع ذلك هذه الطبيعة لا شعور لها بما يصدر منها من أفعال، وإنما هي آلة محضة، ومع ذلك تصدر عنها الأفعال العظيمة التي هي في غاية الإبداع والإتقان، وفي نهاية الحكمة والرحمة، وفي غاية الارتباط الوثيق الذي استقامت به الأمور، وصلحت الأحوال من دون مدبر لها، ولا خالق، ولا فاعل، فمن تصور هذا القول حق تصوره عرف أنه قول يشبه أقوال المجانين الذين سلبت عقولهم، وهذا بما لا شعور لهم فيه، وعرف كل عاقل بصير أن نفس مقالاتهم تدل أكبر دلالة على كذبهم وافترائهم فضلا عن دلالات البراهين النقلية والقواطع العقلية، وما فطر الله عليه الخلق من الاعتراف بوحدانية الله وتفرده بكل

---

(١) انظر: العقيدة في الله (ص: ٨٠-٨٢)، والإسلام يتحدى (ص: ١٩-٢٣)، والشرك في القديم والحديث (٢/٧٢٣-٧٢٧)، وسابغات (ص: ٨١).

(٢) البرسام بالكسر: علة يهذى فيها، بُرْسِمَ بالضم فهو مبرسم، انظر: القاموس المحيط (٤/٦٨).

(٣) مفتاح دار السعادة (٢/١٩٦-١٩٧).

كمال)[1].

فهذه الأشياء بخصائصها والأمور الطبيعية والسنن الكونية كلها مخلوقة، ولا يصح نسبة الخلق إلى شيء منها، قال ابن القيم: (إنك لو تأملت قولك: "طبيعة"، ومعنى هذه اللفظة، لدلَّك على الخالق البارئ لفظها كما دل العقولَ عليه معناها؛ لأن "طبيعة" فعيلة بمعنى مفعولة؛ أي: مطبوعة، ولا يحتمل غير هذا البتة؛ لأنها على بناء الغرائز التي ركبت في الجسم ووضعت فيه كالسجية والغريزة والبحيرة والسليقة والطبيعة؛ فهي التي طبع عليها الحيوان وطبعت فيه، ومعلوم أن طبيعة من غير طابع لها محال؛ فقد دل لفظ الطبيعة على البارئ تعالى كما دل معناها عليه، والمسلمون يقولون: إن الطبيعة خلق من خلق الله مسخر مربوب، وهي سنته في خليقته التي أجراها عليه، ثم أنه يتصرف فيها كيف شاء وكما شاء، فيسلبها تأثيرها إذا أراد ويقلب تأثيرها إلى ضده إذا شاء؛ لِيُرِيَ عباده أنه وحده الخالق البارئ المصور، وأنه يخلق ما يشاء كما يشاء، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وإن الطبيعة التي انتهى نظر الخفافيش إليها إنما هي خلق من خلقه بمنزلة سائر مخلوقاته، فكيف يحسن بمن له حظ من إنسانية أو عقل أن ينسى من طبعها وخلقها، ويحيل الصنع والإبداع عليها، ولم يزل الله سبحانه يسلبها قوتها ويحيلها ويقلبها إلى ضد ما جعلت له حتى يُرِيَ عباده أنها خلقه وصنعه مسخرة بأمره ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤])[2].

٣- إن الطبيعة قوة أوجدت الكون، وهي قوة حية سميعة بصيرة حكيمة قادرة.. فيقال لهم: هذا حق وصواب، والخطأ في تسمية هذه القوة بالطبيعة، وقد دلتنا هذه القوة المبدعة الخالقة على الاسم الذي تستحقه وهو (الله)، وهو عرفنا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، فعلينا أن نسميه بما سمى به نفسه سبحانه وتعالى[3].

قال ابن القيم: (وكأني بك أيها المسكين تقول: هذا كله من فعل الطبيعة وفي الطبيعة عجائب وأسرار! فلو أراد الله أن يهديك لسألت نفسك بنفسك، وقلت: أخبريني عن هذه الطبيعة، أهي ذات قائمة بنفسها لها علم وقدرة على هذه الأفعال العجيبة؟ أم ليست كذلك؟ بل عرض وصفة قائمة بالمطبوع تابعة له محمولة فيه؟ فإن قالت لك: بل هي ذات قائمة بنفسها، لها العلم التام والقدرة والإرادة والحكمة. فقل لها: هذا هو الخالق البارئ المصور: فلم تسمِّينه طبيعة!؟ ويا لله عن ذكر الطبائع يرغِّب فيها! فهلا سميته بما سمى به نفسه على ألسن رسله، ودخلت في جملة العقلاء والسعداء، فإن هذا الذي

(١) الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين (ص: ٢٦).

(٢) مفتاح دار السعادة (١٩٧/٢-١٩٨).

(٣) انظر: العقيدة في الله (ص: ٨٣)، والشرك في القديم والحديث (٧٢٨/٢-٧٢٩).

وصفتَ به الطبيعةَ صفته تعالى)[1]، وقال أيضا: (فإن رجعت إلى العقل، وقلت: لا يوجد حكمة إلا من حكيم قادر عليم، ولا تدبيرٌ متقَنٌ إلا من صانع قادر مختار مدبر عليم بما يريد قادر عليه، لا يعجزه ولا يصعب عليه ولا يؤوده. قيل لك: فإذاً أقررت –ويحك– بالخلاق العظيم الذي لا إله غيره ولا رب سواه، فدع تسميته طبيعة أو عقلا فعَّالا أو موجبا بذاته، وقل: هذا هو الله الخالق البارئ المصور رب العالمين، وقيوم السموات والأرضين، ورب المشارق والمغارب الذي أحسن كل شيء خلقه، وأتقن ما صنع؛ فمالك جحدت أسماءه وصفاته بل وذاتَه؟ وأضفت صنيعه إلى غيره وخلقه إلى سواه مع أنك مضطر إلى الإقرار به وإضافة الإبداع والخلق والربوبية والتدبير إليه ولا بد، والحمد لله رب العالمين)[2].

٥– أدعياء الربوبية: هناك من أنكر الرب الخالق جل وعلا وادعي الربوبية، ومنهم نمرود بن كنعان ملك بابل الذي حاج إبراهيم عليه السلام في ذلك، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

قال الحافظ ابن كثير: (هذا الذي حاج إبراهيم في ربه وهو ملك بابل: نمروذ بن كنعان... ﴿ حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾؛ أي: في وجود ربه. وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره كما قال بعده فرعون لملئه: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨]، وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره، وطول مدته في الملك)[3]، فهو (أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عنادا ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك وأنه هو الذي يحيي ويميت) فأجابه إبراهيم عليه السلام بأن الرب لا يعجزه شيء وأن له قدرة مطلقة، وأنه لا تحد قدرته سنة معينة لا يستطيع أن يفعل إلا على وفقها، بل هو يجري السنن حسب إرادته وحكمته، وأنت إن كنت صادقا في دعواك الربوبية فهذه الشمس التي تبدو كل يوم من المشرق فأت بها من المغرب، فعجز وانقطع وبهت ولم يجد جوابا وقامت عليه الحجة.

ومنهم فرعون، وهو أشهرهم، قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾[الشعراء: ٢٩] وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [القصص: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[النازعات: ٢٤]، وفرعون هذا لم يكن له

---

(١) مفتاح دار السعادة (١٩٦/٢).

(٢) مفتاح دار السعادة (١٩٧/٢).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم (٦٨٦/١).

ولد، ولذلك ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [القصص: ٩]، والذي ما استطاع أن ينجب ولدا كيف يكون ربا؟ بل هو مات غرقا هو جنوده ولم يستطع أن ينجو بنفسه فضلا أن ينجي غيره فيكف يكون ربا؟ وإنكاره للرب إنما كان من باب المكابرة، لا غير، وقد سبق التنبيه على ذلك، وكان قد اعترف بالرب حين أدركه الغرق، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١].

ومنهم بعض غلاة الصوفية: القائلين بوحدة الوجود، فقد نقل عن أبي يزيد البسطامي المتوفى ٢٦١هـ شطحات مثل قوله: سبحاني، وما في الجبة إلا الله[١]. وعن الحسين الحلاج المتوفى ٣٠٩هـ أنه كان يقول: (أنا الحق) و(ما في الجبة إلا الله). يعني نفسه، وأيضا كان يقول:

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا في خلقه ظاهرا في صورة الآكل والشارب

حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب[٢]

وقال ابن عربي الطائي الأندلسي، المتوفى ٦٣٨هـ:

فيحمدني وأحمده: ويعبدني وأعبده[٣].

وقال عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي المتوفى ٨٣٢هـ:

لي الملك في الدارين لم أر فيهما سواي، فأرجو فضله، أو فأخشاه

وقد حزت أنواع الكمال، وإنني جمال جلال الكل، ما أنا إلا هو[٤].

إلى غير ذلك من شطحاتهم وكفرياتهم فإنهم يزعمون القول بوحدة الوجود، وأن كل الوجود واحد، وأنه ما في الوجود إلا هو، وإذا قلت: خالق ومخلوق، وعابد ومعبود، فهذا شرك لأنك عددت، والاثنينية عندهم شرك..

ومنهم "هيكل" وكان قد بلغ به عماه في إلحاده وزندقته حتى كان يقول: (إنه لو أعطي ماء،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٨٨/١٣ ترجمة: أبي يزيد البسطامي برقم: ٤٩)، وميزان الاعتدال (٣٤٦/٢، برقم: ٤٠٣٥) ولسان الميزان (٢١٤/٣)، وفي ثبوت هذه الأقوال عنه نظر وقد أشار إلى ذلك الذهبي في الميزان وابن حجر في اللسان في المكان المحال إليهما.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣٢٥/١٤ ترجمة: الحلاج برقم:).

(٣) انظر: هذه هي الصوفية (ص: ٦٧) نقلا من كتابه فصوص الحكم (٨٣/١).

(٤) انظر: هذه هي الصوفية (ص: ٦٨) نقلا من كتابه الإنسان الكامل (٢٢/١).

ومواد كيموية، ووقتا كافيا، لاستطاع أن يخلق إنسانا)[1].

وقد ألف "جوليان هكسلي" كتابا سماه: (Man Stands Alone) أي: الإنسان يقوم وحده؛ أي: هكذا دون خالق، ولكن انبرى له عالم آخر، وهو "أ. كرسي موريسون"– وكان رئيسا لأكاديمية العلوم بنيورك– وصنف كتابا سماه: (Man Does Not Stand Alone)؛ أي: الإنسان لا يقوم وحده، أي: إنه يقوم في هذه الدنيا ومعه الله. والكتاب مترجم إلى اللغة العربية، ومطبوع باسم: "العلم يدعو للإيمان"[2].

وهؤلاء الذين أنكروا الخالق جل وعلا إنكارهم ليس قائما على العلم واليقين والدليل والبرهان، وإنما إنكارهم مبني على الغرور والجهل والمكابرة، قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام وهو يناظر فرعون: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الاسراء: ١٠٢] فهو في نفسه مقر بأن الرب هو الله عز وجل، وقال تعالى مبنيا حقيقة إنكارهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فهذا هو واقع حالهم بأنهم يكابرون فيجحدون وينكرون ولكنهم في قرارة أنفسهم يكونون مقرين بالرب جل وعلا.

ثالثا: صور الإلحاد المعاصرة، ودحض شبهها:

أولا: تعريف الإلحاد لغة واصطلاحا:

أ– تعريف الإلحاد لغة: الإلحاد في اللغة: الميل عن القصد. قال ابن فارس: (اللام والحاء والدال أصل يدل على ميل عن استقامة. يقال: ألحد الرجل، إذ مال عن طريقة الحق والإيمان، وسمي اللحد، لأنه مائل في أحد جانبي الجدث[3])[4]، فالإلحاد معناه في اللغة: الميل عن القصد وطريق الاستقامة.

ب– تعريف الإلحاد اصطلاحا: الإلحاد في الاصطلاح: إنكار وجود الله تعالى، والملحدون: هم الذين لا يؤمنون بوجود الله تعالى، فضلا عن وحدانيته في ربوبيته وألوهيته، ويقولون: إن الكون وُجِدَ بلا خالق، وبالتالي يكفرون بالرسل ويجحدون بالأديان[5].

ثانيا: التيارات الأساسية للإلحاد: الإلحاد له ثلاث تيارات أساسية، وهي: الإلحاد الجازم، والإلحاد الارتيابي، والمذهب الربوبي، وفيما يلي بيانها باختصار[6]:

١– الإلحاد الجازم: والمراد بالإلحاد الجازم أو الإلحاد المؤكد: هو الإنكار الصريح لوجود الله تعالى،

---

(١) نقلا من كتاب: العلم يدعو للإيمان (ص: ٤٥).

(٢) انظر: العلم يدعو للإيمان؛ كلمة المترجم للكتاب: محمود صالح الفلكي (ص: ١٨)؛ وكلمة المقدم: أحمد زكي (ص: ٣٨).

(٣) الجدث: القبر، وجمعه: أجداث، انظر: معجم مقاييس اللغة (٤٣٦/١، مادة: جدث).

(٤) معجم مقاييس اللغة (٢٣٦/٥، مادة: لحد).

(٥) انظر: انتصار الحق (ص: ٩ و٣٣)، والإلحاد وسائله وخطره وسبل مواجهته (ص: ١٢)، وميليشيا الإلحاد (ص: ١٩–٢٠).

(٦) انظر: ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (١٧٨/١–٢٣٨).

والجزم بعدم وجوده تعالى، فهذا النوع من الملحد يدعي عدم وجود الله تعالى ويصرح بذلك بل قد يزعم أنه ثبت لديه بالأدلة العلمية عدم وجود إله خالق لهذا الكون، وأن القول بوجود الخالق باطل بل خرافة في زعمه، وكان الملحد الفرنسي: البارون هولباخ (ت ١٧٨٩م) يتباهى بأنه (العدو الشخصي للإله)، وكان يطالب بعدم استعمال كلمة الإله والخالق ونحوها من الكلمات في الخطاب والكتاب، وكان الملحد الألماني: فيورباخ (ت ١٨٧٢م) يزعم أن الطبيعة هي الخالقة، وأن الله في زعمه ليس شيئا آخر غير الطبيعة، وكان ماركس يقول: (أنا أكره كل الآلهة)، وكان لينن يقول: (ليس صحيحا أن الله هو الذي ينظم الأكوان، وإنما الصحيح هو أن الله فكرة خرافية!! اختلقها الإنسان ليبرر عجزه...) والملحد الألماني نيتشه (ت ١٩٠٠م) كان يقول: (لقد ماتت كل الآلهة، فلم يعد لنا من أمل إلا ظهور الإنسان المتفوق) إلى غير ذلك من أقوالهم الباطلة الجازمة بعدم وجود الإله والرب والخالق لهذا الكون.

٢- الإلحاد الارتيابي: المتردد بين الجزم بالنفي أو الإثبات، والمراد بالإلحاد الشكي والارتيابي عدم الجزم بوجود الله ولا بعدم وجوده، فهذا النوع من الملحد يلتزم بالتوقف عن إصدار إي موقف جازم، ويجعل كلا الأمرين وجود الله وعدمه محتملا، وهؤلاء يزعمون بأنهم عاجزون عن إقامة الأدلة الدالة على وجود الله تعالى، وفي الوقت نفسه يزعمون بأنهم عاجزون عن إقامة الأدلة على عدم وجوده تعالى.

وينقسم الإلحاد الارتيابي إلى قسمين:

أ- الارتياب الجزئي، ويسمى الارتياب الموقت: وهو الذي يذهب إلى أن الاستدلال على وجود الله إثباتا أو نفيا ليس مستحيلا، وإنما لا توجد أدلة ترجح أحد الاحتمالين عنده في اللحظة الراهنة.

ب- الارتياب المنهجي، ويسمى الارتياب المؤبد، وهو الذي يدعي استحالة إقامة الدليل على إثبات وجود الله تعالى، لأنه لا يمكن البلوغ إلى المعرفة اليقينية في ذلك ولأن وجود الله ليس مما يندرج ضمن الأمور التي يمكن التحقق منها تجريبيا.

٣- الإلحاد الربوبي: ويسمونه أيضا الدين الربوبي، والدين الطبيعي، والتأليه الطبيعي، وبعضهم يسميه الدين البدائي، وبعضهم يسميه الدين العقلي، والتأليه العقلي: وهم بهذا الاتجاه حاولوا التوسط بين أهل الأديان المنزلة وبين أهل الإلحاد، فيزعمون (أن هناك إلها كائنا أسمى، خيرا حكيما، قد خلق العالم، ولكنه لم يعد يتدخل فيه) فهم يقولون بوجود الإله، ويقولون بأنه هو الذي خلق العالم وهم في هذا يوافقون أهل الأديان نوعا ما، ولكنه في زعمهم ترك العالم بعد خلقه يعمل وفق قوانينه دون تدخل منه، فهو في زعمهم لا ينزل الوحي ولا يرسل الرسل ولا ينزل الكتب ولا يسمع النداءات، ولا يستجيب الدعوات ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى، وهم يشبهون العالم بالساعة وخالق العالم بصانع الساعات،

ويزعمون أن العقل مصدر كاف لإقامة العلاقة الحسنة مع الله وتأسيس العدالة والأخلاق الفاضلة.

ثالثا: من صور الإلحاد في العصر الحديث: لقد انتشر الإلحاد في العصر الحديث انتشارا كبيرا، فقد تبنته منظمات ودول، وصار له دعاة وأتباع وأنصار، لهم مدارس ومذاهب فكرية متعددة، يقومون بتحليل الظواهر العلمية والنفسية والاقتصادية والاجتماعية على وجه ليس لاعتقاد الخالق فيها أثر، ويجمعهم القول بإنكار وجود الله تعالى ومحاربة الأديان وعقائدها وشرائعها وأحكامها[1]، وفيما يلي الإشارة إلى صور منها.

العلمانية، وهي التي تعني بناء المجتمع على أسس مادية، لا علاقة للدين بها.

الوجودية: وهي التي تدعو إلى إبراز قيمة الفرد وحريته وقدرته على أن يفعل ما يريد.

الوضعية: وهي التي تنكر أي معرفة تتجاوز التجربة الحسية.

الشيوعية: وهي التي تقرر أن لا إله، وأن الحياة مادة.

الداروينية: وهي التي تقرر نظرية التطور والارتقاء.

القومية: وهي التي تدعو إلى جمع الناس والولاء لهم وتوحيد كلمتهم على أساس اللون أو العرق أو اللغة أو التراب وإحلالها محل رابطة الدين، وفي ذلك يقول قائلهم من الدعاة إلى القومية العربية:

هبوني عبدا يجعل العرب أمة...وسيروا بجثماني على دين برهم

سلام على كفر يوحد بيننا...وأهلا وسهلا بعده بجهنم.

رابعا: من شبهات الملاحدة: الملاحدة عندهم شبهات ولهم تلبيسات ومغالطات كثيرة، وفيما يلي ذكر جملة منها مع كشف زيفها وبيان بطلانها:

الشبهة الأولى: إذا قيل لهم: أن كل حادث لا بد له من محدث، وأن كل ما وجد من عدم فلا بد له من خالق، ولا بد له من موجد، فيقولون ويسألون بكل غباء: سلمنا بأن الله خلق كل شيء، فمن خلق الله؟ ولم لا يطبق قانون السببية عليه أيضا؟

ولكن هذا سؤال فاسد في أصله، وذلك لأنه سلم أن الله خالق، ثم يقول: من خلق الله؟ فيجعل منه خالقا ومخلوقا في الجملة نفسها، هذا تناقض واضح، فإن الخالق لا يمكن أن يكون مخلوقا، والمخلوق لا يمكن أن يكون خالقا. فالله عز وجل خالق، وليس مخلوقا؛ ولذلك هذا السؤال: من خلق الله؟ سؤال باطل غير صحيح البتة، وهذا السؤال الباطل المتناقض المتهافت شبيه بسؤال السائل المغالط: ما طول الضلع الرابع في المثلث؟ وأين تسقط البيضة إذا باض الديك الواقف على الجدار؟ وهل مدة حمل الرجل كالمرأة –

(١) انظر: الإلحاد وسائله وخطره وسبل مواجهته (ص: ١٤-٢٢)، والوجيز في المذاهب الفكرية المعاصرة (ص: ٤٣).

تسعة أشهر-؟ فإن المثلث لا يكون فيه إلا ثلاثة أضلع، والديك لا يبيض، والرجل لا يحمل، ولذلك السؤال عن الضلع الرابع في المثلث وبيضة الديك وحمل الرجل باطل بلا شك، فكذلك هذا السؤال أيضا باطل بلا شك ولا ريب(١).

الشبهة الثانية: إنهم يسألون فيقولون: هل يستطيع الله خلق صخرة لا يستطيع حملها؟ فإن قيل: لا يستطيع، قالوا: كيف يكون ربا وهو عاجز عن الخلق؟، وإن قيل: يستطيع، قالوا: كيف يكون ربا وهو عاجز عن الحمل؟، فهذا السؤال فيه مغالطة كبيرة، والهدف منه تشكيك المؤمن في قدرة الله تعالى، وبالتالي تشكيكه في وجوده سبحانه.

ولكن هذا السؤال فاسد، يفسد بعضه بعضا، وينقض أوله آخره. لأنه من البديهي أن من قدر على أن يخلق صخرة ويوجدها من العدم فهو قادر على حملها من باب أولى. فالله عز وجل على كل شيء قدير، فهو قادر على خلق أي صخرة مهما بلغت في الكبر، وعلى حملها أيضا، وهذا هو الكمال. وإذا كنت أيها الملحد تعتبر الكمال عجزا، فهذه مشكلة في عقلك تحتاج إلى علاج.

الشبهة الثالثة: العلم لا يكون إلا بالحس والتجربة، والله تعالى لا يمكن العلم بوجوده، لأنه لا يقع تحت الحس والتجربة ولكن حصر العلم بالحواس البشرية وإنكار ما سواه غير صحيح، وبيان ذلك بما يلي:

١- المدارك والحواس البشرية أضعف من أن تكون معيارا للموجودات، فإنها في بعض الأحيان تخون أصحابها، وتُظْهِر لهم الأشياء على غير وجهها، ولا تخبرهم عن الواقع على الوجه الصحيح الدقيق، فالقلم الذي يوضع في كأس من الماء يُرى مكسورا، وهو ليس بمكسور، ويُرى وقتَ الظهيرة ماء في الطرقات والأماكن البعيدة، وهو سراب لا حقيقة له، وتُرى الأشياء من بعيد صغيرةً، وهي في الحقيقة تكون كبيرةً، وقد ترى الشخص من بعيد فتحسبه فلانا من الناس؛ ولكنه إذا اقترب ورأيته عن كثب، فإذا هو غيره؛ وتنظر إلى الظل فتحسبه واقفا غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة له، ثم يتبين بعد قليل بأنه كان في حركة وتدرج، وأنه لم يكن في حالة الوقوف والجمود، فالحس البشري قد يخبر بأخبار كاذبة لا سبيل إلى تصديقها، ويحكم بأحكام خاطئة لا سبيل إلى مدافعتها، ولذلك لا ينبغي الاعتماد الكلي على الحس البشري ولا على العقل الإنساني، فلا يصح أن يحكما على كل شيء، ولا يمكن أن يُفَسَّر بهما كل شيء، ولا يصح أن يُدْخَلا في جميع الأغوار(٢).

٢- عدم إحساس الإنسان بشيء أو عدم رؤيته له ليس دليلا على عدم وجود ذلك الشيء، وعدم اعتراف الملاحدة إلا بما شاهدوه بأعينهم، وجربوه بوسائلهم وأدواتهم المادية شبيه بموقف الأعمى

---

(١) انظر: شموع النهار (ص: ١٥١)، وسابغات (ص: ٧٩-٨٠).

(٢) انظر: الإلحاد وسائله وخطره وسبل مواجهته (ص: ٤٢)، والوجيز في المذاهب الفكرية المعاصرة (ص: ٧٥)، وشموع النهار (ص: ١٦-١٧).

الذي ينكر وجود الألوان لأنه لا يراها، وشبيه بموقف الأصم الذي ينكر وجود الأصوات لأنه لا يسمعها، وشبيه بموقف ذي فم مر مريض ينكر وجود الماء العذب الزلال، لأنه لا يستسيغه ولا يشعر بعذوبته، فهل يُسَلَّم للأعمى والأصم والمريض إنكارهم لما لا يجدونه ولا يشعرون به؟ الجواب لدى كل عاقل: لا. فكذلك لا يُسَلَّم للملاحدة إنكارهم لما لا يشاهدونه ولا يرونه ولا يشعرون به[١].

٣- الملاحدة غير صادقين في دعواهم بأنهم يقولون بإثبات كل ما دخل في الإدراكات والحواس البشرية، وأن علومهم كلها تجريبية، فإنهم لا يصدقون بأن آدم عليه السلام خلق من طين، وأن حواء خلقت من ضلعه، وأنه منهما تناسل البشر، لأنه غيب غير محسوس؛ ولكنهم يصدقون بأن أصل الإنسان خلية وجدت قبل ملايين السنين، ثم تطورت وصارت إنسانا، وهذا أيضا غيب بالنسبة لهم، لكنه مقبول عندهم، وهذا اضطراب واضح وتناقض صارخ، وتفريق بين متماثلين، فلماذا الأول مردود والثاني مقبول؟ وكلاهما من الغيب! أي الخبرين أولى بالقبول والتصديق؟ إنهم قبلوا الثاني؛ لأن مصدره إلحادي، وهم تابعون في ذلك لشيوخهم الملاحدة، وليس قائما على التجربة البتة، بل هو من الظنون الباطلة والتخرصات الفاسدة والأوهام الكاذبة[٢].

٤- هذه الروح التي في جسم الإنسان يعجز العقل الإنساني والحس البشري عن معرفة حقيقتها، كما يعجزان عن معرفة حقيقة العقل نفسه، ويقال مثل ذلك في حقيقة الرؤى والأحلام، وحقيقة الجاذبية، والإلكترون وغير ذلك. ولا يستطيع ملحد إنكار هذه الأشياء مع عجز عقله وحسه عن معرفة كنهها وحقيقتها. وهذا كله يهدم أصل الملاحدة ودعواهم بأنهم لا يقولون ولا يصدقون إلا ما كان واقعا تحت حسهم وإدراكهم، وخاضعا لتجاربهم ومعاملهم ومختبراتهم. وإذا كان الملاحدة يؤمنون بهذه الأشياء ويصدقونها ولا ينكرونها مع عدم إدراكهم لها فيجب عليهم الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر وغير ذلك مما جاءت به الشرائع من باب أولى[٣].

الشبهة الرابعة: يزعمون أن في الإسلام أشياء متناقضة تتعارض مع العقل، ويوردون على هذا شبها، منها على سبيل المثال ما جاء عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب حتى تسجد

---

(١) انظر: الإلحاد وسائله وخطره وسبل مواجهته (ص: ٤٣)، والوجيز في المذاهب الفكرية المعاصرة (ص: ٧٤-٧٥) ، والعقلية الليبرالية في رصف العقل ووصف النقل (ص: ١٤٩).

(٢) انظر: تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله (ص: ٣٤-٣٥)، والإلحاد وسائله وخطره وسبل مواجهته (ص: ٤٥)، والإلحاد وثوقية التوهم وخواء العدم (ص: ٥٢-٥٥ و٧٩ و٨١)، وانظر للتفصيل: المسائل العقدية المتعلقة بآدم عليه السلام (١/٣٧٧-٤٥٢).

(٣) انظر: الإسلام يتحدى (ص: ٣٩-٤٤)، والإلحاد وسائله وخطره وسبل مواجهته (ص: ٤٢-٤٣)، والوجيز في المذاهب الفكرية المعاصرة (ص: ٧٣).

تحت العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [يس: ٣٨][1].

وأهل الإيمان ليس عندهم أدنى شك في التسليم لما جاء في هذا الحديث، ويعتقدون بصدق ما جاء فيه، فإنه من كلام الصادق المصدوق ﷺ، ومعناه عندهم: أن الشمس خلال جريها في فلكها في الفضاء وفي مكان معين منه تكون ساجدة لله تحت العرش، ولا شك أن جميع الفضاء وما فيه من الأجرام والأفلاك تحت العرش، وإن كنا لا نعرف كيفية هذا السجود. قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾[الإسراء: ٤٤]

فالملاحدة يشغبون على المسلمين بهذا الحديث مع أنهم لو لزموا الإنصاف لكانوا أولى بالتشغيب، فأي القولين أولى بالقبول عند أهل العقول؟ القول بأن شمسا ذات جرم كبير جدا وحرارة عظيمة جدا، تسبح في الفضاء بانتظام في مسار محدد لا تخرج عنه قيد شعرة، وأن هذه الشمس حدثت صدفة من غير خالق خلقها ويدبرها!

أم القول بأن الشمس التي خلقها الخالق العظيم القدير وصرَّفها حيث شاء، جعلها تسجد تحت العرش في مكان معين دون أن نلحظ ذلك أو ندرك حقيقته؟

لا شك أن القول الثاني أولى بالقبول عند كل عاقل.

وهكذا جميع إيراداتهم وتلبيساتهم ومغالطاتهم باطلة، ولا يقبلها ولا يقرها العقل السليم البتة.

---

(١) أخرجه البخاري (ك: التفسير، سورة يس، ح: ٤٨٠٢).

ثالثا: حقيقة توحيد الإثبات والمعرفة ولوازمه:

أولا: معنى توحيد الإثبات والمعرفة وأنواعه:

أ- معنى التوحيد في اللغة والاصطلاح:

التوحيد في اللغة: مصدر وحَّد الشيء يوحده توحيدا، أي جعله واحدا.

التوحيد في الاصطلاح: إفراد الله تعالى بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات[1].

ب- تقسيم التوحيد: من أهل العلم من قسم التوحيد إلى قسمين: توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد الطلب والقصد، ومنهم من قسمه إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية، والذين قسموه إلى قسمين جعلوا توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات قسما واحدا؛ لأنهما يتعلقان بذات الرب وأسمائه وصفاته وأفعاله، وسموه توحيد المعرفة والإثبات[2] والتقسيم الثنائي نظر فيه إلى التوحيد من جهة فعل العبد وتوحيده لربه، والتقسيم الثلاثي نظر فيه إلى التوحيد من جهة ثبوته لله تعالى، وتقسيم الشيء يختلف باختلاف وجهة التقسيم، فلا تعارض ولا تناقض بين هذه التقاسيم، وهي قائمة على استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كلِّ فنٍّ.

ومن الأدلة الجامعة لأقسام التوحيد الثلاثة: قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٢ – ٥]وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾[الناس: ١-٣] وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

قال السعدي عن هذه الآية بأنها: (اشتملت على أصول عظيمة على توحيد الربوبية، وأنَّه تعالى ربُّ كلِّ شيء وخالقُهُ ورازقُهُ ومدبِّرُه، وعلى توحيد الألوهية والعبادة وأنَّه تعالى الإله المعبود، وعلى أنَّ ربوبيته موجبة لعبادته وتوحيده، ولهذا أتى فيه بالفاء في قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ الدالة على السبب؛ أي: فكما أنَّه ربُّ كلِّ شيء، فليكن هو المعبود حقّاً فاعبده، ومنه: الاصطبار لعبادته تعالى، وهو جهاد النفس وتمرينها وحملها على عبادة الله تعالى، فيدخل في هذا أعلى أنواع الصبر، وهو الصبر على الواجبات والمستحبات، والصبر عن المحرمات والمكروهات، بل يدخل في ذلك الصبر على البليات؛ فإنَّ الصبر عليها وعدم تسخطها والرضى عن الله بها من أعظم العبادات الداخلة في قوله: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾، واشتملت على أنَّ الله تعالى كامل الأسماء والصفات عظيم النعوت جليل القدر، وليس له في

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد (٨/١).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٣٦/١ و٥٦٠/٢).

ذلك شبيه ولا نظير ولا سمي، بل قد تفرَّد بالكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات)[1].

قال الشيخ بكر أبو زيد: (هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن مندة وابن جرير الطبري وغيرهما، وقرره شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقرره الزبيدي في تاج العروس وشيخنا الشنقيطي في أضواء البيان في آخرين رحم الله الجميع، وهو استقراء تامٌّ لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كلِّ فنٍّ، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف، والعرب لم تفه بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء)[2].

ج– معنى توحيد المعرفة والإثبات: توحيد المعرفة والإثبات يتعلق بذات الرب سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، قال ابن القيم في تعريف توحيد المعرفة والإثبات وبيان معناه: (هو حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وعلوه فوق سمواته على عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه، وقدره، وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح، كما في أول سورة الحديد، وسورة طه، وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها، وغير ذلك)[3]، وقال ذاكرا نوعي التوحيد ومبينا معناهما: (التوحيد العلمي أساسه إثبات صفات الكمال للرب تعالى ومباينته لخلقه وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل، والتوحيد العملي أساسه تجريد القصد بالحب والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والاستعانة والاستغاثة والعبودية بالقلب واللسان والجوارح لله وحده فمدار ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه على هذين التوحيدين وأقرب الخلق إلى الله أقومهم بهما علما وعملا)[4]

د– أنواع توحيد المعرفة والإثبات: هذا التوحيد ينقسم إلى قسمين: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

ثانيا: مفهوم توحيد الربوبية وأدلته:

أ– معنى الرب وإطلاقاته:

١– معنى الرب في اللغة: قال ابن الأثير: (الرب يطلق في اللغة على المالك، والسيد، والمدبر، والمربي، والقيم، والمنعم)[5].

٢– إطلاق اسم الرب: الاسم "الرب"، معرفا بالألف واللام لا يطلق إلا على الله تعالى، ولا

---

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص: ٤٤-٤٥).

(٢) التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير (ص: ٣٠).

(٣) مدارج السالكين (٥٦٣/٢).

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٤٠٢/٢-٤٠٣).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (١٧٩/٢).

يطلق على غير الله إلا مضافا، فيقال للمخلوق: رب كذا، قال ابن الأثير: (ولا يطلق غير مضاف إلا على الله تعالى، وإذا أطلق على غيره أضيف فيقال: رب كذا)[١]. مثل: رب المال، ورب الدار، رب الغنم، ومنه قوله ﷺ في أشراط الساعة: «لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال، فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه لا أرب لي»[٢]، وعن رافع بن خديج في حديث طويل أن النبي ﷺ (أمر رب الأرض أن يزرعها أو يزرعها)[٣]، وعن أبي الأحوص قال: أتيت النبي ﷺ فصعد في النظر وصوب، وقال: «أرب إبل أنت أو رب غنم؟» قال: من كل قد آتاني الله فأكثر وأطيب... الحديث[٤].

٣- لماذا اسم "الرب" مطلقا ومعرفا بالألف واللام لا يطلق إلا على الله تعالى؟ الجواب: إنما اختص اسم الرب بالله تعالى لأن الألف واللام تدل على العموم، بمعنى رب كل شيء، وليس كذلك إلا رب العالمين، قال ابن قتيبة: (ولا يقال لمخلوق: هذا الرب؛ معرَّفا بالألف واللام؛ كما يقال لله. إنما يقال: هذا ربٌّ كذا. فيعرَّفُ بالإضافة لأن الله مالكُ كل شيء. فإذا قيل: الربُّ؛ دلَّت الألف واللام على معنى العموم. وإذا قيل لمخلوق: ربٌّ كذا وربٌّ كذا؛ نُسِب إلى شيء خاص: لأنه لا يَملِك شيئًا غيره)[٥].

ب- تعريف توحيد الربوبية في الاصطلاح: تنوعت عبارات أهل العلم في تعريف توحيد الربوبية، وهي متقاربة المعنى، ومن تلك التعريفات ما يلي:

- هو الإقرار بأن الله خالق كل شيء وربه[٦].
- هو الشهادة بأنه لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا يدبر الأمور إلا الله[٧].
- هو إفراد الله بأفعاله كالخلق والملك والتدبير والرزق والإحياء والإماتة وإنزال المطر ونحو ذلك[٨].
- هو إفراد الله عز وجل بالخلق والملك والتدبير[٩].

فهذه التعريفات تدور حول إفراد الله عز وجل بأفعاله، وبعضهم توسع في ضرب الأمثلة، وبعضهم

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (١٧٩/٢).

(٢) أخرجه البخاري (ك: الفتن، ح: ٧١٢١).

(٣) أخرجه مسلم (ك: البيوع، ح: ١٥٤٨).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٤٦٤/٢٨ ح: ١٧٢٢٨).

(٥) تفسير غريب القرآن (ص: ٩).

(٦) منهاج السنة النبوية (٢٨٩/٣) وانظر: الاستقامة (١٧٩/١).

(٧) الرسائل الشخصية لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، الرسالة الحادية والعشرين (ص: ٨٨).

(٨) تيسير العزيز الحميد (ص: ٣٣).

(٩) القول المفيد على كتاب التوحيد (٩/١).

اختصر، وبعضهم اكتفى بذكر مثال واحد فقط، ومن هنا يمكن القول بأن **أشمل تعريف لتوحيد الربوبية هو: إفراد الله بأفعاله**، ويدخل في هذا جميع صفات الربوبية[1].

ج – ربوبية الله في على خلقه تجتمع في ثلاثة أصول: الخلق والملك والتدبير.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]

فقد ذكر الخلق في قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، والملك في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ﴾، و التدبير في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩]، وفيما يلي بيان هذه الأصول:

١– الخلق: فهو سبحانه خلق الخلق وحده، ولا خالق غيره، فيجب الاعتقاد بأنه لا خالق إلا الله. قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف: ٥٤] فهذه الجملة تفيد الحصر لتقديم الخبر، فإن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر. وقال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]؛ فهذه الآية تفيد اختصاص الخلق بالله تعالى لأن الاستفهام فيها مشرب بمعنى التحدي، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[الزمر: ٦٢] وغير ذلك من الآيات التي تدل على أن الله تعالى وحده هو الخالق، وأن ما سواه فهو مخلوق.

وما خلقه الله لا يستطيع الخلق صنع مثله قط، وهو سبحانه لم يخلق شيئا أقدر العباد على أن يصنعوا مثله، فهو سبحانه أقدر خلقه أن يصنعوا طعاما مطبوخا ولباسا منسوجا وبيوتا مبنية ونحو ذلك، ولكن ما خلقه الله من حيوان ونبات ومعدن ونحوه فإن الخلق لا يقدرون أن يصنعوا مثله، لا يقدر العباد أن يصنعوا مثل ما خلقه الله مثل الإنسان والفرس والأنعام والطير والحيتان، ولا مثل الحنطة والشعير والعنب والرطب، ولا مثل الذهب والفضة والنحاس ونحوه، وإنما غاية ما يصل إليه العباد أن يصنعوا ما يشبه ما خلقه الله من بعض الوجوه من غير أن يكون مثله في الحقيقة، فقد يصنعون ما يشبه الحيوان وليس بحيوان حقيقة، ويصنعون ما يشبه النبات وليس بنبات حقيقة، والمصنوع لا يكون مثل المطبوع بحال. ثم أن المواد التي يستعملها العباد في صنع ما يشبه ما خلقه الله مواد مخلوقة لا قدرة لهم على خلقها، فيكون غاية ما يفعلون أن يستعلموا مما خلقه الله في صنع ما يشبه مخلوقاته، فهم لا يستطيعون أن يخلقوا كخلقه سبحانه.

---

(١) نواقض توحيد الربوبية ومظاهرها (١٦).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣]. فالمخلوقات كلها لا تستطيع أن تخلق ذبابا واحدا الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها وأدناها، كما أخبر بذلك خالقهم الذي يعلم سرهم وجهرهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة[١] أو ليخلقوا حبة أو شعيرة»[٢].

فالعباد كلهم فضلا أن يخلقوا إنسانا أو جزء من أجزاء بدنه لا يستطيعون أن يخلقوا حشرة واحدة من ذبابة أو نملة فيها روح تتصرف بنفسها كما تتصرف النملة الصغيرة التي هي من خلق الله تعالى بل لا يستطيعون أن يخلقوا حبة حنطة أو شعير فيها طعم تؤكل، وتزرع، وتنبت، ويوجد فيها ما يوجد في حبة الحنطة والشعير ونحوهما من الحب الذي يخلقه الله تعالى. وهذا التعجيز والتحدي من الخالق الجبار سيظل قائما إلى يوم القيامة، وليس بإمكان أحد من الملاحدة أو غيرهم من المخلوق أن يخلقوا كخلق الله تعالى[٣].

وأما ما ورد من إثبات خالق غير الله; كقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وكقوله ﷺ في المصورين يقال لهم: «أحيوا ما خلقتم»[٤]. فهذا ليس خلقا حقيقة، وليس إيجادا بعد عدم، بل هو تحويل للشيء من حال إلى حال، وأيضا ليس شاملا، بل محصور بما يتمكن الإنسان منه، ومحصور بدائرة ضيقة; فلا ينافي قولنا: إفراد الله بالخلق.

خلق الله للأعيان والأعراض: الفلاسفة يزعمون أن الجسم ينقسم إلى ما لا نهاية له، والمتكلمون يقولون بالجزء الذي لا يتجزأ، وهو الذي يسمونه الجوهر الفرد، وكلا القولين باطلان وينتج منهما أن الله تعالى يخلق الأشياء بتغيير أوصافها وأحوالها دون أعيانها وأشخاصها، والصحيح أن الأجسام إذا تصغرت أجزاؤها تستحيل وتتلاشى وتفنى، والله عز وجل ينشئ الثاني ويبتدئه من غير أن يبقى من الأول شيء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والحق أن المادة التي منها يخلق الثاني تفسد، وتستحيل، وتتلاشى، وينشئ الله الثاني ويبتديه ويخلق من غير أن يبقى من الأول شيء؛ لا مادة، ولا صورة، ولا جوهر، ولا عرض. فإذا خلق الله الإنسان من المني، فالمني استحال وصار علقة، والعلقة استحالت وصارت مضغة، والمضغة استحالت إلى عظام وغير عظام.

---

(١) الذرة: هي النملة الصغيرة. وقيل: هي النملة الحمراء، وهي من أصغر النمل. وقيل: هي ما ترفعه الريح من التراب. انظر: التبيان في تفسير غريب القرآن (ص: ١٦٧، النساء: ٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (ك: التوحيد، ح: ٧١٢٠)، واللفظ له؛ ومسلم (ك: اللباس والزينة، ح: ٢١١١).

(٣) انظر: شرح النووي لصحيح مسلم (٩١/١٤).

(٤) جزء من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أخرجه البخاري (ك: البيوع، ح: ٢١٠٥)، ومسلم (كتاب اللباس والزينة، ح: ٢١٠٧).

والإنسان بعد أن خلق، خلق كله؛ جواهره وأعراضه، وابتدأه الله ابتداء؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴾[السجدة: ٧ – ٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴾[مريم: ٦٧]فالإنسان مخلوق، خلق الله جواهره وأعراضه كلها من المني؛ من مادة استحالت، ليست باقية بعد خلقه؛ كما تقول المتفلسفة أن هناك مادة باقية)[١].

فالله عز وجل خلق جميع المخلوقات بذواتها وأعيانها وأوصافها وأحوالها وأفعالها، وهو مذهب أهل السنة والجماعة[٢]، فالسماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار، والصباح والمساء، والبر والبحر، والسفن والدواب، والماء والسحاب، والحب والنوى، والشجر والثمر والزرع والنبات والرجال والنساء والحيوانات كلها مخلوقة بأعيانها وأوصافها. والله تعالى يبدأ الخلق، ويخلق من عدم، ويخلق الأشياء بعضها من بعض، ويقلبها من حال إلى حال، ويحيلها من جسم إلى جسم، والمادة التي يخلق منها الثاني تتلاشى، وينشئ الله الثاني من غير أن يبقى من الأول شيء، فالإنسان كان معدوما، وقد أوجده الله تعالى بعد أن لم يكن شيئا يذكر، وخلقه من الطين، واستحال ذلك الطين بعد نفخ الله الروح فيه إلى إنسان حي كامل، وإذا خلق الله الإنسان من المني استحال المني إلى علقة، والعلقة إلى مضغة، والمضغة إلى العظام وغير العظام، فالإنسان خلقه الله من عدم، وخلقه كله، فخلق جواهره وأعراضه من التراب بالنظر إلى أبي البشر ومن المني بالنظر إلى بني آدم، والمادة الأولى استحالت وما بقيت بعد الخلق. وكذلك يخلق الله الزرع من الحب، والثمر من الشجر، والشجر من النوى، فالحبة يفلقها الله تعالى ويقلب مادتها ويحولها إلى شجرة وسنبلة، ويخلق الثمرة بقلب المادة التي يخرجها من الشجرة، بل الشجرة لم يكن فيها ثمرة أصلا، ولا كان في بطن المرأة جنين، ولكن الله خلق هذا الموجود من مادة غيره بقلبه تلك المادة إلى هذا وبما ضم إليه من مواد أخرى[٣]، وهذا مشاهد ومحسوس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والخلق يشهدون إحداث الله لما يحدثه، وإفناءه لما يُفنيه؛ كالمني الذي استحال، وفني، وتلاشى، وأحدث منه هذا الإنسان؛ وكالحبة التي فنيت، واستحالت، وأحدث منها الزرع؛ وكالهواء الذي استحال، وفني، وحدث منه النار أو الماء؛ وكالنار التي استحالت، وحدث منها الدخان؛ فهو سبحانه دائماً يُحدث ما يُحدثه ويكوّنه، ويُفني ما يُفنيه ويُعدمه)[٤]، وبذلك يعلم بطلان دعوى انحصار خلق الله للأشياء بتغيير صفاتها فقط دون إيجاد أعيانها وخلق ذواتها؛ بل يدل على بطلان أصل هذه الدعوى وأساسها، والذي بنوا عليها هذا القول الباطل، وهو الإيمان بنظرية الجوهر الفرد ودعوى انقسام الجسم إلى

---

(١) النبوات (١/٣٧١-٣٧٢).

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢/١١٦ و٤٠٩ و٨/٦٣ و٥١٩ و١٢/٣٢٩)، ودرء تعارض العقل والنقل (٩/٣١).

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٧/٢٤٨-٢٤٩)، والنبوات (١/٣٧١-٣٧٢)، ومنهاج السنة النبوية (٢/١٤٠).

(٤) النبوات (١/٣٧٤-٣٧٥).

جزء لا يمكنه أن ينقسم بعده، والقول بالجزء الذي لا يتجزأ، كما يدل على بطلان دعوى انقسام الأجسام إلى ما لا نهاية له، والحق أن الحق بينهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وجمهور العقلاء من أصناف الناس -أهل النظر والفلسفة وغيرهم- يقولون...إن الأجسام يستحيل بعضها إلى بعض، كما يقول ذلك الفقهاء والأطباء وغيرهم، وكما يُشهد ذلك، وإن الحادث هو نفس أعيان الحيوان والنبات لا مجرد صفاتها، وينكرون أن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة)[1]، وقال أيضا: (والتحقيق أن كلا المذهبين باطل، والصواب ما قاله من قاله من الطائفة الثالثة المخالفة للطائفتين: أن الأجسام إذا تصغرت أجزاؤها فإنها تستحيل، كما هو موجود في أجزاء الماء إذا تصغر، فإنه يستحيل هواء أو ترابا، فلا يبقى موجود ممتنع عن القسمة، كما يقوله المثبتون له، فإن هذا باطل بما ذكره النفاة من أنه لا بد أن يتميز جانب له عن جانب، ولا يكون قابلا للقسمة إلى غير نهاية، فإن هذا أبطل من الأول)[2]؛ فإن المحدود لا يمكن أن يكون غير متناه وغير محدود، بل هو يقبل القسمة إلى حد، ثم يستحيل إلى جنس آخر، ولا يبقى على ما كان عليه[3].

والله عز وجل خلق العباد وأفعالهم: إن الله سبحانه وتعالى هو الخالق للعباد وأعمالهم بل هو الخالق لكل عامل وعمله، وكل متحرك وحركته، وكل ساكن وسكونه والأدلة على ذلك كثيرة، فيما يلي ذكر شيء منها:

من الكتاب: قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾[الزمر: ٦٢] ، وقال تعالى: ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [فاطر: ٣]، وقال تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾[الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[الصافات: ٩٥ – ٩٦]؛ أي: خلقكم وعملكم[4].

من السنة: عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يصنع كلّ صانع وصنعته»[5]. فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة، والصناعات إنما صارت صناعات بفعل العبد، فيكون فعله مخلوقا لله تعالى.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٧/٢٢١).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/٢٥٨).

(٣) يحسن الرجوع للاستزادة والتفصيل إلى كتاب: نظرية الجوهر الفرد عند المتكلمين حقيقتها وتاريخها والأخطار العقدية المترتبة على الاعتقاد بها، للأستاذ الدكتور سعيد بن محمد بن حسين بن معلوي.

(٤) انظر: زاد المسير (٧/٧٠، الصافات، ٩٥-٩٦)، وتفسير القرآن العظيم (٤/١٣).

(٥) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (١١٧)، وابن أبي عاصم في "السنة" (٣٥٨)، والحاكم في المستدرك (١/٣١) وقال: (هذا حديث صحيح على شرط مسلم). ووافقه الذهبي.

وعن وَرَّاد كاتب المغيرة بن شعبة قال: أملى عَلَّي المغيرةُ بن شعبة في كتاب إلى معاوية أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة مكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيتَ، ولا مُعطي لما منعتَ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ »[1]. فالمعطي والمانع هو الله تعالى، فهو الفاعل لذلك، وهذا يدل على أن الخالق هو الله تعالى لا سواه.

وعن زيد بن أرقم، قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسولُ الله ﷺ يقول -كان يقول-: «اللهمّ، إنّي أعوذُ بك من العجز والكسل، والجُبن والبُخل، والهرَمِ وعذاب القبر. اللّهمّ آتِ نفسي تقواها وزَكِّها أنت خيرُ من زَكّاها، أنت وليُّها ومولاها. اللهمّ إنّي أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوةٍ لا يستجاب لها»[2] فالله عز وجل هو الذي يؤتي النفس تقواها ويزكيها، إذن الفاعل لها، وهو الذي يطلب منه ذلك. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (أفعال العباد مخلوقة باتفاق سلف الأمة وأئمتها)[3].

الدليل العقلي النظري: (وأما الدليل النظري على أن أفعال العبد مخلوقة لله؛ فتقريره أن يقال: (إن فعل العبد ناشئ عن أمرين: عزيمة صادقة وقدرة تامة.

مثال ذلك: أردت أن أعمل عملًا من الأعمال؛ فلا يوجد هذا العمل حتى يكون مسبوقًا بأمرين هما:

أحدهما: العزيمة الصادقة على فعله؛ لأنك لو لم تعزم ما فعلته.

الثاني: القدرة التامة، لأنك لو لم تقدر؛ ما فعلته؛ فالذي خلق فيك هذه القدرة هو الله عزَّ وجلَّ، وهو الذي أودع فيك العزيمة، وخالق السبب التام خالق للمسبب.

ووجه ثان نظري: أن نقول: الفعل وصف الفاعل، والوصف تابع للموصوف، فكما أن الإنسان بذاته مخلوق لله؛ فأفعاله مخلوقة؛ لأن الصفة تابعة للموصوف.

فتبين بالدليل أن عمل الإنسان مخلوق لله، وداخل في عموم الخلق أثريًّا ونظريًّا، والدليل الأثري قسمان عام وخاص، والدليل النظري له وجهان)[4].

فالله عز وجل خالق للأعيان والأعراض، وخالق للعباد وأعمالهم، فلا يصح القول بأن الله يخلق بتغيير الصفات دون الأعيان، وكذلك لا يصح القول بأن العبد يخلق فعل نفسه، بل الله تعالى هو للأعيان وأعراضها وللعباد وأعمالهم.

٢- الملك: الخالق يملك ما خلق، لا ملك لغيره فيه، والله هو الخالق وحده فهو المالك وحده، فنحن نقر ونعترف ونعتقد أنه لا يملك الخلق إلا خالقهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) أخرجه البخاري (ك: الأذان، ح: ٨٤٤)، ومسلم (ك: المساجد ح: ٥٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (ك: الذكر والدعاء ح: ٢٧٢٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٦٠٤/٨)، وانظر أيضا: (٤٤٩/٨-٤٥٠ و٤٦٦).

(٤) شرح العقيدة الواسطية (ص: ٥٥٨).

وَٱلْأَرْضِ ﴾[آل عمران: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[المؤمنون: ٨٨].

وأما ما ورد من إثبات الملكية لغير الله; كقوله تعالى: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦]، وقال تعالى: ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ [النور: ٦١]؛ فهو أولا من تمليك الله للعبد، وعطائه إياه، ومَنِّه عليه، ورحمته به، وفضله عليه، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل: ٥٣]، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[آل عمران: ٧٣-٧٤]، ثم إنه مُلْك محدود لا يشمل إلا شيئا يسيرا من هذه المخلوقات; فالإنسان يملك ما تحت يده، ولا يملك ما تحت يد غيره، وكذا هو ملك قاصر من حيث الوصف; فالإنسان لا يملك ما عنده تمام الملك، ولهذا لا يتصرف فيه إلا على حسب ما أذن له فيه شرعا؛ فمثلا: لو أراد أن يحرق ماله، أو يعذب حيوانه؟ قلنا: لا يجوز، أما الله- سبحانه-، فهو يملك ذلك كله ملكا عاما شاملا.

٣- التدبير: وهو أن يعتقد الإنسان أنه لا مدبر إلا الله وحده، قال تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾[السجدة: ٥]وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣١-٣٢] ، وأما تدبير الإنسان; فمحصور بما تحت يده، ومحصور بما أذن له فيه شرعا.

والتدبير يجتمع في ثلاثة أصول، والأول والثاني منها متعلقان بهذه الدنيا، والثالث متعلق بالآخرة، وإليكم بيانها:

أ- تيسير نظام الكون، من خلق السماوات والأرض وسكانهما، وخلق الليل والنهار والموت والحياة ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[لقمان: ٢٩] وغيرها من الآيات.

ب- القدر من قسمة الأرزاق والأعمار والهيئات ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩] وقال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[الأحزاب: ٣٨] وغيرها من الآيات.

ج- البعث والنشور والحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: ٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦]، وقال تعالى: ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

و- الربوبية فيها عموم وخصوص، أي: إن ربوبية الله تعالى لخلقه على قسمين: عامة وخاصة.

فالربوبية العامة: هي تربيته سبحانه وتعالى جميع خلقه بالتدبير، يخلقهم ويرزقهم ويحييهم ويميتهم، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾[الزمر: ٦٢] فله الوكالة على كل شيء خلقا وملكا وتدبيرا، وحقيقة الربوبية العامة: تربية الخلق والملك والتدبير.

والربوبية الخاصة: فهي -بالإضافة إلى ما سبق- تربيته سبحانه لأنبيائه ورسله وأوليائه وعباده الصالحين بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم، وحقيقة الربوبية الخاصة: تربية التوفيق للخير والعصمة من الشر.

قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[الأعراف: ١٢١-١٢٢] فخصص موسى وهارون عليهما السلام بربوبية تمتاز عن الربوبية العامة للخلق، وقال تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١] وقال تعالى في أصحاب الكهف أنهم قالوا: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا ﴾[الكهف: ١٤] ففي هذه الآيات إضافة الربوبية إلى أصفياء الله مع أضافتها إلى عامة الخلق، وهما غيران، إحداهما أخص من الأخرى، فهو سبحانه رب أصفيائه بهدايتهم وتوفيقهم وإصلاحهم ورب العامة بخلقهم وقهرهم وتدبيرهم.

والسر في ذلك أن تمام الخضوع للرب إنما يكون بالخضوع لأمره الشرعي، وهذا لا يكون إلا من أهل محبته وولايته، فهم شاركوا جميع الخلق في الخضوع للرب قهرا ورغما، واختصوا بالخضوع لأمره ونهيه اختيارا وانقيادا، ولذلك اختصهم الله بخصائص من ربوبيته دون غيرهم، فأهل العبودية العامة لهم الربوبية العامة، وأهل العبودية الخاصة لهم الربوبية الخاصة.

د- إثبات المخلوقات أسبابا لا ينافي خصائص الربوبية: إن هذه الأسباب لا تستقل بالحكم ولا توجبه لوحدها، وليس في الوجود ما يستقل بالتأثير إلا الله تعالى، فالسخونة التي تكون للشمس لا تستقل بنفسها في التأثير، بل يشاركها غيرها في التأثير، فالفاكهة التي للشمس مثلا أثر في تغيير لونها ونموها وإنضاجها وإيباسها، ولكنها لم تنضج ولم تتغير بحرارة الشمس وحدها، بل بمشاركة من الماء والهواء والتراب وغير ذلك من الأسباب[1]، والشعاع الذي يكون عن الشمس لا بد له من جسم يقبل انعكاس الشعاع عليه، وكذلك لا بد له من دفع المانع، لأنه إذا حصل حاجز من سحاب أو سقف لم يحصل الشعاع تحته[2]، ونزول المطر وحده ليس موجبا للنبات؛ بل لا بد له من التراب والهواء والشمس وغيرها، وكذلك لا بد من دفع الآفات عنها من الفيضانات والحشرات وشدة البرودة وغيرها[3]؛ فهذه الأسباب غيرة مستقلة في التأثير، والله عز وجل وحده هو

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٤١٤/١).

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١٣/٣)، والرد على المنطقيين (ص: ٢١٨).

(٣) انظر: جامع الرسائل (١٤٦/١).

المستقل بالتأثير، ولذلك إثبات هذه المخلوقات أسبابا لا ينافي خصائص الربوبية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما إثبات الأسباب التي لا تستقل بالأثر؛ بل تفتقر إلى مشارك معاون، وانتفاء معارض مانع، وجعلها مخلوقة لله – فهذا هو الواقع الذي أخبر به القرآن، ودل عليه العيان والبرهان، وهو من دلائل التوحيد وآياته، ليس من الشرك بسبيل؛ فإن ذلك مما يبين أنه ليس في المخلوقات ما يستقل بمفعول من المفعولات)[1]، وقال ابن أبي العز: (فإنه لو قُدِّر أن شيئا من الأسباب يكون مستقلا بالمطلوب، وإنما يكون بمشيئة الله وتيسيره – : لكان الواجب أن لا يرجى إلا الله، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يسأل إلا هو، ولا يستغاث إلا به، ولا يستعان إلا هو؛ فله الحمد، وإليه المشتكى، وهو المستعان، وبه المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا به؛ فكيف وليس شيء من الأسباب مستقلا بمطلوب؛ بل لا بد من انضمام أسباب أخر إليه، ولا بد أيضا من صرف الموانع والمعارضات عنه، حتى يحصل المقصود، فكل سبب فله شريك، وله ضد، فإن لم يعاونه شريكه، ولم ينصرف عنه ضده لم تحصل مشيئته، والمطر وحده لا ينبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له، والطعام والشراب لا يغذي إلا بما جعل في البدن من الأعضاء والقوى، ومجموع ذلك لا يفيد إن لم تصرف عنه المفسدات. والمخلوق الذي يعطيك أو ينصرك فهو – مع أن الله يجعل فيه الإرادة والقوة والفعل – فلا يتم ما يفعله إلا بأسباب كثيرة، خارجة عن قدرته، تعاونه على مطلوبه، ولو كان ملكا مطاعا، ولا بد أن يصرف عن الأسباب المتعاونة ما يعارضها ويمانعها، فلا يتم المطلوب إلا بوجود المقتضي وعدم المانع. وكل سبب معين فإنما هو جزء من المقتضي، فليس في الوجود شيء واحد هو مقتض تامٌّ، وإن سمي مقتضيا، وسمي سائر ما يعينه شروطا، فهذا نزاع لفظي، وأما أن يكون في المخلوقات علة تامة تستلزم معلولها فهذا باطل)[2]، فالله عز وجل وحده هو المستقل بالتأثير على الإطلاق، وأما الأسباب المخلوقة فليس لشيء منها عموم ولا شمول ولا استقلال في التأثير، وإنما لها تأثير معين محدود في أحوال معينة، والله عز وجل هو الذي أودع فيها التأثير، فهو الخالق للسبب والمسبب، ولذلك اثبات المخلوقات أسبابا لا ينافي خصائص الربوبية.

ج– أدلة توحيد الربوبية: الأدلة على توحيد الربوبية كثيرة ومتنوعة، وفيما يلي ذكرها باختصار:

أولا: دليل الفطرة: وقد تقدم الحديث عنها، ولكن هنا أريد التنبيه على أن العباد مفطورين على أمرين: وهما نوعان للفطرة التي فطرهم الله عليها:

الأول: معرفة الرب، وهذا النوع مركوز في أصل الخلقة، وهو من تركيبها، وباق فيها، ولا يزول منها، ولا يلحقه تغيير بحال، ولا يمكنه تغييره واجتياله البتة. ولذلك لا يكون التكذيب بالربوبية إلا ظاهرا، ولا يقع باطنا قط، قال تعالى في فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:

(١) درء تعارض العقل والنقل (٥/٢٠٢-٢٠٣)، وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٧١٠).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (٢/٥٢٢-٥٢٣).

١٤]وقال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[الأنعام: ٣٣]، والجحد هو التغطية، والتغطية هي ستر الموجود وحجبه عن الظهور، ولذلك التكذيب بالربوبية إنما يكون من باب الجحد والإنكار الظاهري ظلما وعلوا، ويكون القلب مستيقنا بها غير منكر لها.

الثاني: التأله للرب بالقصد والتوجه، وهو العمل بمقتضى المعرفة، وهذا النوع فطر عليه العبد مع ابتداء وجوده، فهو عند أول وجوده لا يكون إلا متألها لخالقه متوجها إليه بقصده وطلبه، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[الروم: ٣٠] فإقامة الوجه لله وقصده والتأله له وعبادته العباد مفطورون عليه، ولا يكونون عند ابتداء وجودهم إلا هكذا، ثم قد يلحق هذه الفطرة اجتيال. وإذا وقع فيها انحراف واجتيال كانت فطرته على معرفة ربه هي السبيل لرده على الجادة.

ثانيا: دليل الآيات: وهي الآيات الكونية والنفسية، وهي مخلوقات الرب سبحانه الدالة عليه كالشمس والقمر والجبال والشجر والدواب والبشر والماء والحجر وغيرها من مخلوقاته عز وجل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[الذاريات: ٢٠-٢٢]

والناظر في هذا الكون الفسيح يجد انسجاما تاما واتساقا عاما، لا تضاد ولا تنافر، وإنما هي مخلوقات رتب خلقها وإيجادها وجميع شؤونها، بحيث تدل على موجدها الأحد الفرد الصمد، وهي توحي بحكمة عامة وغاية عظيمة في خلقها وإيجادها، فانظر الشمس والقمر والأرض...كيف رتب وجود كل منها ليقوم بوظيفته المحددة بكيفية محددة، وانظر إلى الزوجين الذكر والأنثى، كيف خلقهما الله تعالى لتحقيق الغاية والمهمة المنوطة بهما، وكيف جعلهما لباسا لهما، يكمل كل واحد منها الآخر.

فهذه كلها آيات وعلامات وبراهين تدل على الربوبية، فإن العلم بوجودها يستلزم العلم بموجدها، وهي مفتقرة إلى الرب في وجودها وحدوثها، ومفتقرة إلى الرب في بقائها وتدبيرها بعد حدوثها. قال تعالى: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ [النمل: ٦٤] فقوله: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ﴾ يدل على الافتقار إلى الخالق والمحدث والموجد، وقوله: ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ يدل على الافتقار إلى المدبر والمحافظ، وكذلك قوله: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [فاطر: ٣] فيها الوجهان: الإنشاء والتدبير.

ثالثا: معجزات الأنبياء والرسل: إن معجزات الأنبياء والمرسلين آيات دالة على الربوبية، قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٧]، وقال تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٩] إلى غير ذلك من آيات الأنبياء وبراهينهم ومعجزاتهم، وتكون دلالة آيات الأنبياء على الربوبية من وجوه، وهي كما يلي:

١- إن معجزات الرسل تأتي على خلاف ما أجرى الله العادة به وعهده الخلق عليها، ولا يستطيع أن يجريها على خلاف المعتاد إلا الذي أنشأها، فمعجزات الرسل لا تكون إلا من عند الله، ولا يستطيعها إلا الله.

٢- الرب تعالى له قدرة مطلقة، ولا تحد قدرته سنة لا يستطيع أن يفعل إلا على وفقها، بل هو يجري السنن حسب إرادته وحكمته، وكذلك يخلفها حسب إرادته وحكمته فهو على كل شيء قدير وفعال لما يريد، وبه احتج إبراهيم عليه السلام على من كان يدعي الربوبية، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

٣- المعجزات يجريها الله تعالى لإظهار صدق الرسل، فإن كل من يرسل رسولا إلى قوم لا بد من أن يرفق معه علامة تدل المرسَل إليهم على صدقه وصحة رسالته، ولا تكون هذه العلامة دالة على ذلك حتى تكون من خصائص المرسِل يعرف المرسَل إليه أنها لا تكون لغير المرسِل قط.

رابعا: من المقاييس العقلية: المخلوقات لا يمكن أن تخلق نفسها بنفسها ولا يمكن أن توجد وتحدث من غير خالق ولا محدث، بل لا بد لها من خالق خلفها وأوجدها، هذا أمر واضح لكل عاقل، وقد نبه الله تعالى على ذلك فقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[الطور: ٣٥-٣٦]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وذلك أن هذا تقسيم حاصر ذكره الله بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه المقدمات معلومة بالضرورة لا يمكن جحدها يقول: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾؛ أي: من غير خالق خلقهم؛ أم هم خلقوا أنفسهم، وهم يعلمون أن كلا النقيضين باطل؛ فتعين أن لهم خالقا خلقهم سبحانه وتعالى)[1].

وقال ابن القيم: (فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأفصح عبارة يقول تعالى: هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا؛ فهل خلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا من المحال الممتنع

(١) مجموع الفتاوى (٣٥٩/٥).

عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع، ومخلوق من غير خالق، ولو مر رجل بأرض قفر لا بناء فيها، ثم مر بها فرأى فيها بنيانا وقصورا وعمارات محكمة لم يتخالجه شك ولا ريب أن صانعا صنعها وبانيا بناها. ثم قال: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾، وهذا أيضا من المستحيل أن يكون العبد موجدا خالقا لنفسه؛ فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة، ولا أصبعا ولا ظفرا ولا شعرة كيف يكون خالقا لنفسه في حال عدمه)[1].

فالمخلوق لا بد له من خالق، والأثر لا بد له من مؤثر، والمحدَث لا بد له من محدِث، والموجَد لا بد له من موجِد، والمصنوع لا بد من صانع، والمفعول لا بد له من فاعل.

- قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[المؤمنون: ٩١]

قال ابن القيم بعد ذكر هذه الآية: (فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقا فاعلا يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه؛ بل إن قدر على قهره وتفرده بالإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه، وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا عن بعضهم بعضا بممالكهم.

إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه فلا بد من أحد أمور ثلاثة:

١- إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه

٢- وإما أن يعلو بعضهم على بعض

٣- وإما أن يكون كلهم تحت قهر إله واحد وملك واحد، يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم عليه، ولا يمتنعون من حكمه عليهم، فيكون وحده هو الإله الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون.

وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إله غيره، كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا رب له غيره فذاك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلهية فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان يستحيل أن يكون له إلهان معبودان)[2].

فلو أثبتنا للعالم خالقين; لكان كل خالق يريد أن ينفرد بما خلق، ويستقل به كعادة الملوك; إذ لا يرضى أن يشاركه أحد.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٢/٤٩٣).

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٢/٤٦٣-٤٦٤).

وإذا استقل به; فإنه يريد أيضا أمرا آخر، وهو أن يكون السلطان له لا يشاركه فيه أحد.

وحينئذ، إذا أرادا السلطان؛ فإما أن يعجز كل واحد منهما عن الآخر، أو يسيطر أحدهما على الآخر; فإن سيطر أحدهما على الآخر ثبتت الربوبية له، وإن عجز كل منهما عن الآخر زالت الربوبية منهما جميعا; لأن العاجز لا يصلح أن يكون ربا[1].

توضيحه بمثال: لو فرض للعالم صانعان، فعند تصور اختلافهما مثلا: أحدهما يريد تحريك جسم والآخر تسكينه، أو أحدهما يريد إحياء شخص والآخر إماتته، فإما أن يحصل مرادهما أو مراد أحدهما أو لا يحصل مراد أحد منهما، والأول ممتنع لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث أيضا ممتنع لأنه يستلزم خلو الجسم من الحركة والسكون في وقت واحد وهو ممتنع، وأيضا يستلزم عجزهما والعاجز لا يكون إلها، وإن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان هذا هو الإله القادر والآخر عاجزا لا يصلح للإلهية، واتساق هذا العالم وانتظامه وجريانه على نظام محكم لا يضطرب ولا يختلف دليل على أن مدبره والمتصرف فيه واحد[2].

وهذه قضايا بديهية جلية، يشترك في العلم بها جميع العقلاء، وهي من أعظم القضايا العقلية؛ فمن ارتاب فيها أو شك في دلالتها فقد برهن على اختلال عقله وضلاله.

ثالثا: معنى الشرك في الربوبية وأهم مظاهره:

أ- المراد بالشرك في الربوبية: جعل شريك مع الله تعالى في ربوبيته، مثل: اعتقاد وجود خالق مع الله تعالى أو الاعتقاد بأن لأحد من الخلق القدرة على التصرف في الكون أو القدرة المطلقة على النفع والضر أو أنه يعلم الغيب المطلق وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء أو أنه يشفي من الأمراض أو يحيي ويميت أو يرزق ونحو ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالشرك في الربوبية؛ فإن الرب سبحانه هو المالك المدبر، المعطي المانع، الضار النافع، الخافض الرافع، المعز المذل، فمن شهد أن المعطي أو المانع أو الضار أو النافع أو المعز أو المذل غيره، فقد أشرك بربوبيته)[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والشرك نوعان: أحدهما: شرك في الربوبية، والثاني شرك في الإلهية، فأما الأول: فهو إثبات **فاعل مستقل غير الله** كمن يجعل الحيوان مستقلا بإحداث فعله ويجعل الكواكب أو الأجسام الطبيعية أو العقول أو النفوس أو الملائكة أو غير ذلك مستقلا بشيء من الإحداث فهؤلاء حقيقة

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد (١/١٣-١٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/١٧٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٩٢).

قولهم تعطيل الحوادث عن الفاعل...)[1].

وبعبارة مختصرة: من أشرك مع الله غيره في خصائص الربوبية أو أنكر شيئاً منها، أو شبهه بغيره، أو شبه غيره به، يعد مشركاً بالله، سواء كان في ذاته, أو أفعاله, أو أوصافه.

وهذا الشرك ينقسم إلى كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفورا.

ب– من أهم مظاهر الشرك في الربوبية:

أولا: بيان تلازم أنواع التوحيد: جميع أنواع التوحيد متلازمة، وينافيها كلها ما ينافي نوعا منها، والشرك في واحد منها يقتضي الشرك في بقية أنواعها، قال الشيخ حافظ حكمي: (هل جميع أنواع التوحيد متلازمة فينافيها كلها ما ينافي نوعا منها؟

الجواب: نعم هي متلازمة، فمن أشرك في نوع منها فهو مشرك في البقية، مثال ذلك دعاء غير الله وسؤاله ما لا يقدر عليه إلا الله، فدعاؤه إياه عبادة بل مخ العبادة، صرفها لغير الله من دون الله، فهذا شرك في الإلهية، وسؤاله إياه تلك الحاجة من جلب خير أو دفع شر معتقدا أنه قادر على قضاء ذلك، هذا شرك في الربوبية حيث اعتقد أنه متصرف مع الله في ملكوته، ثم إنه لم يدعه هذا الدعاء من دون الله إلا مع اعتقاده أنه يسمعه على البعد والقرب في أي وقت كان وفي أي مكان ويصرحون بذلك، وهو شرك في الأسماء والصفات حيث أثبت له سمعا محيطا بجميع المسموعات، لا يحجبه قرب ولا بعد، فاستلزم هذا الشرك في الإلهية الشرك في الربوبية والأسماء والصفات)[2]. فالشرك في نوع من أنواع التوحيد يقتضي الشرك في بقية أنواعه، وذلك لما بينها من العلاقة القوية والتلازم والانسجام وعدم الانفكاك، فيما يلي ذكر بعض مظاهر الشرك في الربوبية على وجه الخصوص:

ثانيا: ذكر نماذج لأهم مظاهر الشرك في الربوبية:

أولا: إنكار ربوبية الله تعالى لخلقه ونسبتها إلى غيره سبحانه سواء كان هذا الإنكار صريحا أو مبطنا:

وهو الإلحاد، ويسمى شرك التعطيل؛ أي: تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه[3]:

۞– يدخل فيه شرك فرعون الذي أخبر الله عنه بقوله: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[الشعراء: ٢٣]

۞– ويدخل فيه شرك الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأبديته، والذين يسندون جميع الحوادث ووجود المخلوقات كلها إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها يسمونها العقول والنفوس.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٧/٣٩٠).

(٢) أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة (ص: ٩٢).

(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد ر(ص: ٢٦).

۞- ومنه شرك غلاة المتصوفة القائلين بوحدة الوجود كابن عربي وابن سبعين وابن الفارض ونحوهم من ملاحدة المتصوفة.

۞- ومنه شرك من عطل أسماء الرب وأوصافه كلها من غلاة الجهمية والقرامطة وغيرهم.

۞- ويدخل فيه الشيوعية والاشتراكية والقومية وغيرها من الاتجاهات الهدامة القائمة على الإلحاد والزندقة.

ثانيا: القول بأكثر من خالقٍ وإلهٍ وربٍّ لهذا الكون: وهذا لا ينكرون الخالق، لا صريحا ولا مبطنا؛ بل هم يثبتون الخالق ويقولون بوجوده؛ ولكنهم يقولون بأكثر من خالق في هذا الكون، ويقولون بتعدد الآلهة والأرباب، وهذه هي حقيقة قولهم، فهم جميعا واقعون في الشرك في الربوبية، وفيما يلي ذكر مقالتهم وبيان قائليها باختصار:

۞- **قول المجوس:** الذين يقولون بالأصلين: النور والظلمة، وهم يضيفون كل أنواع الخير إلى النور وجميع أنواع الشر إلى الظلمة، فصار عندهم خالقان، ولكن النور عندهم أصلي قديم والظلمة محدثة فليس الاثنان عندهم في درجة واحدة بل أحدهما أكمل من الآخر فالناقص لا يكون إلها وربا.

۞- **قول الثنوية:** (أصحاب الاثنين الأزليين): الذين يزعمون أن النور والظلمة كليهما أزليان قديمان، ولكنهم قالوا بتماثلهما في القدم فقط، ولا يقولون بتماثلهما في الصفات والأفعال، ويقولون باختلافهما في الجوهر والطبع والفعل وغيرها، ويفضلون النور على الظلمة.

۞- **قول المانوية:** (أصحاب ماني بن فاتك)، وكانوا بعد عصر المسيح عليه السلام، وهم أيضا يقولون بأزلية النور والظلمة، ويقولون أن العالم مصنوع من أصلين قديمين، ولكن يقولون باختلافهما في النفس والصورة والطبع والفعل والتدير، يقولون: إن الظلمة لا تخلق الخير، وإنما تخلق الشر.

۞- **قول النصارى بألوهية عيسى عليه السلام وقولهم بالتثليث:** النصارى يقولون: إن الله هو المسيح بن مريم، ويقولون: بالأب والابن وروح القدس، ويقصدون بالأب الله تعالى، وبالابن عيسى عليه السلام، وبروح القدس جبرئيل عليه السلام، والغريب أنهم بقولون بأنه واحد بالذات وثلاثة بالأقانيم، وهذه الدعوى في الحقيقة غير مقبولة وغير معقولة، فإنها ثلاثة ذوات فكيف تكون واحدة؟ قال تعالى عنهم: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[المائدة: ٧٢ – ٧٣].

۞- **قول القدرية:** الذين يزعمون أن أفعال العباد غير مخلوقة لله تعالى، وأنها خارجة عن عموم مشيئة الله تعالى وقدرته وخلقه لها، ويزعمون أن العباد هم الذين يخلقون أفعال أنفسهم، وهذا شرك واضح في الربوبية، فهم جعلوا الناس كلهم خالقين لأفعالهم، فكثر عندهم الخالقون؛ بل صار كل واحد من الناس خالقا لفعله حسب زعمهم.

۞- **دعوى التأليه لغير الله عند الفرق الباطنية:** دعوى السبائية ألوهية علي بن أبي طالب ﷺ[١]، ودعوى الإسماعلية ألوهية الإمام الإسماعيلي المعز لدين الله وغيره[٢]، ودعوى النصيرية ألوهية علي بن أبي طالب ﷺ[٣]، ودعوى الدروز ألوهية الخليفة الفاطمي منصور بن العزيز بالله بن المعز لدين الله[٤]، ومنصور هذا مشهور بلقبه: الحاكم بأمر الله، ودعوى أئمة البهرة وقادتهم الألوهية لأنفسهم[٥]، ودعوى الآغانية ألوهية أئمتهم[٦]، وودعوى البهائية ألوهية مؤسس البهائية الميرزا حسين علي المازندراني، الملقب ببهاء الله[٧]، فهؤلاء كلهم يدعون الألوهية لغير الله تعالى، ويعتقدون فيهم كثيرا من خصائص الرب جل وعلا.

ثالثا: الاعتقاد بخصائص الربوبية في بعض المخلوقات دون دعوى الإلهية والخالقية لهم: هؤلاء يقولون بوجود الرب ويقولون بإفراده وتوحيده، ولا ينكرون ربوبية الله للخلق ولكنهم يصفون بعض المخلوقات بخصائص الربوبية، وفيما يلي بيان ذلك:

۞- **إسناد مشركي الصابئة وغيرهم تدبير هذا العالم إلى الكواكب العلويات:** ومن هذا شرك كثير ممن يسند تدبير هذا العالم إلى الكواكب العلويات من الشمس والقمر والنجوم والأفلاك والأنواء وغيرها ، وكذلك الذين يرون شيئا منها مؤثرا تأثيرا تاما، ولو في بعض شؤونه مثل نزول المطر وغيره، وهو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم[٨].

۞- **إسناد الشيعة الاثني عشرية كثيرا من الحوادث الكونية إلى أئمتهم ووصفهم إياهم بخصائص الربوبية:** الشيعة الاثنا عشرية يسندون كثيرا من الحوادث الكونية إلى أئمتهم، ويصفونهم بالأفعال الإلهية والأعمال الربانية، ويزعمون أن بقاء السماوات والأرض بأئمتهم، وأن الدنيا لو خلت من

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٣٠/١).

(٢) انظر: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي للدكتور محمد الخطيب (ص: ٨٨).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٥٥٤/٢٨و١٤٦/٣٥-١٤٧)، والحركات الباطنية في العالم الإسلامي (ص: ٣٤١-٣٥٤).

(٤) انظر: طائفة الدروز تاريخها وعقائدها للدكتور محمد كامل حسين (ص: ٣١ و٤٠-٤٩و ١٠١-١٠٧).

(٥) انظر: الإسماعيلية المعاصرة لمحمد بن أحمد الجوير(ص: ٧٨-٨٠).

(٦) انظر: الإسماعيلية المعاصرة (ص: ٨٠).

(٧) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام (٦٧٢/٢-٦٧٣).

(٨) انظر: تيسير العزيز الحميد ر(ص: ٢٦).

الإمام ساعة واحدة لهاجت الأرض وماجت وساخت ووقعت السماء وهلك كل من تحت أديم السماء وفوق الأرض. وأن أئمتهم هم الذين يحرسون العباد ويحفظون البلاد، وأن المخلوقات كلها في حفظهم وحراستهم وتحت عنايتهم ورعايتهم، وأن الدنيا والآخرة كلها للإمام، وأنه مالك لهما، وأنه يعطي من يشاء منها ويمنع من يشاء، وأن كل شيء في هذا الكون خاضع لولايتهم، وأنه لا تخرج ذرة من ذرات هذا الكون العظيم من ولايتهم وسيطرتهم وحدود سلطانهم وقبضتهم، وأنهم يعلمون الغيب، وأنهم يعلمون الخفايا والبلايا والمنايا، وأنهم لا يخفى عليهم شيء من مقادير الخطوب وأسرار الغيوب، وأنهم يعلمون ما يكون قبل كونه، وأنهم يعلمون ما في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وأنهم يعلمون ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وأن لديهم مفاتيح الغيب، ويزعمون أنه تجري فيهم صفات الربوبية بل يزعمون أن الرب هو الإمام ولذلك يفسرون الرب بالإمام، ويفسرون عبادة الرب والإتيان بتوحيده وعدم الشرك به إلى الاعتقاد بولاية علي والأئمة وعدم الإشراك فيها، ولذلك يستغيثون بأئمتهم ويدعونهم لكشف الكربات ودفع المعضلات وتحقيق الرغبات[1].

۞- **اعتقاد المتصوفة بالغوث والقطب والأبدال والأوتاد وادعاؤهم القيام بحفظ هذا العالم والتصرف في شؤونه:** يزعم المتصوفة أن القطب -ويقال له: الغوث- يكون جامعا لجميع معاني الأسماء الإلهية، ويكون محل المظاهر الإلهية، ويكون عارفا بأسرار القدر، ولا يخلو منه زمان، ويكون تصريف الكون بيده، فلا يصل إلى الخلق شيء كائنا ما كان إلا بحكم القطب، فهم جعلوا القطب مساويا لله تعالى في أسمائه وصفاته وجميع تصرفاته في الكون، وجعلوه نائبا عنه في هذه الدنيا[2].

ويزعم المتصوفة أن هناك سبعة رجال يقال لهم الأبدال، يحفظون القارات السبعة التي يعيش فيها هذا العالم، وكل بدل منهم مكلف بإقليم يحفظه من كل سوء ويحميه. ويزعمون أن البدل إذا سافر من موضعه ترك جسدا على صورته، يحيى بحياته ويظهر بأعمال أصله فلا يعرف أحد عن غيابه ولا يشعر بفقدانه من موضعه[3].

ويزعم المتصوفة أن هناك أربعة رجال يقال لهم الأوتاد، وهم الذين يحفظون هذا الكون الذي نعيش فيه، وكل واحد منهم على جهة من جهاته الأربع، وأن كل واحد منهم يشفع يوم القيامة لمن دخل عليه إبليس من جهته[4].

---

(١) أصول الكافي (ك: الحجة، ب: الأرض لا تخلو من حجة ١/١٢٦، ب: أن الأئمة أركان الأرض ١/١٤١، ب: أن الأئمة إذا شاءوا أن يعلموا علموا ١/١٨٦، ب: أن الأئمة يعلمون متى يموتون وأنهم لا يموتون إلا باختيارهم ١/١٨٦، ب: أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم الشيء ١/١٨٨، ب: أن الأرض كلها للإمام ١/٣٠٧) طبعة دار المرتضى، بيروت.

(٢) انظر: الفتوحات المكية لابن عربي (٢/٧٩و٨٢ و٣/٢٤٤)، و جواهر المعاني (٢/٨٠).

(٣) انظر: الفتوحات المكية لابن عربي (٢/٣٧٦)، ومعجم المصطلحات الصوفية للدكتور عبد المنعم الحفني (ص: ٩٢).

(٤)الفتوحات المكية لابن عربي (٢/٤٠١)، ومعجم مصطلحات الصوفية (ص: ٢٤).

۞- **دعوى المتصوفة اجتماع الأولياء للنظر في قضاء الله تعالى وقدره، وتصرفهم في هذا الكون:** يزعم الصوفية أن جميع الأولياء في مشارق الأرض ومغاربها الأحياء منهم والأموات كلهم يجتمعون بأرواحهم كل ليلة في الثلث الأخير منها في غار حراء بمكة المكرمة، وأنهم يتباحثون في هذا الاجتماع عن قضاء الله تعالى في اليوم التالي والليلة التي تليه؛ لأن أصحاب هذا الديوان لهم حق التصرف في العوالم كلها العلوية والسفلية، فهم يتصرفون فيه وفي أهله وفي خواطرهم وما تهجس به ضمائرهم، فلا يهجس في خاطر واحد منهم شيء في هذا الكون إلا بإذن أهل هذا الديوان. ويزعمون أن في ليلة القدر يكون اجتماع سنوي كبير يحضره الملائكة المقربون والأنبياء السابقون والنبي ﷺ وأمهات المؤمنين وكبار الصحابة وغيرهم، وتكون الاجتماعات كلها باللغة السريانية، وتارة يتكلمون فيها بالعربية لحضور النبي ﷺ تأدبا معه[1].

فالمتصوفة يزعمون أن الأولياء لهم حق النظر في القضاء والقدر، وأنهم يملكون التصرف في هذا الكون، وأنهم يحفظون هذا العالم ويدبرون شؤونه، وهذا كله من الشرك الربوبية[2]. قال الشيخ ابن باز: (ومن العقائد المضادة للحق ما يعتقده بعض المتصوفة من أن بعض من يسمونهم بالأولياء يشاركون الله في التدبير, ويتصرفون في شئون العالم, ويسمونهم بالأقطاب والأوتاد والأغواث, وغير ذلك من الأسماء التي اخترعوها لآلهتهم, وهذا من أقبح الشرك في الربوبية)[3].

۞- **الاعتقاد في الحلقة والخيط والتمائم وغيرها بأنها تؤثر بنفسها،** وتدفع الضرر بنفسها، وتدفع المرض بنفسها، وتدفع العين بنفسها أو ترفع المرض بنفسها أو ترفع العين بنفسها، فمن اعتقد بأنها ليست أسبابا؛ بل هي مؤثرة بنفسها؛ فقد جعل التصرف في هذا الكون لأشياء مع الله تعالى، وهذا من أفراد الربوبية فيكون شركا في الربوبية[4]، لأن الله عز وجل وحده هو المستقل بالتأثير، وليس شيء من المخلوقات مستقل بالتأثير، ولذلك إثبات استقلالية التأثير لشيء من المخلوقات ينافي خصائص الربوبية، ويعد شركا في الربوبية[5].

۞- **إسناد النعمة إلى غير الله تعالى:** النعم كلها من الله تعالى، قال تعالى: ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ** ﴾ [النحل: ٥٣]، فهو المنعم المتفضل بها على العباد، وإسنادهم لها إلى غيره سبحانه وتعالى شرك في الربوبية، وهذا واقع بكثرة، قال تعالى: ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً** ﴾ [فصلت: ٥٠]

---

(١) انظر للتفصيل: الصوفية وطرقها (ص: ٢٣-٢٥) وهذه هي الصوفية (ص: ١٢٧-١٣١).

(٢) انظر: التمهيد لشرح كتاب التوحيد (ص: ٢٤١-٢٤٢).

(٣) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة (٢٦/١).

(٤) انظر: التمهيد لشرح كتاب التوحيد (ص: ٩٤-٩٥).

(٥) انظر: جامع الرسائل (١٤٦/١)، وشرح العقيدة الطحاوية (٥٢٢/٢-٥٢٣).

وعن زيد بن خالد الجهني ﷺ أنه قال: صلى لنا النبي ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»[1]. فهذا الحديث النبوي يدل على أن نزول المطر يكون بفضل من الله ورحمته، ومن يعتقد في نزوله تدخلا وتأثيرا لغير الله تعالى ويسندها إلى غير الله تعالى، فهو كافر بالله تعالى ومؤمن بذلك الغير.

ومن إسناد النعمة إلى غير منعمها الحقيقي **تسمية الولد معبدا لغير الله تعالى:** قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ: (التعبيد لغير الله محرم؛ لأن فيه إضافة النعم لغير الله، وفيه أيضا إساءة أدب مع الربوبية والإلهية، فإن تعبيد الناس لغير الله جل وعلا غلط من جهة المعنى، وأيضا فيه نوع هضم لمقام الربوبية، فلذلك حرم في شريعة الإسلام هذه التسمية، بل وفي شرائع الأنبياء جميعا)[2]؛ فالنعم كلها من الله تعالى وإسنادها إلى غير الله تعالى شرك في الربوبية.

۞ **القوانين الوضعية المخالفة لشرع الله تعالى ومتابعة الكبراء في مخالفة الشريعة:** قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التحريم: ١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١]

عن عدي بن حاتم ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يا عدي! اطرح عنك هذا الوثن»، وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، قال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه»[3].

قال الحافظ ابن كثير: (وهكذا قال حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وغيرهما في تفسير: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

---

(١) أخرجه خ (ك: الأذان، ب: يستقبل الإمام الناس إذا سلم ح: ٨٤٦)، وم (الإيمان، ب: بيان كفر من قال: مُطِرْنا بالنوء ح: ٧١).

(٢) التمهيد لشرح كتاب التوحيد (ص: ٥٠٠).

(٣) أخرجه الترمذي (ك: تفسير القرآن، سورة التوبة، ح: ٣٠٩٥)، واللفظ له، وابن جرير الطبري في تفسيره (١١/٤١٧-٤١٨)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٢ح: ٢١٨)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/٢٣٣-٢٣٤ ح: ٣٦١)، وفي السنن الكبرى (ك: آداب القاضي، ١٠/١١٦)، وقد نقل المباركفوري في تحفة الأحوذي (٨/٤٩٤) عن الترمذي تحسينه للحديث وقوله: (هذا حديث حسن غريب)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة النبوية (١/٤٨): (وقد ثبت في الترمذي وغيره)، وحسنه في مجموع الفتاوى (٧/٦٧)، وكذلك حسنه الأعظمي في الجامع الكامل (١٠/٣٧٢) لما له من المتابعة والشواهد.

وقال السدي: استنصحوا الرجال، وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾، أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله حل، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ. ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه)[1]، وقال أيضا: (وقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾[الأنعام: ١٢١]؛ أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١])[2]

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (من الشرك بالربوبية أن يتخذ الإنسان أندادا يشرعون تشريعات تخالف شرع الله، فيوافقهم فيها مع علمه بمخالفتها للشريعة؛ ولهذا ترجم الإمام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله – ترجم على ذلك في كتاب التوحيد بقوله: "باب من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله فقد اتخذهم أربابا"، فإذا وجد قوم يتبعون القوانين الوضعية المخالفة للشريعة الإسلامية مع علمهم بمخالفتها للشريعة فإننا نقول: هؤلاء قوم مشركون لأنهم اتخذوا حاكما يحكم بين الخلق غير الله عز وجل، ومن المعلوم أن الحكم بين الخلق من مقتضيات الربوبية فقد اتخذوهم أربابا من دون الله.. متابعة الكبراء في مخالفة شريعة الله من الشرك بالربوبية؛ لأن الحكم بين الناس من مقتضيات الربوبية والسلطان)[3].

وقال الشيخ صالح الفوزان: (وقد فسر النبي ﷺ فيه اتخاذ الأحبار والرهبان أربابا من دون الله بأنه ليس معناه الركوع والسجود لهم، وإنما معناه طاعتهم في تغيير أحكام الله وتبديل شريعته بتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال، وأن ذلك يعتبر عبادة لهم من دون الله؛ حيث نصبوا أنفسهم شركاء لله في التشريع، فمن أطاعهم في ذلك؛ فقد اتخذهم شركاء لله في التشريع والتحليل والتحريم، وهذا من الشرك الأكبر...ومن هذا طاعة الحكام والرؤساء في تحكيم القوانين الوضعية المخالفة للأحكام الشرعية في تحليل الحرام؛ كإباحة الربا والزنى وشرب الخمر ومساواة المرأة للرجل في الميراث وإباحة السفور والاختلاط، أو تحريم الحلال؛ كمنع تعدد الزوجات، وما أشبه ذلك من تغيير أحكام الله واستبدالها بالقوانين الشيطانية؛ فمن وافقهم على ذلك ورضي به واستحسنه، فهو مشرك كافر والعياذ بالله)[4].

فمن أثبت حق التشريع والتحليل والتحريم لغير الله تعالى فقد أثبت له الند ووقع في الشرك في الربوبية،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/١٣٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٣٢٩).

(٣) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (٧/ ٢٨٥-٢٨٦).

(٤) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (ص: ٦٩).

فإن التشريع والتحليل والتحريم من مقتضيات الربوبية.

الحاصل: إنكار ربوبية الله تعالى وتعطيل الصانع من مصنوعه ومخلوقه، والقول بتعدد الخالق وكثرة الآلهة والأرباب ، ووصف شيء من المخلوقات بشيء من خصائص الربوبية كالخلق والرزق والإحياء والإمامة وعلم الغيب والتصرف في الكون وإجابة الدعاء والشفاء من الأمراض وهبة الأولاد وإنزال المطر وإثمار الشجر وغيرها من خصائص الربوبية يعد شركا في الربوبية، ويكون مظهرا من مظاهر الشرك في هذا الباب.

وفي الأخير أختم هذا المسألة بكلام نفيس لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهو كلام مختصر ولكنه مفيد ومشتمل على بيان عدة مظاهر من مظاهر الشرك في الربوبية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فهذان الأصلان: عموم خلقه وربوبيته، وعموم إحسانه وحكمته، أصلان عظيمان، وإن كان من الناس من يكفر ببعض الأول كالقدرية الذين يخرجون أفعال العباد عن خلقه، ويضيفونها إلى محض فعل ذي الاختيار أو الطبيعة، الذين يقطعون إضافة الفعل إلى الله سبحانه ويضيفونه إما إلى الطبع أو إلى جسم فيه طبع أو إلى فلك أو إلى نفس أو غير ذلك مما هو من مخلوقاته العاجزة عن إقامة نفسها فهي عن إقامة غيرها أعجز. ومن الناس من يجحد بعض الثاني أو يعرض عنه متوهما خلو شيء من مخلوقاته عن إحسان خلقه وإتقانه وعن حكمته ويظن قصور رحمته. وعجزها من القدرية الإبليسية أو المجوسية وغيرهم)[1].

رابعا: مفهوم توحيد الأسماء والصفات:

أ- تعريف توحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، الواردة في القرآن والسنة، والإيمان بمعانيها وأحكامها[2].

ب- شرح التعريف: إفراد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى: الإفراد بمعنى التوحيد، أي: نثبت أسماء الله تعالى وصفاته على وجه لا يشاركه ولا يساويه فيها أحد من المخلوقين، ونفرد الله وحده بها كما يليق بجلاله وعظمته، مثلا من أسماء الله تعالى: الرحمن، السميع، البصير، العليم، ومن صفات الله تعالى: الرحمة، السمع، البصر، العلم، والأسماء المذكورة متضمنة لهذه الصفات ودالة عليها، والمخلوق وإن كانوا موصوفين بصفة الرحمة ولكن لا تصل رحمة أحد منهم ولا جميعهم إلى رحمة الله تعالى بل ولا تقاربها فضلا أن تقاربها وتساويها، وهكذا سائر الأسماء والصفات. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ – ٤]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

الواردة في القرآن والسنة: فلا نسمي أو نصف الله بما لم يسم أو يصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، قال الإمام أحمد: (لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، لا نتجاوز

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/٤٠٠).

(٢) معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات (ص: ٢٩).

القرآن والسنة)[1]. وقال ابن عبد البر: (ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصا في كتاب الله أو صح عن رسول الله ﷺ أو أجمعت عليه الأمة، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلم له، ولا يناظر فيه)[2].

فالعمدة في هذا الباب الكتاب والسنة، والإجماع لا يخرج عن ذلك، ولذلك لو قال شخص: لله سمع بلا أذنين، وقال آخر: بأذنين. لحكمنا بخطأ الاثنين؛ لأنه لم يأت ذكر الأذنين في النصوص لا إثباتا ولا نفيا، والحق أن يقال: لله سمع يليق بجلاله وعظمته، كما جاءت بذلك النصوص، وقد نهانا الله أن نتكلم بغير علم، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وبالتالي لا يجوز الإثبات أو النفي إلا بالنص.

ومعنى الإيمان بمعانيها وأحكامها: أن هذه الأسماء والصفات لها معاني وأحكام وآثار ومقتضيات، فيجب إثباتها والعمل بمقتضاها.

مثلا: السميع اسم من أسماء الله تعالى، فيجب:

١-إثبات اسم السميع باعتباره اسما من أسماء الله الحسنى

٢-إثبات السمع صفة له سبحانه.

٣-إثبات الحكم، أي: الفعل، وهو أن الله تعالى يسمع حتى السر والنجوى

٤-إثبات المقتضى والأثر وهو وجوب خشية الله تعالى ومراقبته والخوف منه والحياء منه، ونداؤه ودعاؤه واللجوء إليه ونحو ذلك[3].

ج- بيان معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته: إنهم يؤمنون بما وردت به نصوص القرآن والسنة الصحيحة إثباتا ونفيا، فهم بذلك:

١-يسمون الله بما سمى به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، لا يزيدون على ذلك، ولا ينقصون منه.

٢-ويثبتون لله عز وجل ويصفونه بما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

٣-ينفون عن الله ما نفاه عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ مع اعتقاد أن الله موصوف بكمال ضد ذلك الأمر المنفي.

فأهل السنة سلكوا في هذا الباب منهج القرآن والسنة الصحيحة، فكل اسم أو صفة لله سبحانه وتعالى وردت في الكتاب والسنة الصحيحة فهي من قبيل الإثبات، ويجب إثباتها لله عز وجل كما يليق بجلاله وعظمته، وأما النفي فهو أن ينفى عن الله عز وجل كل ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص مع وجوب اعتقاد ثبوت كمال ضد ذلك المنفي.

---

(١) الفتوى الحموية (ص: ٦١).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (ص: ٩٦).

(٣) انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات (ص: ٢٩-٣٦).

د- الأسس التي قام عليها معتقد أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات: ارتكز معتقد أهل السنة والجماعة في باب أسماء الله وصفاته على ثلاثة أسس رئيسة، وهي:

١- تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبه شيء من صفاته شيئا من صفات المخلوقين، وهذا الأساس فيه تمييز لعقيدة أهل السنة عن عقيدة المشبهة، وعن عقيدة المعطلة.

٢- إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، ونفي ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب وما ينافي كماله المقدس.

٣- قطع الطمع عن إدراك كيفية اتصاف الله تعالى بتلك الصفات، وفيه أيضا تمييز لعقيدة أهل السنة والجماعة عن عقيدة المشبهة.

فأهل السنة والجماعة لا يتعرضون لبيان كيفية اتصاف الباري جل وعلا بتلك الصفات بل هم لا يطمعون في إدراكها ومعرفتها أصلا، فضلا عن بيانها وتوضيحها، وذلك لما يلي:

١- لم يكلف الله العباد معرفة كيفية صفاته، ولم يتعبدهم بها، وإنما طلب منهم الإيمان بما أخبر به.

٢- لم يأت في نصوص الكتاب والسنة بيان الكيفية، وإنما فيها بيان ثبوت تلك الصفات لله جل وعلا.

٣- قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥] وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾[البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] فالإنسان علمه قليل، وكيفية صفات الله أجل وأعظم من أن يعرفها الإنسان ويحيط بها بعلمه القليل، ثم إن الله عز وجل قد نهانا عن الدخول فيما لا علم لنا فيه، وحرم القول على الله بلا علم أشد تحريم. فيجب الكف عن التكييف تقديرا بالجنان، أو تقريرا باللسان أو تحريرا بالبنان.

٤- والشيء لا تعرف كيفية صفاته إلا بعد العلم بكيفية ذاته، أو العلم بنظيره المساوي له، أو بالخبر الصادق عنه. وكل هذه الطرق منتفية في كيفية صفات الله عز وجل، فوجب بطلان تكييفها.

٥- وأي كيفية تقدرها لصفات الله تعالى في ذهنك، فالله أعظم وأجل من ذلك، وأي كيفية تقدرها لصفات الله تعالى في ذهنك، فإنك ستكون كاذبا فيها، لأنه لا علم لك بذلك، فتكون من القائلين على الله بلا علم وهو محرم أشد تحريم.

ولذلك صار قطع الطمع عن إدراك كيفية صفات الباري من أسس العقيدة في باب الأسماء والصفات عند أهل السنة والجماعة.

خامسا: أنواع الأدلة على توحيد الأسماء والصفات:

الأدلة الدالة على توحيد الأسماء والصفات بشكل عام يمكن تقسيمها إلى قسمين عامين: الأدلة الفطرية

والأدلة الخبرية[1]، وفيما يلي بيان ذلك باختصار:

الأول: الأدلة الفطرية: وهي التي تحصلها الفطرة بنفسها، ولا يلزم أن تتلقاها من الخبر، ولكنها تحتاج إلى الخبر للمعرفة التفصيلية، لأن دلالتها لا تكون تفصيلية، وإنما تكون عامة مجملة مثل دلالتها على وجود الله وربوبيته، وعلوه وكونه في السماء، واتصافه بصفات الكمال ولكن من غير تفصيل فيها، وفيما بيان ذلك:

أ- دلالة الفطرة على وجود الله وربوبيته: الفطرة تدل بالضرورة على وجود الله تعالى وربوبيته، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم: ٩ – ١٠]، هذا الحوار الذي جرى بين الرسل والمشركين يدل على دلالة الفطرة على وجود الله تعالى ومعرفته وربوبيته من وجوه، وبيانها فيما يلي:

١- المشركون لم يذكروا الشك في وجود الله وربوبيته تعالى ومعرفتهم له سبحانه، وإنما ذكروا الشك فيما يدعو إليه الرسل من إفراد الله وحده بالعبادة، ولذلك قالوا: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾.

٢- الرسل لم يزيدوا على نفي الشك عن الله عز وجل لإقرار ما يدعون إليه من لوازم ذلك وواجبه، واحتجوا عليهم بما يقوم في فطرهم ضرورة من العلم بوجود الله تعالى وربوبيته من الخلق والملك والتدبير، ولذلك قالوا: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

٣- المشركون لما سمعوا هذا الاستدلال لم يعترضوا عليه وانقطعوا عن الجواب، واستسلموا له، ولذلك عدلوا إلى الحديث عن أمر آخر فقالوا: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

فهذه الوجوه كلها تدل على دلالة الفطرة على وجود الله وربوبيته ومعرفة الخلق له سبحانه وتعالى، ومثل هذا في كتاب الله تعالى كثير[2].

ب- دلالة الفطرة على علو الله تعالى: الفطرة تدل على علو الله تعالى، ولذلك تتوجه الخلائق بقلوبهم وأيديهم وأبصارهم إلى السماء، فهم يعرفون بفطرهم التي فطرهم الله عليها بأن الله تعالى في السماء، ويدل على ذلك ما جاء عن معاوية بن الحكم السلمي ﷺ قال: كانت لي جارية ترعى غنما لي قبل

---

(١) انظر: أدلة صفات الله ووجوه دلالاتها وأحكامها (ص: ٢٨-٢٩).

(٢) انظر: أدلة صفات الله ووجوه دلالاتها وأحكامها (ص: ٣٦-٣٧).

أحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم، فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بنى آدم آسف كما يأسفون، لكنى صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ فعظَّم ذلك علي، قلت: يا رسول الله! أفلا أعتقها؟ قال: «ائتني بها». فأتيته بها، فقال لها: «أين الله؟». قالت: في السماء. قال: «من أنا؟». قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وإنما أخبرت عن الفطرة التي فطرها الله تعالى عليها، وأقرها النبي ﷺ على ذلك، وشهد لها بالإيمان)(٢).

وكان أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (ت ٤٧٨هـ) على مذهب الأشاعرة، وكان ينكر علو الله على خلقه واستواءه على عرشه، قال أبو جعفر محمد بن علي الهمذاني (ت ٥٣١هـ) فسألته عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه: ٥] فقال: كان الله ولا عرش، وجعل يتخبط في الكلام، فقلت [الهمذاني]: قد علمنا ما أشرت إليه، فهل عندك للضرورات من حيلة؟ فقال: ما تريد بهذا القول؟ وما تعني بهذه الإشارة؟ فقلت: ما قال عارف قط يا رباه إلا قبل أن يتحرك لسانه قام من باطنه قصد لا يلتفت يمنة ولا يسرة، يقصد الفوق، فهل لهذا القصد الضروري عندك من حيلة؟ فنبأنا نتخلص من الفوق والتحت؟ وبكيت وبكى الخلق، فضرب الأستاذ بكمه على السرير وصاح: يا للحيرة، خرق ما كان عليه وانخلع، وصارت قيامة في المسجد، ونزل ولم يجبني إلا: يا حبيبي الحيرة الحيرة، والدهشة الدهشة! فسمعت بعد ذلك أصحابه يقولون: سمعناه يقول: حيرني الهمذاني. وكان يقول في آخر حياته: إن لم يتداركني الله فالويل لابن الجويني، وها أنا أموت على عقيدة أمي أو عقيدة عجائز نيسابور.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد ذكره لهذه القصة: (فهذا الشيخ تكلم بلسان جميع بني آدم، فأخبر أن العرش والعلم باستواء الله عليه إنما أخذ من جهة الشرع وخبر الكتاب والسنة بخلاف الإقرار بعلو الله على الخلق من غير تعيين عرش ولا استواء فإن هذا أمر فطري ضروري نجده في قلوبنا نحن وجميع من يدعو الله تعالى فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا)(٣).

فهذا الكلام ليس عن شخص واحد فقط؛ بل هو حال جميع بني آدم؛ فكلهم يعرفون بفطرهم أن الله تعالى في السماء، قال ابن قتيبة: (والأمم كلها عربيها وعجميها تقول: إن الله تعالى في السماء ما تركت على فطرها ولم تنقل عن ذلك بالتعليم)(٤). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن توجه الخلائق بقلوبهم وأيديهم وأبصارهم إلى السماء حين الدعاء أمر فطري ضروري عقلي لا يختص به أهل الملل والشرائع، بل يفعله المشركون وغيرهم ممن لا يعرف العرش، ولا يسمع به، ولا يعلم أن فوق السماء لله عرشا)(٥).

فالفطرة تدل على علو الله تعالى، والناس كلهم يعرفون بفطرهم أن الله تعالى في السماء، ولذلك

---

(١) أخرجه مسلم (ك: المساجد ومواضع الصلاة، ح: ٥٣٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٦٢/٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٦١/٤).

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص: ٣٤٦).

(٥) بيان تلبيس الجهمية (٥٤٤/٤-٥٤٥).

يرفعون إليه أيديهم ويتوجهون إليه في دعائهم وحاجاتهم، قال ابن قتيبة في الرد على القائلين بأن الله في كل مكان مذكرا إياهم بالفطرة التي فطروا عليها: (ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرهم وما ركبت عليه خلقتهم من معرفة الخالق سبحانه لعلموا أن الله تعالى هو العلي، وهو الأعلى، وهو بالمكان الرفيع، وأن القلوب عند الذكر تسمو نحوه، والأيدي ترفع بالدعاء إليه، ومن العلو يرجى الفرج ويتوقع النصر وينزل الرزق)[1] فمن لم تتغير فطرته يعلم ويقر بأن الله تعالى في السماء.

ج- دلالة الفطرة على اتصاف الله تعالى بصفات الكمال: الفطرة تدل بالضرورة على اتصاف الله تعالى بصفات الكمال، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في اتصاف الله تعالى بصفات الكمال: (هذا المعنى مستقر في فطر الناس؛ بل هم مفطورون عليه، فإنهم كما أنهم مفطورون على الإقرار بالخالق؛ فإنهم مفطورون على أنه أجل وأكبر وأعلى وأعلم وأعظم وأكمل من كل شيء. وقد بينا في غير هذا الموضع أن الإقرار بالخالق وكماله يكون فطريا ضروريا في حق من سلمت فطرته وإن كان مع ذلك تقوم عليه الأدلة الكثيرة وقد يحتاج إلى الأدلة عليه كثير من الناس عند تغير الفطرة وأحوال تعرض لها)[2]. وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (النفوس السليمة مجبولة مفطورة على محبة الله وتعظيمه، وهل تُحِب وتُعَظِّم وتَعْبُد إلا من علمت أنه متصف بصفات الكمال اللائقة بربوبيته وألوهيته؟)[3].

الحاصل: الفطرة السليمة تدل بالضرورة على وجود الله تعالى وربوبيته ومعرفة العباد له وعلى اتصافه بصفة العلو وكونه في السماء بل تدل على اتصاف الرب تعالى بالكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجوه من الوجوه.

الثاني: الأدلة الخبرية: وهي الواردة في الكتاب والسنة، **وهي على نوعين: سمعية وعقلية،** قال شيخ الإسلام ابن تيمية في إثبات طرق الصفات: (الطرق نوعان: سمعية وعقلية، وإن كانت العقلية هي أيضا شرعية سمعية باعتبار أن السمع دل عليها، وأرشد إليها، وأن الشرع أحبها ودعا إليها)[4]، فأدلة الصفات الخبرية على نوعين، وفيما يلي بيان ذلك:

الأول: أدلة خبرية سمعية، وهي التي فيها محض الإخبار عن أسماء الله وصفاته، كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ

---

(١) تأويل مختلف الحديث (ص: ٣٤٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/٧٢-٧٣).

(٣) القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى (ص: ٢٩).

(٤) شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ٨١)، وانظر: أدلة صفات الله ووجوه دلالاتها وأحكامها (ص: ٤٤-٤٥)، وصفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة (ص: ٢٩).

وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥].

هذه الآيات الكريمات قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، فمن سمعها فقد قامت عليه الحجة، ولذلك توصف بأنها خبرية سمعية، وهي على قسمين[1]:

أ- أدلة الإثبات: وهي التي جاءت بإثبات أسماء الله وصفاته اللائقة به سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾[الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨].

ب- أدلة النفي، وهي التي جاءت بنفي ما لا يليق بالله تعالى، وينزه الله عنه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾[النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا ﴾ [يونس: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٣ – ٤]، وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾[مريم: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [الدخان: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[ق: ٣٨].

الثاني: أدلة خبرية عقلية: وهي الأدلة العقلية القياسية الواردة في الكتاب والسنة، وهي في باب الصفات على نوعين: مجمل وهو دلالة المثل الأعلى، ومفصل وهو دلالات قياس الأولى[2]، وفيما يلي بيان ذلك باختصار:

أ- المثل الأعلى: قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الروم: ٢٧]، المثل الأعلى هو

(١) انظر: أدلة صفات الله ووجوه دلالاتها وأحكامها (ص: ٤٨)، وصفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة (ص: ٢٧-٢٨).

(٢) انظر: أدلة صفات الله ووجوه دلالاتها وأحكامها (ص: ٥٩).

الوصف الأعلى، فيكون لله تعالى من الأسماء والصفات أجملها وأحسنها وأفضلها وأكملها وأعلاها، وأفراد هذا المعنى مبثوثة في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤].

وعن البراء بن عازب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف تقولون بفرح رجل انفلتت منه راحلته، تجر زمامها بأرض قفر ليس بها طعام ولا شراب، وعليها له طعام وشراب، فطلبها حتى شق عليه ثم مرت بجذل شجرة فتعلق زمامها فوجدها متعلقة به؟» قلنا: شديدا يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «أما والله! **لله أشد فرحا بتوبة عبده من الرجل براحلته**»(١).

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله: «**لله أشد فرحا بتوبة عبده**، حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة. فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم! أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح»(٢).

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تبتغي إذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار». قلنا: لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»(٣).

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا شيء أغير من الله**»(٤).

وعن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: قال سعد بن عبادة ﷺ: لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح عنه. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير منه، **والله أغير مني**، من أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، **ولا شخص أغير من الله، ولا شخص أحب إليه العذر من الله**، من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين، **ولا شخص أحب إليه المدحة من الله**، من أجل ذلك وعد الله الجنة»(٥).

قال ابن القيم: (وإذا شئت زيادة تعريف بهذا المثل الأعلى فقدِّر قوى جميع المخلوقات اجتمعت لواحد منهم، ثم كان جميعهم على قوة ذلك الواحد، فإذا نسبت قوته إلى قوة الرب تبارك وتعالى لم تجد لها

---

(١) أخرجه مسلم (ك: التوبة، ح: ٢٧٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (ك: الدعوات، ح: ٥٩٥٠)؛ ومسلم (ك: التوبة، ح: ٢٧٤٧)، واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (ك: الأدب، ح: ٥٩٩٩)؛ ومسلم (ك: التوبة، ح: ٢٧٥٤)، واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري (ك: النكاح، ح: ٥٢٢٢).

(٥) أخرجه البخاري (ك: التوحيد، ح: ٧٤١٦)؛ ومسلم (ك: اللعان، ح: ١٤٩٩)، واللفظ له.

نسبة وإياها البتة، كما لا تجد نسبة بين قوة البعوضة وقوة الأسد، فإذا قدَّرت علوم الخلائق اجتمعت لرجل واحد، ثم قدرت جميعهم بهذه المثابة كانت علومهم بالنسبة إلى علمه تعالى كنقرة عصفور من بحر، وإذا قدَّرت حكمة جميع المخلوقين على هذا التقدير لم يكن لها نسبة إلى حكمته، وكذلك إذا قدرت كل جمال في الوجود اجتمع لشخص واحد، ثم كان الخلق كلهم بذلك الجمال، كان نسبته إلى جمال الرب تعالى وجلاله دون نسبة السراج الضعيف إلى جرم الشمس،﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧]، فقدر البحر المحيط بالعالم مدادا ووراءه سبعة أبحر تحيط به كلها مداد تكتب به كلمات الله، نفدت البحار، وفنيت الأقلام التي لو قدرت جميع أشجار الأرض من حين خلقت إلى آخر الدنيا، ولم تنفد كلمات الله)[١]، فالله عز وجل له المثل الأعلى، وله من جميع الصفات أكملها وأحسنها وأعلاها.

ب- قياس الأولى: لقد أرشدت النصوص الخبرية إلى هذا الدليل العقلي، وقررت استعماله في باب الصفات[٢]، وبيان ذلك فيما يلي:

١- معطي الكمال أولى بالكمال: قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾[البلد: ٧ – ٩] قال ابن القيم: (نبَّهك بهذا الدليل العقلي القاطع أن الذي جعلك تبصر وتتكلم وتعلم أولى أن يكون بصيرا متكلما عالما، فأي دليل عقلي قطعي أقوى من هذا وأبين وأقرب إلى المعقول؟!)[٣].

وذلك لأن الكمال الذي عند المخلوق إنما استفاده من الخالق، ومعطي الكمال أولى به، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ولأن ذلك الكمال إنما استفاده المخلوق من الخالق والذي جعل غيره كاملا هو أحق بالكمال منه؛ فالذي جعل غيره قادرا أولى بالقدرة، والذي علَّم غيره أولى بالعلم، والذي أحيا غيره أولى بالحياة)[٤]. وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (إنه قد ثبت بالحس والمشاهدة أن للمخلوق صفات كمال، وهي من الله تعالى، فمعطي الكمال أولى به)[٥].

٢- الاتصاف بالصفات في ذاته كمال، وعدم الاتصاف في ذاته نقص، والله تعالى أولى بالكمال: قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٤٢]

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٣٠-٤٣١).

(٢) انظر: أدلة صفات الله ووجوه دلالاتها وأحكامها (ص: ٦٥).

(٣) الصواعق المرسلة (٣/٩١٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٦/٧٧).

(٥) القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى (ص: ٢٩).

فهذه الآية تدل على أن الفاقد للصفات فيه نقص، وأنه لا يصلح أن يكون إلها يعبد لما فيه من النقص، ولذلك المتصف بصفات الكمال هو الأولى بالألوهية، وهذا دليل عقلي ظاهر الحجة.

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾[طه: ٨٨ – ٨٩] قال ابن القيم: (فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم وعدم ملك الضر والنفع دليلا على عدم الإلهية، وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإله لا بد أن يكلم ويتكلم، ويملك لعابده الضر والنفع وإلا لم يكن إلها)(١).

وقال تعالى: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، قال ابن القيم: (فجعل سبحانه عدم البطش والمشي والسمع والبصر دليلا على عدم إلهية من عدمت فيه هذه الصفات؛ فالبطش والمشي من أنواع الأفعال والسمع والبصر من أنواع الصفات)(٢).

تنبيهان مهمان:

١- لا شك أن كل كمال في الإنسان من الله تعالى، ومعطى الكمال أولى بالكمال، ولكن ليس ذلك على إطلاقه؛ بل يكون مقيدا بكونه لا يتضمن النقص في حق الخالق جل وعلا، لأن الصفة قد تكون كمالا في حق المخلوق، ولا تكون كمالا في حق الخالق، وإذا كان الأمر كذلك فتكون منفية عن الله تعالى، والله تعالى ينزه عنها، ولا يصح أن يوصف الله بها البتة: قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (هل كل كمال في المخلوق كمال في الله؟ وهل كل كمال في الله كمال في المخلوق؟ الجواب: لا، فمثلا التكبر صفة كمال في الله، وفي المخلوق صفة نقص، والأكل والشرب والنكاح صفة كمال في الإنسان، وصفة نقص بالنسبة لله تعالى، فإذا نسبت إلى الله فهي صفة نقص، ولهذا ينزه الله عنها)(٣).

٢- لا يستعمل في حق الله تعالى قياس التمثيل، وهو الذي يقاس فيه فرد على فرد ويحكم عليهما بحكم واحد، وذلك لأن الخالق والمخلوق لا يتماثلان في شيء من الأشياء، وكذلك لا يستعمل في حقه سبحانه قياس الشمول، لئلا يدخل الخالق والمخلوق تحت قضية كلية تستوي أفرادها، وإنما

(١) الصواعق المرسلة (٣/٩١٥).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/٩١٥).

(٣) شرح القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى (ص: ١٢٣).

يستعمل في حقه سبحانه قياس الأولى فقط[1]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الطريقة النبوية السلفية أن يستعمل في العلوم الإلهية "قياس الأولى"... إذ لا يدخل الخالق والمخلوق تحت قضية كلية تستوي أفرادها، ولا يتماثلان في شيء من الأشياء؛ بل يعلم أن كل كمال - **لا نقص فيه بوجه** - ثبت للمخلوق فالخالق أولى به، وكل نقص وجب نفيه عن المخلوق فالخالق أولى بنفيه عنه)[2]، وقال أيضا: (فإن الله سبحانه لا يماثله شيء من الموجودات في "قياس التمثيل"، ولا أن يدخل في "قياس شمول" تتماثل أفراده، بل ما ثبت لغيره من الكمال الذي **لا نقص فيه بوجه من الوجوه**، فهو أحق به، وما نزه عنه غيره من النقائص فهو أحق بالتنزيه منه)[3].

سادسا: قواعد أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته:

القواعد المتعلقة بأسماء الله تعالى وصفاته وأدلتهما كثيرة، وهي مبثوثة في كتب أهل العلم، وقد أفردها بعضهم بتأليف مستقل، ومن أمثل تلك الكتب: (القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى) للشيخ محمد بن صالح العثيمين، وقد قام المؤلف نفسه بشرح هذا الكتاب كما قام غيره من أهل العلم بشرحه، وهي كلها مطبوعة ومتداولة، وفيما يلي ذكر بعض القواعد المتعلقة بأسماء الله وصفاته:

أ- القواعد المتعلقة بأسماء الله تعالى:

١- **أسماء الله تعالى كلها حسنى**، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الأعراف: ١٨٠]، فأسماء الله تعالى كلها بالغة في الحسن غايته، ومتضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ولذلك الأسماء التي معانيها ليست حسنة لا يمكن أن تكون من أسماء الله تعالى، مثل: الفقير، البخيل، الأعمى، الأصم ونحوها.

٢- **أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف**: أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني، وهى بالاعتبار الأول مترادفة لدلالتها على مسمى واحد، وهو الله عز وجل، وبالاعتبار الثاني متباينة، لدلالة كل واحد منهما على معناه الخاص.

فـ"الحي، العليم، القدير، السميع، البصير، الرحمن، الرحيم، العزيز، الحكيم" كلها أسماء لمسمى واحد وهو الله سبحانه وتعالى، لكن معنى الحي غير معنى العليم، ومعنى العليم غير معنى القدير، وهكذا[4].

وبهذه القاعدة نعلم أن الدهر ليس من أسماء الله تعالى، لأنه اسم جامد لا يتضمن معنى يلحقه بالأسماء الحسنى، ولأنه اسم للوقت والزمن، قال الله تعالى عن منكري البعث: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا

(١) انظر: أدلة صفات الله تعالى ووجوه دلالاتها (ص: ٦٤-٦٥)، ومعالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة (ص: ١٨٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٣٤٩-٣٥٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/٣٤٧).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٧/٥٦٩-٥٧٠).

﴿ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] يريدون: مرور الليالي والأيام، والله تعالى هو الذي يقلب الليل والنهار، وهما الدهر، ولا يمكن أن يكون المقلِّب (بكسر اللام) هو المقلَّب (بفتحها)، وبذلك يتبين أن الدهر ليس من أسماء الله تعالى.

٣- **دلالة أسماء الله تعالى على ذاته وصفاته تكون بالمطابقة، وبالتضمن، وبالالتزام.**

مثال ذلك: "الخالق" يدل على ذات الله، وعلى صفة الخلق بالمطابقة، ويدل على الذات وحدها وعلى صفة الخلق وحدها بالتضمن، ويدل على صفتي العلم والقدرة بالالتزام.

ولهذا لما ذكر الله خلق السماوات والأرض قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢] فالخالق لا بد أن يكون متصفا بالعلم والقدرة لأن الجاهل أو العاجز لا يستطيع أن يخلق، فلفظ "الخالق" يدل على صفتي العلم والقدرة بالالتزام.

٤- **أسماء الله تعالى توقيفية لا مجال للعقل فيها**

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فهذه الآية تدل من عدة أوجه على أن أسماء الله تعالى توقيفية، وفيما يلي بيان ذلك:

أ- قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾ جاء بـ"ال" وهي هنا للعهد، والأسماء المعهودة لله تعالى هي الواردة في الكتاب والسنة.

ب- وقوله تعالى: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: بالغة في الحسن غايته، فليس في الأسماء أحسن منها بل أسماء الله تعالى أحسن الأسماء على الإطلاق، فلا يجوز بحال أن يدخل فيها ما ليس منها، وهذا أيضا يؤكد كون أسماء الله تعالى توقيفية.

ج- وقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فيه تهديد شديد لمن يلحد في أسماء الله تعالى، وتسمية الله بغير اسمه من أعظم صور الإلحاد في أسماء الله تعالى، قال العلامة ابن حزم: (منع تعالى أن يسمى إلا بأسمائه الحسنى، وأخبر أن من سماه بغيرها فقد ألحد)[١]، وقال البغوي: (وقال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله: تسميته بما لم يُسَمَّ به، ولم ينطق به كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ)[٢]، وقال الحافظ ابن حجر: (قال أهل التفسير: من الإلحاد في أسمائه تسميته بما لم يرد في الكتاب أو السنة الصحيحة)[٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن ،

---

(١) المحلى (٢٩/١).

(٢) معالم التنزيل (٣٠٧/٣).

(٣) فتح الباري (٢٢١/١١).

فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك **بكل اسم هو لك سميت به نفسك**، أو علمته أحدا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحا»، قال: فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ فقال: «بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها»[(١)].

والشاهد من هذا الحديث هنا قوله ﷺ: «أسألك **بكل اسم هو لك سميت به نفسك**»، فهذا يدل على أن تسمية الله تعالى لا يكون من الآدميين بل يكون منه سبحانه وتعالى، قال ابن القيم: (الحديث صريح في أن أسماءه ليست من فعل الآدميين وتسمياتهم)[(٢)].

والعقل البشري لا يمكنه إدراك ما يستحقه تعالى من الأسماء، والقول على الله بلا علم حرام، فيجب الوقوف في ذلك على النص من الكتاب أو السنة.

ويجب الالتزام بألفاظ الكتاب والسنة فلا يستبدل اسم بآخر وإن كان معناه قريبا منه، فلا يسمى بالسخي والفقيه والعاقل ونحوها من الأسماء التي لم ترد في الكتاب والسنة، قال البغوي: (إن أسماء الله تعالى على التوقيف، فإنه يسمى جوادا ولا يسمى سخيا، وإن كان في معنى الجواد، ويسمى رحيما ولا يسمى رفيقا، ويسمى عالما ولا يسمى عاقلا)[(٣)]، وإذا كان كذلك فتسمية النصارى له أبا، وتسمية الفلاسفة إياه العلة الفاعلة بالطبع، وتسمية بعض أهل الضلال له بمهندس الكون نحو ذلك لا يجوز من باب أولى.

٥- أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد معين

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن ، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك **بكل اسم هو لك سميت به نفسك**، أو علمته أحدا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحا»، قال: فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ فقال: «بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها»[(٤)].

والشاهد من هذا الحديث هنا قوله ﷺ: «أو استأثرت به في علم الغيب عندك»، وذلك لأن ما

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/٢٤٦-٢٤٧ ح: ٣٧١٢)، واللفظ له، وابن حبان (ك: الرقائق، ح: ٩٧٢)، والحاكم (ك: الدعاء، ١/٥٠٩)، والحديث صححه ابن القيم في الصواعق المرسلة (٣/ ٩١٣)، والألباني في السلسلة الصحيحة (ح: ١٩٩)، وحسنه الأعظمي في الجامع الكامل (١/٢٣٤).

(٢) شفاء العليل (ص: ٢٧٧).

(٣) معالم التنزيل (٣/٣٠٧).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٦/٢٤٦-٢٤٧ ح: ٣٧١٢)، واللفظ له، وابن حبان (ك: الرقائق، ح: ٩٧٢)، والحاكم (ك: الدعاء، ١/٥٠٩)، والحديث صححه ابن القيم في الصواعق المرسلة (٣/ ٩١٣)، والألباني في السلسلة الصحيحة (ح: ١٩٩)، وحسنه الأعظمي في الجامع الكامل (١/٢٣٤).

استأثر الله تعالى به في علم الغيب عنده، لا يعلمه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا يمكن لأحد من الخلق حصره ولا الإحاطة به[١].

عن أبي هريرة عن عائشة قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه، وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، **لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[٢].

والشاهد من هذا الحديث هنا قوله ﷺ: «لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»، فالنبي ﷺ عاجز عن تفصيل الثناء على الله تعالى، والثناء على الله يكون بذكر أسمائه وصفاته وأفعاله، ومن أحصى الثناء عليه فقد أحصى أسماءه وصفاته وأفعاله، والنبي ﷺ عاجز عن ذلك، وهو أعلم الناس بالله تعالى، وإذا كان هذا شأن النبي ﷺ فما بالك بغيره؟ فهذا يدل على أن أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد معين، وأنه لا يعرف كلها أحد من البشر حتى النبي ﷺ[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ، فذكر حديث الشفاعة وهو حديث طويل، وجاء فيه من قول النبي ﷺ: «فأقع ساجدا لربي عز وجل، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي»[٤]، وهو في حديث أنس رضي الله عنه مرفوعا بلفظ: «فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن»[٥] وفي رواية بلفظ: «فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن يلهمينه الله»[٦].

قال ابن القيم: (وتلك المحامد هي بأسمائه وصفاته تبارك وتعالى)[٧]. فبيان محامد الله تعالى والثناء عليه يكون بذكر أسمائه وصفاته، والنبي ﷺ لا يحيط بها كلها ولا يحصيها بل منها ما يلهمه الله تعالى يوم القيامة، فهذا يدل على أن أسماء الله تعالى غير محصورة في عدد معين، وأنه لا يعرفها أحد من البشر في هذه الدنيا حتى النبي ﷺ.

وأما ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة تسعون اسماً مائةً إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة»[٨]، فهذا لا يدل على كون أسماء الله تعالى محصورة في هذا العدد المعين، وإنما يدل على أن من أحصى هذا العدد من أسماء الله تعالى يكون له الجنة، وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء أخرى غيرها[٩].

---

(١) انظر: شفاء العليل (ص: ٢٧٧)، والقواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى (ص: ٢٠-٢١).

(٢) أخرجه مسلم (ك: الصلاة، ح: ٤٨٦).

(٣) انظر: شرح النووي على مسلم (٤/٢٠٤).

(٤) أخرجه البخاري (ك: التفسير، ح: ٤٧١٢)، ومسلم (ك: الإيمان، ح: ١٩٤).

(٥) أخرجه البخاري (ك: التوحيد، ح: ٧٥٠٩).

(٦) أخرجه مسلم (ك: الإيمان، ح: ١٩٣).

(٧) بدائع الفوائد (١/٢٩٤)، وانظر: شفاء العليل (ص: ٢٧٧).

(٨) أخرجه البخاري (ك: الشروط، ح: ٢٧٣٦)، واللفظ له، ومسلم (ك: الذكر والدعاء، ح: ٢٦٧٧).

(٩) انظر: القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى (ص: ٢١).

قال النووي: (اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى، فليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الاخبار عن دخول الجنة بإحصائها، لا الاخبار بحصر الأسماء)[1].

وقال ابن القيم: (قوله: «إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة»، فالكلام جملة واحدة، وقوله: «من أحصاها دخل الجنة» صفة لا خبر مستقبل، والمعنى: له أسماء متعددة، من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة، وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء غيرها، وهذا كما تقول: لفلان مائة مملوك وقد أعدهم للجهاد؛ فلا ينفي هذا أن يكون له مماليك سواهم معدون لغير الجهاد، وهذا لا خلاف بين العلماء فيه)[2].

وأسماء الله الواردة في الكتاب والسنة أكثر من تسعة وتسعين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وإن قيل: لا تدعوا إلا باسم له ذكر في الكتاب والسنة. قيل: هذا أكثر من تسعة وتسعين)[3]، وإذا كان الأمر كذلك فلا يصح حصرها وتحديدها في هذا العدد المعين.

ب- القواعد المتعلقة بصفات الله تعالى:

١- صفات الله تعالى كلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه كالحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة، والعزة، والحكمة، والعلو، والعظمة، وغير ذلك. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾[الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

ولذلك الصفات التي فيها نقص وليس فيها كمال البتة، فهي ممتنعة في حق الله تعالى، كالموت، والجهل، والنسيان، والعجز، والعمى، والصمم، والظلم ونحوها. قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[ق: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[المؤمنون: ٩١]، فالله عز وجل منزه عن الصفات الذميمة وعن جميع النقائص على الإطلاق.

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٧/ ٥).

(٢) بدائع الفوائد (٢٩٤/١)، وانظر: شفاء العليل (ص: ٢٧٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٤٨٢/٢٢)، وانظر: شأن الدعاء للخطابي (ص: ٢٩).

ولكن الصفة إذا كانت كمالا في حال، ونقصا في حال لم تكن جائزة في حق الله، ولا ممتنعة على سبيل الإطلاق، فلا تثبت له إثباتا مطلقا، ولا تنفى عنه نفيا مطلقا، بل لا بد من التفصيل، فتجوز في الحال التي تكون كمالا، وتمتنع في الحال التي تكون نقصا، وذلك كالمكر، والكيد، والخداع، ونحوها.

فهذه الصفات تكون كمالا إذا كانت في مقابلة من يعاملون الفاعل بمثلها، لأنها حينئذ تدل على أن فاعلها قادر على مقابلة عدوه بمثل فعله، أو أشد، وتكون نقصا في غير هذه الحال، أي: إذا كانت ابتداء، ولهذا لم يذكرها الله تعالى من صفاته على سبيل الإطلاق، وإنما ذكرها في مقابلة من يعاملونه ورسله بمثلها، قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[آل عمران: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق: ١٥ – ١٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[البقرة: ١٤ – ١٥].

٢– باب الصفات أوسع من باب الأسماء

وذلك لأن كل اسم متضمن لصفة، ولأن من الصفات ما يتعلق بأفعال الله تعالى، وأفعاله لا منتهى لها، كما أن أقواله لا منتهى لها، مثلا: من صفات الله تعالى: المجيء، والإتيان، والأخذ، والبطش، والإرادة إلى غير ذلك من الصفات التي لا تحصى، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾[البروج: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فنصف الله تعالى بهذه الصفات على الوجه الوارد، ولا نسميه بها، فلا نقول: إن من أسمائه الجائي، والآتي، والآخذ، والممسك، والباطش، والمريد، ونحو ذلك، وإن كنا نخبر بذلك عنه ونصفه به.

٣– صفات الله تعالى توقيفية لا مجال للعقل فيها

فلا نثبت لله تعالى من الصفات إلا ما دل الكتاب والسنة على ثبوته، ولا يتجاوز القرآن والحديث، لأنه لا أحد أعلم بالله تعالى من نفسه سبحانه، ولا مخلوق أعلم بخالقه من النبي ﷺ.

٤– الإثبات المفصل والنفي المجمل هو الطريق السليم في هذا الباب

وهي طريقة القرآن الكريم وطريقة الأنبياء والمرسلين، وطريقة السلف الصالح، ولا شك أن طريقتهم أفضل الطرق وأحسنها وهذه هي طريقة أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات.

والصفات الثبوتية صفات مدح وكمال، فهي كلما كثرت وتنوعت دلالاتها ظهر بها كمال الموصوف، ولذالك يناسب فيها التفصيل، وأما الصفات المنفية، فهي للتنزيه من النقائص والعيوب ولذلك لا يناسب فيها التفصيل وإنما يناسب فيها الإجمال والتعميم.

ولذلك لو مدحت ملكا، وقلت: لا يساميك ملك من ملوك الدنيا أو قلت له: (ما مثلك أحد من الناس)، ثم بدأت تعدد صفاته من الكرم والحلم والقوة والحنكة في الحكم لكان هذا الكلام له وقع كبير في نفس الملك، وهذا إجمال في النفي وتفصيل في الإثبات، ولكن لو عكست ذلك ففصلت في النفي وأجملت في الإثبات وقلت له: أنت رجل طيب فأنت لست بزانٍ، ولست بلص، ولست بسارق، ولا خباز، ولا بقال، ولا زبال، ولا كناس، ولا حجام، ولا حلاق، ولا جزار ولا كذا ولا كذا... وأخذت تذكر الصفات المعيبة عند الناس، وأنت محق في هذا كله ومع ذلك لا يعتبر مدحا بل يعد ذلك منك سخرية واستهتارًا وقد يعاقبك عليه ولكن لو قلت له: (ما مثلك أحد من الناس) لعد هذا مدحاً بليغاً.

إذا قلت لطالب: (ليس في القاعة طالب مثلك)، تراه يستريح جدا، وهذا إجمال في النقي، أو قلت له: أنت طالب مجتهد فاضل حافظ فاهم...، فإذا قلت له هذا تجد كل ما أعطيته صفة انشرح صدره وفرح لذلك، هذا إثبات مفصل، فالإجمال في النفي والتفصيل في الإثبات مقبول ومرغوب، ولكن لو عكست هذا الأسلوب وفصلت في النفي وقلت له: أنت طالب وأنت لست جدارا ولست طاولة ولست كرسيا، ولست عاملا، ولست حمارا ولست كلبا ولست جملا وهكذا...تراه يضيق صدره ويتحرج جدا وذلك وإن كان ما قاله صحيحا ولكنه بهذا الأسلوب ليس مدحا بل هو أقرب إلى الذم.

ولذلك المدح على وجه التفصيل، ونفي النقائص على وجه الإجمال هي الطريقة المناسبة المقبولة لما فيه من الأدب والاحترام ولما فيه من الدلالة على المدح والكمال والتمام، وأما المدح على وجه الإجمال ونفي النقائص على وجه التفصيل فغير مقبول البتة وذلك لما فيه من الإساءة والإخلال بالأدب مع الممدوح، ولذلك الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر بكثير من الصفات السلبية ولكن هناك أحوال وأسباب خاصة جاء في فيها ذكر الصفات السلبية، وهي كما يلي:

الأحوال التي تذكر فيها الصفات المنفية:

أولا: نفي ما ادعاه الكاذبون في حق الله تعالى من النقائص، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٨٨-٩٢]، وقال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١]

ثانيا: دفع توهم النقص في كمال الله تعالى في الأمر المعين الذي ورد النص بنفيه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴾ [ق: ٣٨] وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٦-١٧].

ثالثا: ذكرها في سياق تهديد الكافرين: قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [البقرة:

٧٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم: ٤٢]

رابعا: بيان عموم كمال الله عز وجل، وذلك بنفي جميع النقائص والعيوب عنه على سبيل العموم والشمول لكل فرد من أفراد ما يضاد الكمال، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤]

سابعا: التمييز بين الصفات المنفية عن الله والصفات المثبتة له:

الصفات المضافة إلى الله تعالى تنقسم إلى قسمين: صفات مثبَتة وصفات منفية.

والصفات المثبتَة، وهي التي أثبتها الله تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كالحياة، والعلم، والقدرة، والاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والوجه، واليدين، ونحو ذلك.

والصفات المنفية: وهي التي نفاها الله سبحانه عن نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ،، وكلها صفات نقص في حقه سبحانه، كالموت، والسنة والنوم، والظلم والجهل، والنسيان، والعجز، والتعب. فيجب نفيها عن الله تعالى مع إثبات ضدها على الوجه الأكمل، فنفي السنة والنوم والموت يتضمن كمال حياته، ونفي الظلم عنه يتضمن كمال عدله، ونفي التعب يتضمن كمال قوته وقدرته، ونفي العجز والجهل والنسيان يتضمن كمال علمه وقدرته، وهكذا.

والمعطلة أيضا ينفون هذه الصفات عن الله تعالى، ولكنهم لا يقولون بإثبات ضدها

الصفات التي نفاها الله عن نفسه يجب نفيها مع إثبات ضدها على الوجه الأكمل اللائق بالله تعالى، فلا يكتفى بالنفي، والمعطلة أيضا ينفون هذه الصفات عن الله تعالى، ولكنهم لا يقولون بإثبات ضدها، وهذا خطأ فاحش منهم، وذلك لأن ما نفاه الله تعالى عن نفسه فالمراد به بيان انتفائه لثبوت كمال ضده لا لمجرد نفيه، لأن النفي ليس بكمال إلا أن يتضمن ما يدل على الكمال، وذلك لأن النفي عدم، والعدم ليس بشيء فضلا عن أن يكون كمالا، ولأن النفي قد يكون لعدم قابلية المحل له فلا يكون كمالا، كما لو قلت: الجدار لا يظلم. وقد يكون للعجز عن القيام به فيكون نقصا، كما في قول الشاعر:

قبيلة لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل

وقال آخر:

لكن قومي وإن كانوا ذوي حسب ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

ثامنا: تقسيم صفات الله تعالى إلى صفات ذاتية وصفات فعلية، والتمييز بينهما:

صفات الله تعالى الثابتة تنقسم إلى قسمين: ذاتية، وفعلية.

فالصفات الذاتية: هي التي لم يزل ولا يزال متصفا بها، كالعلم والقدرة والسمع والبصر والعزة والحكمة والعلو والعظمة. ومنها الصفات الخبرية: كالوجه واليدين والعينين.

والصفات الفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته، إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا.

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين كالكلام، فإنه باعتبار أصله صفة ذاتية، لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلما، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية، لأن الكلام يتعلق بمشيئته، يتكلم متى شاء بما شاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وكل صفة تعلقت بمشيئته تعالى فإنها تابعة لحكمته.

ضابط التمييز بين الصفة الفعلية والصفة الذاتية: قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (ولك أن تقول ضابطا وهو: أن كل صفة من صفات الله تعالى لها سبب فهي صفة فعلية، ووجه ذلك: أنها توجد بعد وجود السبب، فتكون فعلا، وليست ذاتية، لأن السبب سابقها، والذاتية هي التي لم يزل ولا يزال متصفا بها تبارك وتعالى)[1].

تاسعا: استعراض بعض أسماء الله تعالى الواردة في الكتاب والسنة، ومعنى إحصائها:

أ- استعراض بعض أسماء الله تعالى الواردة في الكتاب والسنة: أسماء الله تعالى كثيرة، وهي مبثوثة في الكتاب والسنة، وقد جمع شيئا منها بعض أهل العلم في مكان واحد، وكل من ألف من في التفسير وشرح الأحاديث النبوية وشرح الأدعية والأذكار قام بشرح بعض أسماء الله الحسنى، بل قام بعض أهل العلم بتصنيفات خاصة في هذا الباب، وعنوا عناية خاصة بدراسة المسائل المتعلقة بأسماء الله الحسنى وبيان معانيها، بل هناك رسائل علمية كثيرة خصصت لدراسة اسم أو اسمين من أسماء الله تعالى، فيمكن الرجوع إليها للاستزادة والتفصيل، وطلبا للاختصار أكتفي بذكر ثلاثة آيات من آخر سورة الحشر وتفسيرها من "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦هـ) ومقتطفات من تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير فيها إيضاح أكثر من بعض الجوانب:

آخر سورة الحشر: قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤]

قال السعدي: (هذه الآيات الكريمات قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، عظيمة الشأن، وبديعة البرهان، فأخبر أنه الله المألوه المعبود، الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم، وإحسانه الشامل، وتدبيره العام، وكل إله سواه؛ فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه فقير عاجز ناقص، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا، ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه، وبعموم رحمته التي وسعت كل شيء ووصلت إلى كل حي.

---

(١) شرح القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى (ص: ١٧٢).

ثم كرر ذكر عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع مماليك لله، فقراء مدبرون.

﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾؛ أي: المقدس السالم من كل عيب وآفة ونقص، المعظم الممجد، لأن القدوس يدل على التنزيه عن كل نقص، والتعظيم لله في أوصافه وجلاله.

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾؛ أي: المصدق لرسله وأنبيائه بما جاءوا به، بالآيات البينات، والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة، المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ لجميع المخلوقات ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ للمبروءات ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ للمصورات، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: له الأسماء الكثيرة جدا، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا الله هو، ومع ذلك، فكلها حسنى؛ أي: صفات كمال، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسنها أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها.

ومن كماله، وأن له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يريد شيئا إلا ويكون، ولا يكون شيئا إلا لحكمة ومصلحة)[1].

وقال الحافظ ابن كثير في تفسير البسملة مبينا العلاقة بين اسمي الله: الرحمن والرحيم: (أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن والخالق والرزاق ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولا إنما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص)[2].

وقال في بيان معنى اسم الله المهيمن: (وقوله: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ قال ابن عباس وغير واحد:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ١٠٠٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/١٢٦).

أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى: هو رقيب عليهم، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[البروج: ٩]، وقوله:﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]).

وقال مبينا الفرق بين معنى الخالق والبارئ والمصور: (وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ الخلق: التقدير، والبراء: هو الفري، وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدر شيئا ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله، عز وجل. قال الشاعر يمدح آخر

ولأنت تفري ما خلقت ... وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

أي: أنت تنفذ ما خلقت، أي: قدرت، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد. فالخلق: التقدير. والفري: التنفيذ. ومنه يقال: قدر الجلاد ثم فرى، أي: قطع على ما قدره بحسب ما يريده.

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾؛ أي: الذي إذا أراد شيئا قال له: كن، فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار. كقوله: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨]؛ ولهذا قال: ﴿ٱلۡمُصَوِّرُ﴾؛ أي: الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها)[١].

ب- بيان معنى إحصائها وذكر مراتبه:

لقد جاء عن أبي هريرة ﷺ، أنّ رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة تسعون اسماً مائةً إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة»[٢]، فما معنى الإحصاء في هذا ا لحديث؟ وما هي درجات الإحصاء ومراتبه؟، فيما يلي بيان ذلك باختصار:

أولا: معاني الإحصاء: ذكر أهل العلم له أربعة معان، وهي كما يلي:

المعنى الأول: العدُّ: كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدٗا﴾ [الجن: ٢٨] فيكون معنى "أحصاها" في الحديث: أنه يعدُّها ليستوفيها حفظا، فيدعو ربه بها. ويؤكد هذا التوجيه ما جاء في رواية للحديث مرفوعا بلفظ: «لله تسعة وتسعون اسما **من حفظها** دخل الجنة، وإن الله وتر يحب الوتر»[٣].

قال الخطابي عند هذا الوجه: (وهو أظهرها)[٤]، وكذلك استظهره النووي وغيره من أهل العلم، وله حظ من النظر وذلك لثبوته نصا في الحديث[٥].

ولكن اعترض الحافظ ابن حجر على هذا الوجه، فقال: (وفيه نظر؛ لأنه لا يلزم من مجيئه بلفظ "حفظها" تعيين السَّرد عن ظهر قلب، بل يُحتمل الحفظ المعنويُّ)[٦]، ولأنه قد يعدها المنافق والكافر وذلك غير نافع له، فمن حفظها عدا وأحصاها سردا ولم يعمل بها يكون كمن حفظ القرآن ولم يعمل بما

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (ك: الشروط، ح: ٢٧٣٦)، واللفظ له، ومسلم (ك: الذكر والدعاء، ح: ٢٦٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (ك: الدعوات، ح: ٦٤١٠) ومسلم (ك: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، ح: ٢٦٧٧).

(٤) شأن الدعاء (ص: ٢٦).

(٥) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٥/١٧).

(٦) انظر: فتح الباري (٢٢٦/١١).

فيه، وقد ثبت الخبر في الخوارج أنهم يقرءون القرآن ولا يجاوز حناجرهم[1].

المعنى الثاني: الطاقة، كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، أي: لن تطيقوه.

فيكون معنى: "أحصاها" في الحديث: أي: أطاق العمل بها، بحسن المراعاة لها، والمحافظة على حدودها في معاملة الرب سبحانه بها، قال ابن بطال مبينا وجه العمل بأسماء الله تعالى ومقتضياتها: (إن ما كان من أسماء الله تعالى مما يجب على المؤمن الاقتداء بالله تعالى فيه كالرحيم والكريم والعفو والغفور والشكور والتواب وشبهها، فإن الله تعالى يحب أن يرى على عبده حلاها ويرضى له معناها ، والاقتداء به تعالى فيها. فهذا العمل بهذا النوع من الأسماء.

وما كان منها مما لا يليق بالعبد معانيها كالله والأحد والقدوس والجبار والمتعال والمتكبر والعظيم والعزيز والقوى وشبهها، فإنه يجب على العبد الإقرار بها والتذلل لها والإشفاق منها.

وما كان بمعنى الوعيد كشديد العقاب، وعزيز ذي انتقام، وسريع الحساب وشبهها، فإنه يجب على العبد الوقوف عند أمره واجتناب نهيه.

واستشعار خشية الله تعالى من أجلِّها خوف وعيده، وشديد عقابه، هذا وجه إحصائها عملا فهذا يدخل الجنة إن شاء الله)[2].

وقد ذكر الحافظ ابن حجر قول ابن بطال هذا ثم علق عليه بقوله:: (والذي ذكره مقام الكمال، ولا يلزم من ذلك أن لا يَرِد الثواب لمن حفظها، وتعبد بتلاوتها والدعاء بها، وان كان متلبسا بالمعاصي، كما يقع مثل ذلك في قارئ القرآن سواء؛ فان القارئ ولو كان متلبسا بمعصية غير ما يتعلق بالقراءة يثاب على تلاوته عند أهل السنة؛ فليس ما بحثه ابن بطال بدافع لقول من قال: إن المراد حفظها سردا، والله أعلم)[3].

المعنى الثالث: الإحصاء بمعنى العقل والمعرفة.

وهذا المعنى مأخوذ من الحصاة وهي: العقل.

قال طرفة:

وإن لسان المرء مالم تكن له ... حصاة على عوراته لدليل

والعرب تقول: فلان ذو حصاة؛ أي ذو عقل ومعرفة بالأمور[4].

فيكون معنى "أحصاها": أن من عرفها وعقل معانيها، وآمن بها دخل الجنة.

قال أبو عمرو الطَّلمنكي: (من تمام المعرفة بأسماء الله تعالى وصفاته التي يستحق بها الداعي والحافظ ما قال رسول الله ﷺ المعرفة بالأسماء والصفات وما تتضمن من الفوائد، وتدل عليه من الحقائق، ومن لم يعلم ذلك لم يكن عالما لمعاني الأسماء، ولا مستفيدا بذكرها وما تدلُّ عليه من

---

(١) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤٢١/١٠)، وفتح الباري (٢٢٦/١١).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤٢٠/١٠)، وانظر: شأن الدعاء (ص: ٢٧-٢٨)، وفتح الباري (٢٢٦/١١).

(٣) فتح الباري (٢٢٦/١١).

(٤) انظر: معجم مقاييس اللغة (٧٠/٢).

المعاني)[1].

المعنى الرابع: إن معنى الحديث أن يقرأ القرآن حتى يختمه فيستوفي هذه الأسماء كلها في أضعاف التلاوة، فكأنه قال: من حفظ القرآن وقرأه فقد استحق دخول الجنة، وقيل: المراد من تتبَّعها من القرآن.

قال النووي: (وقال بعضهم المراد حفظ القرآن وتلاوته كله لأنه مستوف لها وهو ضعيف والصحيح الأول)[2]، وقال الحافظ ابن حجر: (وقيل؛ المراد بالحفظ: حفظ القرآن لكونه مستوفيا لها، فمن تلاه دعا بما فيه من الأسماء حصل المقصود، قال النووي: وهذا ضعيف، وقيل: المراد من تتبَّعها من القرآن)[3].

والحق والصواب أن الإحصاء شامل لهذه الأمور جميعها، فلابد من الجمع بين الإحصاء النظري المتمثل في العلم بها وحفظها وحفظ النصوص الدالة عليها، والإحصاء الفقهيّ المتمثل في فهم معانيها ومدلولاتها والإيمان بآثارها والإحصاء العملي الذي هو العمل بمقتضاها ودعاء الله بها.

ثانيا: مراتب الإحصاء: مراتب إحصاء أسماء الله الحسنى ثلاثة:

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعدِّها؛ أي: "حفظها".

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: ١٨٠].

والدعاء هنا مرتبتان:

إحداهما: دعاء ثناء وعبادة.

والثاني: دعاء مسألة وطلب.

فلا يُثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى.

وكذلك لا يسأل إلا بها، فلا يقال: يا موجودُ، أو يا شيء، أو يا ذاتُ اغفر لي وارحمني، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيًا لذلك المطلوب، كأن يقول: يا غفور اغفر لي، يا رحيم ارحمني، يا توَّاب تُبْ عليَّ، فيكون السائل متوسلا إليه بذلك الاسم.

ومن تأمل أدعية الرُّسُل ولا سيما خاتمهم وإمامهم وجدها مطابقة لهذا.

فهذه مراتب إحصاء أسمائه التي من أحصاها دخل الجنة، وهذا هو قطب السَّعادة ومدار النَّجاة والفلاح[4].

عاشرا: آراء المخالفين لأهل السنة في باب الأسماء والصفات والرد عليها:

القسم الأول: أهل التشبيه والتمثيل[5]، ويقال لهم الممثلة، وهم الذين يزعمون أن صفات الله

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢٢٦/١١).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/١٧).

(٣) فتح الباري (٢٢٦/١١).

(٤) انظر: بدائع الفوائد (٢٨٨/١-٢٨٩).

(٥) من الذين قالوا بالتشبيه والتجسيم هشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي الرافضي، ويونس بن عبد الرحمن القمي، وأبي جعفر

تعالى مماثلة لصفات المخلوقين، فيقولون: لله وجه، ويدان وعينان، كوجوهنا وأيدينا وأعيننا ونحو ذلك.

ولا شك أن هذا القول في غاية البطلان والسقوط إذ هو صريح في التشبيه المحرم الذي نفاه الله عز وجل، وأجمع على نفيه أهل السنة والجماعة، ودل عليه العقل من أن صفات الرب تعالى لا يشبهه فيها شيء من المخلوقات، ولا يماثل هو سبحانه في شيء من صفاته صفات المخلوقات(١).

۞- قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:١٧]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٧٤]، وقال تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:٤].

۞- وانتفاء التماثل بين الخالق والمخلوق معلوم بصريح العقل؛ إذ أحدهما خالق والآخر مخلوق، وأحدهما رب والآخر مربوب، وأحدهما له صفات الكمال من جميع الوجوه غني بذاته عما سواه والآخر ناقص وفقير ومحتاج إلى من يساعده ويكمله، فكيف يصح أن يقال: أن الرب الخالق الغني الكامل من جميع الوجوه مشابه في صفاته للمخلوق المربوب الناقص المفتقر إلى من يكمله؟(٢).

۞- ولو تماثلا للزم أن يكون كل واحد منهما خالقا ومخلوقا، وربا ومربوبا، وغنيا وفقيرا، وكاملا وناقصا فيلزم اجتماع الضدين، فعلم أن التماثل بين الخالق والمخلوق منتف بصريح العقل كما هو منتف بنصوص الشرع(٣).

۞- الاتفاق في الاسم لا يلزم منه الاتفاق في الحقيقة: لأننا نشاهد في المخلوقات ما يتفق في الأسماء ويختلف في الحقيقة والكيفية، فنشاهد أن للإنسان يدا ليست كيد الفيل، وله قوة ليست كقوة الجمل، مع الاتفاق في الاسم؛ فهذه يد وهذه يد، وهذه قوة وهذه قوة، وبينهما تباين في الكيف والوصف.

وإذا كان التباين في الحقيقة والكيفية معقولا بين المخلوقات مع الاتفاق في الأسماء فالتباين بين

الأحول الذي كان يدعى شيطان الطاق، وداود الجواربي، وبيان بن سمعان التميمي؛ وكذلك يعزى شيء من التشبيه إلى الكرامية وهم أتباع محمد بن كرام السجستاني، ثم وصل هذا المرض إلى بعض أتباع أئمة المذاهب، وتمافت في ذلك من لم يكن له نصيب من الفهم الصحيح للكتاب والسنة. انظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين (ص: ٢٠٧-٢١٠)؛ والملل والنحل (ص: ٤٤-٤٥ و٦٥ و٧٨-٧٩)؛ واعتقاد فرق المسلمين والمشركين (ص: ٦٣-٦٧)؛ ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٨٥/٣ و٥١/٦)؛ وأسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة و الجماعة (ص: ١٥٥-١٥٧).

(١) انظر: رسالة إلى أهل الثغر (ص: ٢١٠-٢١٢)؛ وشرح العقيدة الطحاوية (ص: ٥٧).

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٦١-٦٢)؛ والقواعد المثلى للشيخ العثيمين (ص: ٢٦).

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٨٧/٣)؛ وشرح العقيدة الطحاوية (ص: ٦١-٦٢).

الخالق والمخلوق أظهر وأعظم[1] بل التماثل مستحيل بين الخالق والمخلوق.

۞- أن المتبادر إلى الذهن من معاني النصوص يختلف بحسب السياق وما يضاف إليه الكلام، فالكلمة الواحدة يكون لها معنى في سياق ومعنى آخر في سياق، فإذا قيل: إن للملائكة أجنحة، وللطائرات أجنحة، وللطيور أجنحة، وللبعوض أجنحة لا يفهم منه عاقل أن هذه الأجنحة متماثلة في المعنى، ومتساوية في الوصف والكيفية، بل ذلك معلوم البطلان لدى جميع العقلاء؛ فكل جناح منها له معنى مفهوم وصفة معلومة متبادرة إلى الذهن بحسب السياق وما أضيف إليه من الكلام.

فكذلك المعنى الظاهر المتبادر من لفظ اليد بالنسبة للمخلوق، هو كونها جارحة وهي عظم ولحم ودم، وهذا هو الذي يتبادر إلى الذهن في نحو قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٣٨] .

والمعنى الظاهر المتبادر من اليد بالنسبة للخالق في نحو قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥] أنها صفة كمال وجلال، لائقة بالله جل وعلا ثابتة له على الوجه اللائق بكماله وجلاله.

لأن التفاوت بين صفات الخالق وصفات المخلوق مثل التفاوت بين الخالق والمخلوق، فلا يعقل دخول صفة المخلوق في اللفظ الدال على صفة الخالق أو دخول صفة الخالق في اللفظ الدال على صفة المخلوق، فكل لفظ دل على صفة الخالق ظاهره المتبادر منه أن يكون لائقا بالخالق منزها عن صفات المخلوق[2].

فلا يجوز تمثيل شيء من صفاته بصفات المخلوقين بل هو سبحانه ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

القسم الثاني: أهل النفي والتعطيل، ويقال لهم: المعطلة، وهم الذين ينكرون ما ثبت لله تعالى من الأسماء والصفات، وينفونها عن الله تعالى سواء كان نفيهم وإنكارهم لها كليا أو جزئيا، ويزعمون أنه يلزم من إثباتها التشبيه، والله عز وجل ليس كمثله شيء فلا بد من نفيها وإنكارها تنزيها لله تعالى من التشبيه والتمثيل.

ولكن دعوى كون هذه النصوص دالة على التشبيه باطلة، بل إنها لجناية على النصوص، وتحميل لها ما لا تحتمل، وكيف تكون هذه النصوص دالة على التشبيه، وقد قال الله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

---

(١) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى (ص: ٢٦-٢٧).

(٢) انظر: أضواء البيان (٢٨٩/٧-٢٩٠)؛ والقواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى (ص: ٣٦-٣٧)؛ وأسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة (ص: ١٧٦).

شَيۡءٞ﴾[الشورى: ١١]

وإن الله تعالى هو الذي وصف نفسه بهذه الصفات في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وكلام الله وكلام رسوله ﷺ اجتمع فيهما كمال العلم وكمال الصدق وكمال البيان وكمال النصح، وهذه هي مقومات قبول الخبر، فيجب قبولها وتصديقها.

ويقال لهم: ألا تثبتون لله ذاتا لا تشبه ذوات المخلوقين؟ فسيقولون: بلي، فيقال: لهم: فكذلك صفاته تعالى لا تشبيه صفات المخلوقين، فإن القول في الصفات كالقول في الذات، فإن كنتم تثبتون لله ذاتا لا تشبه ذوات المخلوقين فكذلك أثبتوا صفات لا تشبه صفات المخلوقين.

درجات أهل النفي والتعطيل: وأهل النفي والتعطيل ليسوا كلهم على درجة واحدة بل هم على مراتب ودرجات[(١)]، وبيانها فيما يلي باختصار:

١- من ينفي عن الله تعالى جميع الأسماء والصفات، وهم الجهمية، والقرامطة، والباطنية والفلاسفة ومن تبعهم؛ فإنهم ينكرون جميع الأسماء والصفات، ويقولون: إن الله هو الموجود المطلق بشرط الإطلاق.

وهذا القول من أبطل الباطل، فإن كل موجود حقيقة لا بد له من صفة، ولا يمكن وجود ذات مجردة عن الصفات، فالموجود الحقيقي لا يخلو من صفة؛ بل يلزم أن يكون فيه أكثر من صفة[(٢)]، والموجود المطلق بشرط الإطلاق، -أي: الخالي من جميع الصفات- لا وجود له في الخارج المحسوس، وإنما هو أمر يفرضه الذهن، ولا يكون له وجود في الحقيقة، فتكون حقيقة القول به نفي وجود الله تعالى إلا في الذهن، وهذا غاية التعطيل والكفر[(٣)].

ولهم في الإنكار طريقتان، وكلتاهما باطلتان؛ بل إحداهما أبطل من الأخرى، وفيما يلي ذكرهما:

أ- وصف الله تعالى بالنفي المجرد عن الإثبات، فيقولون عن الله: لا موجود، ولا حي، ولا عليم، ولا قدير، ولا سميع، ولا بصير، وهكذا.

وهذه الطريقة باطلة، وذلك لما يلي:

١- أن الله تعالى جمع فيما سمى ووصف به نفسه بين النفي والإثبات قال تعالى: ﴿لَيۡسَ

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة (ص: ٢٢٨ -٢٢٩)؛ والمواقف في علم الكلام (ص: ٢٩٨)؛ وإيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص: ١٢٢-١٢٧ و٢٠٦-٢٠٧)؛ وإتحاف المريد شرح جوهرة التوحيد للقاني (مخطوط، ٢٤/ب)؛ وتحفة المريد شرح جوهرة التوحيد للبيجوري (ص: ٩٣)؛ ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٦٦/٤)؛ والصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية (ص: ٣٠٤)؛ والمعتزلة لزهدي جار الله (ص: ٨٥)؛ وفرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام (١١٣٠/٢).

(٢) انظر: القواعد المثلى (ص: ١٥ و٢٨).

(٣) انظر: تقريب التدمرية (ص: ٣٣).

كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى: ١١]؛ فمن اقر بالنفي وأنكر الإثبات فقد آمن ببعض الكتاب دون بعض، والكفر ببعض الكتاب كفر بالكتاب كله.

٢- ووصف الله تعالى بصفات الإثبات أدل على الكمال من وصفه بصفات النفي، لأن الإثبات أمر وجودي يقتضي تنوع الكمالات في حقه، وأما النفي فأمر عدمي لا يقتضي كمالاً إلا إذا تضمن إثباتاً، وهؤلاء النفاة لا يقولون بنفي يقتضي الإثبات.

ب- إنكار النفي والإثبات معا، فينفون عنه سبحانه الوجود والعدم، والحياة والموت، والعلم والجهل ونحو ذلك، ويزعمون أنه لا موجود ولا معدوم، ولا حي ولا ميت، ولا عالم ولا جاهل ونحو ذلك.

وهذه الطريقة أيضا باطلة بل هي أبطل من الأولى، فإنها تستلزم نفي النقيضين معاً، وهو ممتنع، لأن النقيضين لا يمكن اجتماعهما، ولا ارتفاعهما، بل لابد من وجود أحدهما وحده، فيلزم على قياس قولهم تشبيه الله بالممتنعات؛ لأنه يمتنع أن يكون الشيء لا موجوداً ولا معدوماً، ولا حياً ولا ميتاً، إلا أمراً يقدره الذهن ولا حقيقة له، ووصف الله سبحانه بهذا مع كونه مخالفاً لبداهة العقول كفر صريح بما جاء به الرسول.

٢- من يثبت الأسماء وينفي جميع الصفات، وهم المعتزلة ومن تبعهم كالزيدية، والرافضة الإمامية، والخوارج الإباضية، وهو أيضا قول النجارية والضرارية وهما من الجبرية، وكذلك وافقهم عليه ابن حزم (ت ٤٥٦هـ)، وابن تومرت (ت ٥٢٤هـ)، فهؤلاء جميعا يثبتون أسماء الله تعالى وينفون الصفات عن الله تعالى.

ولا شك أن هذا القول باطل، وبيان ذلك فيما يلي:

الأول: أن الله تعالى سمى نفسه بأسماء، ووصف نفسه بصفات، فإن كان إثبات الصفات يستلزم التشبيه فإثبات الأسماء كذلك، وإن كان إثبات الأسماء لا يستلزم التشبيه فإثبات الصفات كذلك، والتفريق بين هذا وهذا تناقض، فإما أن يثبتوا الجميع فيوافقوا السلف، وإما أن ينفوا الجميع فيوافقوا غلاة الجهمية والباطنية، وإما أن يفرقوا فيقعوا في التناقض.

الثاني: أن الله تعالى وصف أسماءه بأنها حسنى، وأمرنا بدعائه بها فقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[لأعراف: ١٨٠]. وهذا يقتضي أن تكون دالة على معاني عظيمة تكون وسيلة لنا في دعائنا، ولا يصح خلوها عنها ولو كانت أعلاماً محضة لكانت غير دالة على معنى سوى تعيين المسمى، فضلاً عن أن تكون حسن ووسيلة في الدعاء.

الثالث: أن الله تعالى أثبت لنفسه الصفات إجمالاً وتفصيلاً مع نفي المماثلة فقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]. وهذا يدل على أن إثبات الصفات لا يستلزم التمثيل، ولو كان يستلزم التمثيل لكان كلام الله متناقضاً.

الرابع: أن من لا يتصف بصفات الكمال لا يصلح أن يكون رباً ولا إلهاً، ولهذا عاب إبراهيم عليه الصلاة والسلام أباه باتخاذه ما لا يسمع ولا يبصر إلهاً فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢].

وطريقتهم في إنكار دلالة أسماء الله على صفاته: لهم في إنكار دلالة أسماء الله تعالى على صفاته اللائقة به سبحانه وتعالى طريقتان:

أ- فمنهم من يزعم أن أسماء الله تعالى مترادفة وأعلام محضة، فالعليم والقدير، والسميع والبصير في زعمهم شيء واحد، ولا تدل إلا على ذات الله فقط.

ولا شك أن هذا زعم فاسد وقول باطل؛ لأن دلالات الكتاب والسنة متضافرة على أن كل اسم منها دال على معناه المختص به مع اتفاقها على مسمى واحد وموصوف واحد. فالله تعالى هو الحي القيوم، السميع البصير، العليم القدير، فالمسمى والموصوف واحد، ولكن الأسماء والصفات متعددة. ولذلك جاء ذكر أكثر من اسم لله تعالى في موضع واحد من القرآن الكريم: قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ – ٢٤] فلو كانت أسماء الله تعالى مترادفة ترادفاً محضاً لكان ذكرها مجتمعة لغواً من القول لعدم الفائدة، وكلام الله منزه عن ذلك.

ب- ومنهم من يقول بأنها متباينة، وأن العليم غير السميع.. ولكنه عليم بلا علم، قدير بلا قدرة، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر... ونحو ذلك.

وهذا القول أيضا باطل بلا شك؛ فإنه مخالف لمقتضى اللسان العربي وغير العربي، فإنه من المعلوم في لغات جميع العالم أن المشتق دال على المعنى المشتق منه، وأنه لا يمكن أن يقال عليم لمن لا علم له، ولا قدير لمن لا قدرة له، ولا سميع لمن لا سمع له... ونحو ذلك، وهذا في الحقيقة مكابرة للعقل وهو كإثبات مصل بلا صلاة، وصائم بلا صوم، وقائم بلا قيام، ونحو ذلك من الأسماء المشتقة، كأسماء الفاعلين والصفات المعدولة عنها[1].

وإذا كان كذلك تعين أن تكون أسماء الله تعالى دالة على ما تقتضيه من الصفات اللائقة به؛ فيتعين إثبات الأسماء والصفات لخالق الأرض والسماوات.

---

(١) انظر: كتاب النبوات (٣٠٩/١).

٣- من يثبت الأسماء كلها، وكذلك يثبت بعض الصفات، ولكنه ينكر بعض الصفات وينفيها عن الله عز وجل، وهو قول الكلابية أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب، وقول أبي العباس القلانسي، وأبي الحسن الأشعري في طوره الثاني، وقدماء الأشاعرة كأبي الحسن الطبري، والباقلاني، وابن فورك، وأبي جعفر السمناني، ومن تأثر بهم من الحنابلة كالقاضي أبي يعلى، وابن عقيل، وأبي الحسن الزاغوني وغيرهم. ومنهم من يقول بإثبات سبع صفات فقط أو ثمان ونفي ما عداها، والصفات السبعة التي أثبتوها هي: الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة والكلام، ويزيد بعض الماتريدية صفة ثامنة، وهي التكوين، وما عداها من الصفات الثبوتية لايثبتونها.

وعمدتهم في الإثبات والنفي: إنهم اعتقدوا فيما نفوه أن إثباته يستلزم التشبيه؛ أي: التمثيل. وقالوا فيما أثبتوه: إن العقل قد دل عليه؛ فإن إيجاد المخلوقات يدل على القدرة، وتخصيص بعضها بما يختص به يدل على الإرادة، وإحكامها يدل على العلم، وهذه الصفات "القدرة، والإرادة، والعلم" تدل على الحياة؛ لأنها لا تقوم إلا بحي، والحي إما أن يتصف بالكلام والسمع والبصر - وهذه صفات كمال - أو بضدها - وهو الخرس والصمم والعمى - وهذه صفات ممتنعة على الله تعالى، فوجب ثبوت الكلام، والسمع، والبصر.

ولهم من نصوص الصفات التي ينفونها مسلكان: التأويل، والتفويض، ولذلك قال قائلهم:

(وكل نص أوهم التشبيها :: أوله أو فوضه ورم تنزيها)

فصاحب التأويل وصاحب التفويض كلاهما متفقان على أن ظاهر النص غير مراد، وأنه لا يدل على صفة تليق بالله تعالى؛ ولكن المؤول يحدد له معنى آخر من عنده، ويقول: هذا هو المراد، مثلا قوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، فيقول: المؤول: المراد باليد هنا القوة والقدرة، وليس المراد بها اليد الحقيقية اللائقة بالله تعالى، وأما المفوض فيقول: لا نعلم معناها، والله أعلم بمراده منها، ونكل الأمر إلى الله، ونكتفي بتلاوتها والتعبد بها، فالمفوضة يسكتون ويمسكون عن بيان معناها، فالمؤولة والمفوضة كلاهما متفقان في عدم إثبات اليد الحقيقية لله تعالى.

ولكن هذا القول وما اعتمدوا عليه والطريقة التي يسلكونها في هذا الباب كله باطل غير صحيح، وبيان ذلك بما يلي:

الأول: أن الرجوع إلى العقل والاعتماد عليه في هذا الباب غير صحيح، وذلك لما يلي:

أ- أنه مخالف لما كان عليه سلف الأمة من الصحابة، والتابعين، وأئمة الأمة من بعدهم، فما منهم أحد رجع إلى العقل في ذلك، وإنما يرجعون إلى الكتاب والسنة، فيثبتون لله تعالى من الأسماء والصفات ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسله إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل.

ب- إنه من الأمور الغيبية التي ليس للعقل فيها مجال، ولا يمكنه أن يدرك بالتفصيل ما يجب

ويجوز ويمتنع في حق الله تعالى، ومن العقل عدم إقحام العقل فيما لا يحسنه ولا يدركه، ولذلك تحكيم العقل في هذا الباب والاعتماد عليه في الحقيقة مخالف للعقل، ولا يقره العقل السليم.

ج- التحكيم إلى العقل في ذلك داع إلى الاختلاف والتناقض باستمرار، فإن لكل واحد منهم عقلاً يرى وجوب الرجوع إليه، ولذلك تجد أحدهم يثبت ما ينفيه الآخر، وربما يتناقض الواحد منهم فيثبت في مكان ما ينفيه – أو ينفي نظيره – في مكان آخر، فليس لهم قانون مستقيم يرجعون إليه.

الثاني: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر: إثبات بعض الصفات وإنكار بعضها الآخر تفريق بين متماثلين، فإن القول في بعض الصفات كالقول في بعض، فمن أثبت شيئاً مما أثبته الله لنفسه من الصفات ألزم بإثبات الباقي، ومن نفى شيئاً منه ألزم بنفي ما أثبته وإلا كان متناقضاً.

مثال ذلك: إذا كان المخاطب يثبت لله تعالى حقيقة الإرادة، وينفي حقيقة الغضب ويفسره: إما بإرادة الانتقام، وإما بالانتقام نفسه.

فيقال له: لا فرق بين ما أثبته من حقيقة الإرادة وما نفيته من حقيقة الغضب، فإن كان إثبات حقيقة الغضب يستلزم التمثيل، فإثبات حقيقة الإرادة يستلزمه أيضاً.

وإن كان إثبات حقيقة الإرادة لا يستلزمه، فإثبات الغضب لا يستلزمه أيضاً، لأن القول في أحدهما كالقول في الآخر، وعلى هذا يلزمك إثبات الجميع، أو نفي الجميع.

فإن قال: الإرادة التي أثبتها لا تستلزم التمثيل، لأنني أعني بها إرادة تليق بالله عز وجل لا تماثل إرادة المخلوق. قيل له: فأثبت لله غضباً يليق به ولا يماثل غضب المخلوق.

فإن قال: الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام وهذا لا يليق بالله تعالى.

قيل له: والإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة وهذا لا يليق بالله سبحانه وتعالى.

فإن قال: هذه إرادة المخلوق، وأما إرادة الله فتليق به.

قيل له: والغضب بالمعنى الذي قلت غضب المخلوق، وأما غضب الله فيليق به، وهكذا القول في جميع الصفات التي نفاها يقال له فيها ما يقوله هو فيما أثبته.

الثالث: يلزمهم في المعنى الذي زعموا أن العقل يوجبه نظير ما يلزمهم في المعنى الذي نفوه مع ارتكابهم تحريف الكتاب والسنة. مثال ذلك: أنهم يقولون: المراد بيد الله عز وجل القوة دون حقيقة اليد؛ لأن إثبات حقيقة اليد يستلزم التشبيه بالمخلوق الذي له يد. فيقال لهم: يلزمكم في إثبات القوة نظير ما يلزمكم في إثبات اليد الحقيقية؛ لأن للمخلوقات قوة، فإثبات القوة لله تعالى يستلزم التشبيه على قاعدتكم.

الرابع: يمكن إثبات ما نفوه بدليل عقلي، فأنهم نفوا صفة الرحمة، ويمكن إثباتها بالعقل، فإن النعم التي تترى على العباد من كل وجه، والنقم التي تدفع عنهم في كل حين؛ دالة على ثبوت الرحمة لله عز وجل، ودلالتها على ذلك أبين وأجلى من دلالة التخصيص على الإرادة، لظهور ذلك للخاصة والعامة، بخلاف دلالة التخصيص على الإرادة، فإنه لا يظهر إلا لأفراد من الناس.

الخامس: إن هذه الطريقة لا تندفع بها شبه المعتزلة والجهمية، لأنها طريقة لم يكن عليها النبي ﷺ،

ولا سلف الأمة وأئمتها، والبدعة لا تدفع بالبدعة، وإنما تدفع بالسنة، ولأن المعتزلة والجهمية يمكنهم أن يحتجوا لما نفوه على الأشاعرة والماتريدية بمثل ما احتج به الأشاعرة والماتريدية لما نفوه على أهل السنة، فيقولون: لقد أبحتم لأنفسكم نفي ما نفيتم من الصفات بما زعمتموه دليلا عقليا، وأولتم دليله السمعي، فلماذا تحرمون علينا نفي ما نفيناه بما نراه دليلا عقليا، ونؤول دليله السمعي؟، فلنا عقول كما أن لكم عقولا، فإن كانت عقولنا خاطئة فكيف كانت عقولكم صائبة؟، وإن كانت عقولكم صائبة فكيف كانت عقولنا خاطئة؟، وليس لكم حجة في الإنكار علينا سوى مجرد التحكم واتباع الهوى.

وهذه حجة دامغة، وإلزام صحيح من الجهمية والمعتزلة للأشعرية والماتريدية، ولا مدفع لذلك ولا محيص عنه، إلا بالرجوع لمذهب السلف الذين يطردون هذا الباب، ويثبون لله تعالى من الأسماء والصفات ما أثبته لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم إثباتا لا تمثيل فيه ولا تكييف، وتنزيها لا تعطيل فيه ولا تحريف، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[النور: ٤٠].

السادس: وأما التفويض فله جانبان: جانب يتعلق بمعنى هذه النصوص، وجانب يتعلق بكيفية اتصاف الباري بتلك الصفات، وهذا الجانب الأخير غير معلوم لنا، وقد سبق الحديث عنه، وهو مذهب السلف، وهو الذي تدل عليه الأدلة، وليس هو المراد عند القول بالتفويض والمفوضة، بل المراد به الجانب الأول، فإن المفوضة يقولون بتفويض معاني هذه النصوص، وهذا غير صحيح؛ فإن معنى هذه النصوص معلوم، وذلك بمقتضى اللغة العربية، والله تعالى قد أمرنا بالتدبر في كتابه، فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الزخرف: ٣]، وقال تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[الزمر: ٢٧ – ٢٨] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا المعنى.

فلو كنا لا نعلم معانيه فكيف يأمرنا بتدبر شيء لا نعلم معناه، فإن هذا من تكليف ما لا يطاق وهو منتفٍ في الشريعة الإسلامية.

والتدبر لا يكون إلا فيما يمكن الوصول إلى فهمه، ليتذكر الإنسان بما فهمه منه، فلما أمرنا بتدبره وتعقله علمنا أنه مما يمكن تدبره وتعقله،

والقرآن نزل في اللغة العربية، وذلك ليعقله من يفهم العربية، وهذا يدل على أن معناه معلوم لمن يعرف العربية، وإلا لما كان فرق بين أن يكون باللغة العربية أو غيرها.

والنبي ﷺ كان يتكلم بالعربية، وهو مأمور بالبيان والتبليغ، وبيانه القرآن للناس شامل لبيان لفظه

وبيان معناه، وهذا كله عام شامل لجميع الآيات القرآنية سواءً كانت من آيات الصفات أو غيرها.

ومن المحال أن ينزل الله تعالى كتابا، أو يتكلم رسوله صلى الله عليه وسلم بكلام (يقصد بهذا الكتاب وهذا الكلام أن يكون هداية للخلق)، ويبقى في أعظم الأمور وأشدها ضرورة مجهول المعني، بمنزلة الحروف الهجائية التي لا يفهم منها شيء، لأن ذلك من السفه الذي تأباه حكمة الله تعالى، وقد قال الله تعالى عن كتابه: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

فهذا كله يدل على علمنا بمعاني نصوص الصفات، فلا يصح القول بأن معاني نصوص الصفات غير معلومة لنا.

بيان الأصلين والمثلين في الرد على المخالفين لمذهب السلف في باب الأسماء والصفات:

هناك أصلان ومثلان ذكرهما شيخ الإسلام ابن تيمية للرد على المخالفين لمذهب السلف في باب الأسماء والصفات[1]، ومن المناسب ذكرهما هنا لما فيهما من التأييد والتأكيد والتقرير لمذهب السلف، ولما فيهما من الإبطال والرد على المخالفين،

فأما الأصلان: **فالأول منهما: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر.**

يقال لمن يثبت بعض الصفات دون بعض: القول في بعض الصفات كالقول في بعض. أي أن من أثبت شيئاً مما أثبته الله لنفسه من الصفات ألزم بإثبات الباقي، ومن نفى شيئاً منه ألزم بنفي ما أثبته وإلا كان متناقضاً، وقد سبق ذكر هذا الأصل عند بطلان مذهب الأشاعرة والماتريدية في باب الأسماء والصفات.

الأصل الثاني: القول في الصفات كالقول في الذات

يقال لمن يقر بذات الله تعالى ويمثل في صفاته أو ينفيها: القول في الصفات كالقول في الذات.

يعني أن من أثبت لله تعالى ذاتاً لا تماثل ذوات المخلوقين لزمه أن يثبت له صفات لا تماثل صفات المخلوقين، لأن القول في الصفات كالقول في الذات، وهذا الأصل يخاطب به أهل التمثيل، وأهل التعطيل من المعتزلة ونحوهم.

فيقال لأهل التمثيل: ألستم لا تمثلون ذات الله بذوات المخلوقين؟! فلماذا تمثلون صفاته بصفات خلقه؟ أليس الكلام في الصفات فرعاً عن الكلام في الذات؟!

ويقال لأهل التعطيل من المعتزلة ونحوهم: ألستم تقولون بوجود ذات لا تشبه الذوات؟ فكذلك قولوا بصفات لا تشبه الصفات!!

مثال ذلك: إذا قال: إن الله استوى على العرش فكيف استواؤه؟

فيقال له: القول في الصفات كالقول في الذات فأخبرنا كيف ذاته؟

فإن قال: لا أعلم كيفية ذاته.

قيل له: ونحن لا نعلم كيفية استوائه.

---

(١) انظر: التدمرية (ص: ٣١-٥٦)، ومجموع الفتاوى (٣/١٧-٣٤).

وحينئذ يلزمه أن يقر باستواء حقيقي غير مماثل لاستواء المخلوقين، ولا معلوم الكيفية، كما أقر بذات حقيقية غير مماثلة لذوات المخلوقين، ولا معلومة الكيفية.

وأما المثلان:

فأحدهما: نعيم الجنة: فقد أخبر الله تعالى أن في الجنة طعاماً وشراباً ولباساً، وزوجات، ومساكن، ونخلاً، ورماناً، وفاكهة، ولحماً، وخمراً، ولبناً، وعسلاً، وماءً، وحلية من ذهب ولؤلؤ وفضة وغير ذلك، وكله حق على حقيقته، وهو في الاسم موافق لما في الدنيا من حيث المعنى لكنه مخالف له في الحقيقة.

أما موافقته لما في الدنيا في المعنى فلأن الله تعالى قال عن القرآن: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣]، ولولا موافقته له في المعنى ما فهمناه ولا عقلناه.

وأما مخالفته له في الحقيقة، فقد قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]. وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مصداق ذلك في كتاب الله ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[السجدة: ١٧]»[(١)].

قال ابن عباس – رضي الله عنهما –: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء[(٢)].

فإذا كانت هذه الأسماء دالة على مسمياتها حقيقة، وكان اتفاقها مع ما في الدنيا من الأسماء لا يستلزم اتفاق المسميات في الحقيقة، بل بينهما من التباين ما لا يعلمه إلا الله، فإن مباينة الخالق للمخلوق أعظم وأظهر من مباينة المخلوق للمخلوق؛ لأن التباين بين المخلوقات تباين بين مخلوق ومخلوق مثله، فإذا ظهر التباين بينها كان بينها وبين الخالق أظهر وأولى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وإذا كان بين المخلوق والمخلوق قدر فارق مع نوع من إثبات القدر المشترك الذي يقتضي التناسب والتشابه من بعض الوجوه فمعلوم أن ما بين الخالق والمخلوق من المفارقة والمباينة أعظم مما بين المخلوق والمخلوق فهذا مما يوجب نفي مماثلة صفاته لصفات خلقه ويوجب أن ما بينهما من المباينة والمفارقة أعظم مما بين مخلوق ومخلوق)[(٣)].

المثل الثاني: الروح التي بها الحياة وهي أقرب شيء إلى الإنسان، بل هي قوام الإنسان، وقد وصفت في النصوص بأنها تقبض من البدن، ويصعد بها إلى السماء، وتعاد إلى البدن، ولا ينكر أحد وجودها حقيقة، وقد عجز الناس عن إدراك كنهها وحقيقتها، والأمر في ذلك كما قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥].

فإذا كانت الروح حقيقة، واتصافها بما وصفت به في الكتاب والسنة حقيقة، مع أنها لا تماثل الأجسام المشهودة، كان اتصاف الخالق بما يستحقه من صفات الكمال مع مباينته للمخلوقات من باب

---

(١) أخرجه البخاري (ك: بدء الخلق، ح: ٣٢٤٤)، ومسلم (ك: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ح: ٢٨٢٤)، واللفظ له.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (البقرة: الآية: ٢٥، ٤١٦/١).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (١٢٤/٦).

أولى، وكان عجز أهل العقول عن أن يحدوا الله أو يكيفوه أبين من عجزهم عن حد الروح وتكييفها...

الحاصل: فالله عز وجل موصوف بصفات الكمال، ومنزه من صفات النقص، فيجب الإيمان بما أثبت الله لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله من الصفات اللائقة به سبحانه، ويجب النفي والتنزيه عما نفاه الله عن نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله مع إثبات ضده على الوجه الأكمل اللائق بالله تعالى من غير تحريف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ومن غير مشابهة له بأحد من المخلوقين لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله على وفق قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فأول الآية رد على أهل التشبيه والتمثيل، وآخرها رد على أهل النفي والتعطيل.

قال نعيم بن حماد الخزاعي: (من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيها)[١].

فلا يكفي مجرد نفي التشبيه من غير إثبات، أو مطلق الإثبات من غير تنزيه بل لا بد من الجمع بين الإثبات والتنزيه كما جمع الله تعالى بينهما، إثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل، وهذا هو مذهب السلف وهو الحق الثابت بالكتاب والسنة، وكفى بهما هداية ورشدا ونورا.

الحادي عشر: دراسة بعض الصفات التي وردت في النصوص الشرعية:

١- الحياة: وهي صفة ذاتية ثابتة بالكتاب والسنة، والحي اسم من أسماء الله تعالى، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان: ٥٨]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، **أنت الحى الذى لا يموت، والجن والإنس يموتون**»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (كلامه وحياته من صفات الله كعلمه وقدرته)[٣].

فالله عز وجل موصوف بالحياة الكاملة التي لم تسبق بعدم، ولا يلحقها ضعف ولا زوال ولا سنة ولا نوم ولا موت ولا فناء، والحياة المستغنية عن الطعام والشراب والتغذية ونحوها، والحياة المستلزمة لكمال الصفات من العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والعزة والكبرياء والعظمة وغيرها[٤].

٢- اليدان: إن الله تعالى له يدان، وهي صفة ذاتية خبرية ثابتة لله تعالى على الوجه اللائق به سبحانه، وقد ورد ذكر صفة اليد لله تعالى في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة

---

(١) ذكره عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٩٦/٥).

(٢) أخرجه البخاري (ك: التوحيد، ح: ٧٣٨٣)، ومسلم (ك: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، ح: ٢٧١٧)، واللفظ له.

(٣) دقائق التفسير (١٠٢/٢).

(٤) انظر: القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى (ص: ١١).

موضع ورودا متنوعا، متصرفا فيه، مقرونا بما يدل على أنها يد حقيقة[1]، وفيا يلي ذكر شيء منها:

قال تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥] ، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٦٤]

فالله تعالى أنكر على اليهود نسبة يده إلى النقص والعيب، ولم ينكر عليهم إثبات اليد له تعالى، ولعنهم على وصف يده بالعيب دون إثبات يده بل رد عليهم، وبين أنها يدان مبسوطتان؛ فليس كما زعموا[2].

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن الله **يبسط يده بالليل** ليتوب مسيء النهار. **ويبسط يده بالنهار** ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»[3].

وجاء في حديث الشفاعة الطويل من حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم، فيقولون: أنت أبو الناس، **خلقك الله بيده**، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا...» الحديث[4].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما، فحج آدم موسى، قال موسى: أنت آدم الذي **خلقك الله بيده**، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته...» الحديث[5].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك وسعديك، **والخير في يديك**. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب! وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب! وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا»[6].

وقال أبو الحسن الأشعري: (وأجمعوا على أنه عز وجل يسمع ويرى، وأن له تعالى يدين مبسوطتين، وأن الأرض جميعا قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه)[7].

وقال أبو بكر الإسماعيلي: (وخلق آدم بيده، ويداه مبسطتان ينفق كيف يشاء بلا اعتقاد كيف يداه؛ إذ لم ينطق كتاب الله تعالى فيه بكيف)[8].

---

(١) انظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (١٧٠/٢).

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (١٥٨/٢).

(٣) أخرجه مسلم (ك: التوبة، ح ٢٧٥٩).

(٤) أخرجه البخاري (ك: التفسير، ح: ٤٤٧٦)، واللفظ له؛ ومسلم (ك: الإيمان، ح: ١٩٣).

(٥) أخرجه البخاري (ك: التفسير، ح: ٤٧٣٦)؛ ومسلم (ك: القدر، ح: ٢٦٥٢)؛ واللفظ له.

(٦) أخرجه البخاري (ك: التوحيد، ح:٧٥١٨)، واللفظ له؛ ومسلم (ك: صفة القيامة والجنة والنار، ح:٢٨٢٩).

(٧) رسالة إلى أهل الثغر (ص: ٢٢٥-٢٢٦).

(٨) اعتقاد أئمة أهل الحديث (ص: ٥١).

ولا يصح تأويل اليد بالنعمة؛ لأن نعم الله كثيرة لا تعد ولا تحصى، ولا بالقدرة؛ لأنها عامة شاملة لجميع الخلق، ولا يبقى فيه ميزة ولا خصوصية لآدم عليه السلام الذي خلقه الله تعالى بيده[1]، قال الإمام أبو حنيفة: (ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته لأن فيه إبطال الصفة، وهو قول أهل القدر والاعتزال، ولكن يده صفة بلا كيف)[2].

٣- الغضب: الغضب صفة فعلية خبرية ثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [الممتحنة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [طه: ٨١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق، كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي»[3]. وجاء في حديث الشفاعة الطويل من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فيأتون آدم عليه السلام، فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده. ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد بلغنا، فيقول آدم: **إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله**...»، وكذلك يقول ذلك نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، ويعتذرون عن التقدم للشفاعة بين يدي الله تعالى في الموقف[4].

قال أبو جعفر الطحاوي: (والله يغضب ويرضى، لا كأحد من الورى)[5]، وقال ابن أبي العز في شرحه: (ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضى والعداوة والولاية والحب والبغض ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى)[6].

٤- الاستواء: الاستواء على العرش صفة فعلية خبرية ثابتة لله تعالى، وتدل عليه آيات من الكتاب، قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[طه: ٥]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤] و[يونس: ٣] و[الرعد: ٢] و[الفرقان: ٥٩] و[السجدة: ٤] و[الحديد: ٤]؛ فاستواء الله عز وجل على العرش مذكور في القرآن في سبعة مواضع: في موضع باللفظ الأول، وفي ستة مواضع باللفظ الثاني.

وقد ذكر السلف لمعنى الاستواء ألفاظاً أربعة كلها مترادفة ومتقاربة، فقالوا هو: الارتفاع والعلو والصعود والاستقرار، وهذه المعاني الأربعة كلها منقولة عن السلف من الصحابة وغيرهم، وهم وإن اختلفت عباراتهم ولكن مقصودهم واحد، وهو إثبات علو الله على عرشه، ولذلك فسروا الاستواء بما

---

(١) انظر للتفصيل: المسائل العقدية المتعلقة بآدم عليه السلام (١/١١٥-١٤٤).

(٢) الفقه الأكبر المنسوب إلى أبي حنيفة مع شرحه "الشرح الميسر" لمحمد الخميس (ص: ٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (ك: بدء الخلق، ح: ٣١٩٤)، واللفظ له، ومسلم (ك: التوبة، ح: ٢٧٥١).

(٤) أخرجه البخاري (ك: التفسير، سورة بني إسرائيل، ح: ٤٧١١) واللفظ له، ومسلم (ك: الإيمان، ح: ١٩٤).

(٥) العقيدة الطحاوية (ص: ٢٨).

(٦) شرح العقيدة الطحاوية (٢/٦٨٥)، وانظر: درء تعارض العقل والنقل (٣/-٣٨٠-٣٨٥).

يتضمن الارتفاع فوق العرش[1].

ولا يصح تأويل استوى بـ"استولى" لأن استوى لم يرد بمعنى استولى في اللغة العربية، ولأن الاستيلاء فيه معنى المنازعة والمغالبة، ولا أحد من الخلق يستطيع أن ينازع الله ويغالبه في شيء، ولأن استواء الله خاص بالعرش وأما استيلاؤه فهو على كل شيء[2].

قال ابن خزيمة: (فنحن نؤمن بخبر الله جل وعلا أن خالقنا مستو على عرشه، لا نبدل كلام الله، ولا نقول قولا غير الذي قيل لنا، كما قالت المعطلة الجهمية: إنه استولى على عرشه، لا استوى، فبدلوا قولا غير الذي قيل لهم، كفعل اليهود كما أمروا أن يقولوا: حطة، فقالوا: حنطة، مخالفين لأمر الله جل وعلا كذلك الجهمية)[3].

٥- العلو: العلو صفة ذاتية ثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة، ومن أسمائه (العلي) و(الأعلى) و(المتعال)، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١]، وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٩]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤]، وقال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[الزمر: ١]، وقال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[طه: ٥]، وقال تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك: ١٦ – ١٧].

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، **ثم يعرج الذين باتوا فيكم**، فيسألهم -وهو أعلم بهم-: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون»[4].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا** حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»[5].

---

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية (ص: ٣١٧).

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة (٣/٨٩٠ و٨٩٨)، وشرح العقيدة الواسطية للعثيمين (ص: ٣١٩).

(٣) كتاب التوحيد (١/٢٣٣).

(٤) أخرجه البخاري (ك: مواقيت الصلاة، ح: ٥٥٥)، ومسلم (ك: المساجد ومواضع الصلاة، ح: ٦٣٢).

(٥) أخرجه البخاري (ك: التهجد، ح: ١١٤٥) ومسلم (ك: صلاة المسافرين، ح: ١٨٠٨).

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يومٍ أكثر مِنْ أَنْ يُعْتق اللهُ فيه عبداً من النّار من يوم عرفة، وإنّه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول ما أراد هؤلاء؟»[1]. وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أفضل عند الله من أيام عشر من ذي الحجة». قال: فقال رجل: يا رسول الله، هنّ أفضل أمْ عدّتهنّ جهاداً في سبيل الله؟ قال: «هنّ أفضل من عدّتهن جهادا في سبيل الله. وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة؛ **ينزل الله إلى السّماء الدّنيا فيباهي بأهل الأرض أهل السّماء** فيقول: انظروا إلى عبادي شُعْثاً غُبْراً ضاحين جاؤوا من كلِّ فجٍّ عميق يرجون رحمتي ولم يروا عذابي، فلمْ يُرَ يومٌ أكثرُ عتقاً من النّار من يوم عرفة»[2].

وقصة معراج النبي ﷺ، وتردده بين موسى عليه السلام وبين ربه حين فرضت عليه الصلوات الخمس.

والأدلة على علو الله تعالى كثيرة ومحكمة وواضحة ومتواترة لا تدع مجالا للشك في ذلك، قال ابن أبي العز: (ومن سمع أحاديث الرسول ﷺ وكلام السلف وجد منه في إثبات الفوقية ما لا ينحصر... وإذا كان صفة العلو والفوقية صفة كمال، لا نقص فيه، ولا يستلزم نقصا، ولا يوجب محذورا، ولا يخالف كتابا، ولا سنة، ولا إجماعا؛ فنفي حقيقته يكون عين الباطل، والمحال الذي لا تأتي به شريعة أصلا؛ فكيف إذا كان لا يمكن الإقرار بوجوده وتصديق رسله، والإيمان بكتابه وبما جاء به رسوله إلا بذلك؟! فكيف إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السليمة، والفطر المستقيمة، والنصوص الواردة المتنوعة المحكَمة على علو الله على خلقه، وكونه فوق عباده التي تقرب من عشرين نوعا)، وسردها مقرونة بالأدلة، ثم قال: (وهذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو ألف دليل؛ فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله! وهيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلك!)[3].

أقسام العلو: العلو له ثلاثة أقسام[4]:

١. علو الذات، ومعناه أن الله بذاته فوق خلقه.

٢. علو القدر، ومعناه أن الله ذو قدر عظيم لا يساويه فيه أحد من خلقه، ولا يعتريه معه نقص.

٣. علو القهر، ومعناه أن الله تعالى قهر جميع المخلوقات فلا يخرج أحد منهم عن سلطانه وقهره.

ويمكن أن يقال: (إن علو الله عز وجل ينقسم إلى قسمين: علو معنوي, وعلو ذاتي)[5]، وفي هذا

---

(١) أخرجه مسلم (ك: الحج، ح: ١٣٤٨).

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤/٦٩-٧٠ ح: ٢٠٩٠) والبزار كما في كشف الأستار (٢/٢٨ ح: ١١٢٨) وابن حبان (٣٨٥٣) قال الهيثمي في المجمع (٤/٨): "إسناده حسن ورجاله ثقات".

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (٢/٣٧٩-٣٨٦)، وانظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/٦٧-٧٥)، والكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (ص: ٧٣-١٠٤).

(٤) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (٢/٣٨٨).

(٥) شرح العقيدة الواسطية للعثيمين (ص: ٣٢٩).

التقسيم يكون القسم الثاني والثالث داخلا في الأول.

الفرق بين الاستواء والعلو: واستواء الله تعالى على عرشه هو علوه عليه، لكن الاستواء علو خاص، فكل مستو على شيء عال عليه، وليس كل عال على شيء مستوياً عليه، ولهذا لا يقال لكل ما كان عالياً على غيره إنه مستو عليه، واستوى عليه، ولكن كل ما قيل فيه: إنه استوى على غيره فإنه عال عليه.

والذي أخبر الله أنه كان بعد خلق السماوات والأرض الاستواء لا مطلق العلو، فعلوه على المخلوقات وصف لازم له كما أن عظمته وكبرياءه، وقدرته كذلك، وأما الاستواء فهو فعل يفعله – سبحانه، وتعالى – بمشيئته، وقدرته.

فالاستواء من الألفاظ المختصة بالعرش لا تضاف إلى غيره لا خصوصاً، ولا عموماً. ولذلك اتفق المسلمون على أن يقال: استوى على العرش، ولا يقال استوى على هذه الأشياء أي: على البحار، والأرض، وغيرها.

العلو صفة ذاتية والاستواء صفة فعلية.

العلو من الصفات المعلومة بالسمع مع العقل، والاستواء على العرش من الصفات المعلومة بالسمع لا بالعقل.

العلو عام والاستواء علو خاص بالعرش.

والله عز وجل له العلو المطلق من كل وجه، ولكن نفاة الصفات يؤلون العلو والفوقية بالأفضلية والخيرية، وهذا غير صحيح قال ابن أبي العز: (ومن تأول فوق بأنه خير من عباده وأفضل منهم، وأنه خير من العرش وأفضل منه، كما يقال: الأمير فوق الوزير، والدينار فوق الدرهم، فذلك مما تنفر عنه العقول السليمة، وتشمئز منه القلوب الصحيحة؛ فإن قول القائل ابتداء: الله خير من عباده، وخير من عرشه: من جنس قوله: الثلج بارد، والنار حارة، والشمس أضوأ من السراج، والسماء أعلى من سقف الدار، والجبل أثقل من الحصى، ورسول الله أفضل من فلان اليهودي، والسماء فوق الأرض!! وليس في ذلك تمجيد، ولا تعظيم، ولا مدح؛ بل هو من أرذل الكلام، وأسمجه، وأهجنه! فكيف يليق بكلام الله الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، لما أتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا؟! بل في ذلك تنقص كما قيل في المثل السائر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

ولو قال قائل: الجوهر فوق قشر البصل وقشر السمك! لضحك منه العقلاء؛ للتفاوت الذي بينهما، فالتفاوت الذي بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم، بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلك بأن كان احتجاجا على مبطل، كما في قول يوسف الصديق عليه السلام: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ

﴿مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[طه: ٧٣]

وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه، فله سبحانه وتعالى فوقية القهر وفوقية القدر وفوقية الذات، ومن أثبت البعض ونفى البعض فقد تنقص وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه)[١].

٦- النزول: معنى النزول في اللغة: مجيء الشيء من علو إلى سفل. قال ابن القيم: (هذا هو المفهوم منه لغة وشرعا)[٢]، والنزول صفة فعلية خبرية ثابتة لله عز وجل بالسنة الصحيحة.

ونزول الرب تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا قد تواترت الأخبار به عن رسول الله ﷺ، وقد نص على ذلك أبو زرعة الرازي، وابن القيم والذهبي وابن عبد الهادي، والكتاني وغيرهم من أهل العلم[٣].

فقد رواه عن النبي ﷺ نحو ثلاثين صحابيا، ومنهم المتقدم في الإسلام ومنهم المتأخر في الإسلام، وهذا يدل على أن النبي ﷺ كان يتكلم به ويقرره ويكرره مرات وكرات في كل موطن ومجمع[٤].

ومن الصحابة الذين رووا حديث النزول: أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، عبد الله بن عباس، وأبو هريرة، وأنس بن مالك، وحذيفة بن اليمان، عبادة بن الصامت، وجبير بن مطعم، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن مسعود، وأبو سعيد الخدري، ومعاذ بن جبل، وأبو ثعلبة الخشني، وعائشة وأم سلمة، وأسماء بنت يزيد وخولة بن حكيم، وخلق سواهم.

وهذه الروايات ذكرها الدارقطني في كتاب الصفات، وشيخ الإسلام ابن تيمية في شرح حديث النزول وابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة، ويرجع إليها للتفصيل والاستزادة، وهنا أكتفي بذكر حديث واحد فقط، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»[٥].

والنزول هنا مضاف إلى الله عز وجل، فالمراد به نزول الرب إلى السماء الدنيا حقيقة، ولا يصح تأويله بنزول أمر الله أو رحمته أو نعمته أو أحد من ملائكته، لأن أمر الله ورحمته ونعمته تنزل دائما وأبدا في كل حين وآن، ولا يختص نزولها بالثلث الأخير من الليل، ولا يكون نزولها إلى السماء الدنيا فقط،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٢/٣٨٧-٣٨٨)، وانظر: مختصر الصواعق المرسلة (٣/٩٣٢-٩٢٥).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (٣/١١٠٠).

(٣) انظر للتفصيل: تهذيب السنن (٧ / ١٠٨)، ومختصر الصواعق المرسلة (٣/١١٠٠ و١١٠٨)، والعلو للذهبي (ص: ٧٣)، والصارم المنكي (ص: ٣٠٤)، وعمدة القاري (٧/ ١٩٩) والنظم المتناثر للكتاني (ص (١٩١).

(٤) انظر للتفصيل: مختصر الصواعق المرسلة (٣/١١٠٨).

(٥) أخرجه البخاري (ك: التهجد، ح: ١١٤٥) ومسلم (ك: صلاة المسافرين، ح: ١٨٠٨).

وليس لساكني الأرض أي فائدة في نزولها إلى السماء الدنيا فقط، والملك لا يقول: «من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»، وصدور هذا من الملك غير لائق به بل غير معقول البتة، فإنهم عباد مكرمون ومعصومون من الذنوب[1]، قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ – ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

مواقف الطوائف من أحاديث النزول:

١– من آمن بها مع تنزيه الله عن الكيفية والتشبيه، وهم جمهور السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم، ومنهم الأئمة الأربعة وغيرهم من السلف.

٢–من أثبتها وحملها على ظاهرها غير أنه جعل صفة الله من جنس صفات المخلوقين. وهم المشبهة.

٣–من أثبتها ولكنه أولها بنزول الأمر والرحمة أو ملك من الملائكة، وهم الأشاعرة والماتردية.

٤– من أنكرها جملة، وهم الخوارج والمعتزلة.

٧– الرؤية: الكلام عن الرؤية له جانبان، وفيما يلي ذكرهما باختصار:

أولا: الرؤية من حيث كونها صفة لله تعالى: الرؤية –كالبصر والنظر– صفة ذاتية ثابتة لله تعالى، ثابتة بالكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]

وقال النبي ﷺ في شرح الإحسان لما سأله عنه جبريل عليه السلام فقال: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك...» الحديث[2].

وقال قوام السنة أبو القاسم التيمي: (واجب على كل مؤمن أن يثبت من صفات الله عز وجل ما أثبته الله لنفسه، وليس بمؤمن من ينفي عن الله ما أثبته الله لنفسه في كتابه، فرؤية الخالق لا تكون كرؤية المخلوق، وسمع الخالق لا يكون كسمع المخلوق، قال الله تعالى: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة:١٠٥]، وليس رؤية الله تعالى بني آدم كرؤية رسول الله ﷺ والمؤمنين وإن كان اسم الرؤية يقع على الجميع...جل وتعالى عن أن يشبه صفة شيء من خلقه صفته، أو فعل أحد من خلقه

---

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية للعثيمين (ص: ٣٩٩–٤٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (ك: الإيمان، ح: ٥٠، ك: التفسير، ح: ٤٧٧٧)؛ ومسلم (ك: الإيمان، ح: ٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهذا لفظه، وأخرجه مسلم (ك: الإيمان، ح: ٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فعله، فالله تعالى يرى ما تحت الثرى وما تحت الأرض السابعة السفلى وما في السموات العلى، لا يغيب عن بصره شيء من ذلك ولا يخفى، يرى ما في جوف البحار ولججها، كما يرى ما في السموات، وبنو آدم يرون ما قرب من أبصارهم، ولا تدرك أبصارهم ما يبعد منهم، ولا يدرك بصر أحد من الآدميين ما يكون بينه وبينه حجاب، وقد تتفق الأسامي وتختلف المعاني)[1].

ونظر الله إلى عباده ومخلوقاته ورؤيته لهم ولأعمالهم عام شامل محيط بجميع الخلق وأعمالهم وهو الذي تدل عليه عامة الأدلة من القرآن والسنة ولكن الله عز وجل قد يخص بعض خلقه بالنظر إليهم على وجه الخصوص، وفي ذلك مزيد فضل وشرف وعناية وحفظ ورعاية ونصر وتأييد لهم، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ [هود:٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه:٣٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد جاء في القرآن والسنة في غير موضع أنه يخص بالنظر والاستماع بعض المخلوقات...وتخصيص من يحب بالنظر والاستماع المذكور يقتضي أن هذا النوع منتف عن غيرهم)[2].

ثانيا: رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة: أهل السنة والجماعة يؤمنون أن المؤمنين يرون ربهم عيانا يوم القيامة، والأدلة عليه كثيرة وهو أمر مجمع لدى أهل السنة والجماعة، وفيما يلي ذكر شيء منها:

أ- من الكتاب: قال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾[القيامة: ٢٢ – ٢٣]، هذا من أوضح الأدلة على رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، فإن إضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية، وتعديته بأداة "إلى" الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلاف حقيقته وموضوعه صريح في أن الله أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى الرب جل جلاله.

فإن النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه:

١-فإن عدي بنفسه فمعناه: التوقف والانتظار، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾[الحديد: ١٣]

٢- وإن عدي بـ"في" فمعناه: التفكر والاعتبار، قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ

(١) الحجة في بيان المحجة (١/١٩٦-١٩٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/١٣٣).

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾[الأعراف: ١٨٥]

٣- وإن عدي بـ" إلى" فمعناه : المعاينة بالأبصار قال تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾[الأنعام: ٩٩]

فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر؟ فهذا واضح في الدلالة على رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة(١).

وقال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[يونس: ٢٦]، والمراد بالحسنى الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجهه الكريم، فسرها بذلك النبي ﷺ فعن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل، ثم تلا هذه الآية: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾[يونس: ٢٦]»(٢).

وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فالكفار يوم القيامة يكونون محجوبين عن ربهم، وذلك يقتضي أن المؤمنين لا يكونون محجوبين عن ربهم بل يرونه سبحانه وتعالى بأبصارهم، قال السعدي: (ودل مفهوم الآية على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويبتهجون بخطابه، ويفرحون بقربه، كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله)(٣).

ب- من السنة النبوية: الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ الدالة على الرؤية متواترة، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن، ورواها عن النبي ﷺ نحو ثلاثين صحابيا(٤)، منهم أبو هريرة وأبو سعيد الخدري، وجرير بن عبد الله البجلي، وصهيب الرومي، وعدي بن حاتم، وهؤلاء الصحابة الذين ذكرت أسماءهم الآن أحاديثهم في البخاري ومسلم، وفيما يلي ذكر شيء منها:

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/٢٠٩-٢١٠).

(٢) أخرجه مسلم (ك: الإيمان، ح:١٨١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ١٠٨٠).

(٤) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/٢١٥-٢١٨).

عن جرير بن عبد الله ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «إنكم سترون ربكم عيانا»[1].

وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، قال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس، فافعلوا»[2].

وعن أبي هريرة ﷺ أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في القمر ليلة البدر؟». قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟». قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «فإنكم ترونه كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها أو منافقوها -شك إبراهيم- فيأتيهم الله، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاءنا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه...» الحديث[3].

وفي هذا الحديث والذي قبله تشبيه للرؤية بالرؤية، وليس للمرئي بالمرئي.

ج- الإجماع: رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة أمر مجمع عليه عند أهل السنة والجماعة، وقد حكى الإجماع على ذلك الإمام أحمد في رده على الزنادقة والجهمية، والدارمي في رده على بشر المريسي، وابن خزيمة في التوحيد، وابن مندة في الرد على الجهمية، والبيهقي في الاعتقاد، وأبو الحسن الأشعري في الإبانة ورسالته إلى أهل الثغر وغيره من كتبه، ووالآجري واللالكائي والنووي وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم[4].

د- الدليل العقلي على رؤية الله تعالى في الآخرة: قال ابن القيم: (اتفق الشرع والعقل على إمكان الرؤية ووقوعها، فإن الرؤية أمر وجودي لا يتعلق إلا بموجود، وما كان أكمل وجودا كان أحق أن يُرى، فالباري سبحانه أحق أن يرى من كل ما سواه، لأن وجوده أكمل من كل موجود سواه.

ويوضحه أن تعذر الرؤية إما لخفاء المرئي وإما لآفة وضعف في الرائي، والرب سبحانه أشهر من كل موجود، وإنما تعذرت رؤيته في الدنيا لضعف القوة الباصرة عن النظر إليه، فإذا كان الرائي في دار البقاء كانت قوة البصر في غاية القوة لأنها دائمة، فقويت على رؤيته تعالى)[5].

عجز الأبصار عن رؤيته سبحانه في الدنيا: الإنسان لا يطيق رؤية الله تعالى بأبصاره في هذه

---

(١) أخرجه البخاري (ك: التوحيد، ح: ٧٤٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (ك: التوحيد، ح: ٧٤٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (ك: التوحيد، ح: ٧٤٣٧)، ومسلم (ك: الإيمان، ح:١٨٢).

(٤) انظر للتفصيل والتوثيق لهذه الأقوال: المسائل العقدية التي حكى فيها ابن تيمية الإجماع (ص: ٥٠٠-٥٠٥).

(٥) مختصر الصواعق المرسلة (٢/٥٢٣-٥٢٤).

الدنيا، وذلك لضعف بنيته وقواه، ولكن الله عز وجل يوم القيامة يكمل قواهم فيطيقون رؤيته تعالى بأبصارهم، قال ابن أبي العز: (وإنما لم نره في الدنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرؤية، فهذه الشمس إذا حدَّق الرائي البصر في شعاعها ضعف عن رؤيتها، لا لامتناع في ذات المرئي؛ بل لعجز الرائي، فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقوا رؤيته)[1].

وأما دعوى من يدعي من الصوفية وغيرهم بأنهم يرون الله عز وجل عيانا، وأنهم يحادثونه مشافهة، ويخاطبونه مواجهة ومباشرة، فهذا كله باطل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (كل من ادعى أنه رأى ربه بعينيه قبل الموت فدعواه باطلة باتفاق أهل السنة والجماعة؛ لأنهم اتفقوا جميعهم على أن أحدا من المؤمنين لا يرى ربه بعيني رأسه حتى يموت)[2].

٨- الكلام: صفة الكلام من الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ، وقد جاء بيان ذلك في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في أكثر من ثلاثة آلاف موضع -كما ذكر ابن القيم -رحمه الله-[3]. وهنا أكتفي بذكر بعض الأدلة الدالة على كلام الله تعالى من القرآن الكريم والسنة النبوية.

أولا: الأدلة من الكتاب: الأدلة في كتاب الله تعالى على ثبوت صفة الكلام له تعالى كثيرة يصعب حصرها والإحاطة بأجزاء أفرادها؛ فأكتفي بذكر بعض أنواعها الدالة على كلام الله تعالى من كلامه المجيد.

١- ما جاء بلفظ القول: قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

٢- ما جاء بلفظ النداء: قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢و٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

٣- ما جاء بلفظ الكلام: قال تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/٢٢٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٣٨٩)، والحديث أخرجه مسلم (ك: الفتن وأشراط الساعة، ح: ٢٩٣١).

(٣) انظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٢/٢٩٧-٢٩٨).

ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦].

٤- ما جاء بلفظ الأمر: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

٥- ما جاء بلفظ الشهادة: قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨]، وقال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ ﴾ [النساء: ١٦٦].

ثانيا: الأدلة من السنة النبوية: لا شك أن الرسول ﷺ هو أعرف الخلق بالله تبارك وتعالى، وأفهمهم لكتابه، وأعلمهم بمقصوده ومراده؛ فهو الشارح الاكبر والمفسر الأعظم لكتاب الله تعالى، ولا يمكن فهم كتاب الله تعالى فهما صحيحا سليما إلا في ضوء السنة النبوية المباركة، وقد جاء بيان ثبوت صفة الكلام لله تعالى في أحاديث كثيرة، وهنا أكتفي بذكر حديثين فقط.

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه و بينه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه؛ فاتقوا النار ولو بشق تمرة»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله يقول لأهون أهل النار عذابا: لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به؟ قال: نعم. قال: فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك بي، فأبيت إلا الشرك»(٢).

فهذه النصوص الشرعية من كتاب ربنا تبارك وتعالى وسنة نبينا ﷺ فيها بيان واضح ودلالة متنوعة على ثبوت صفة الكلام لله تعالى على الوجه اللائق به سبحانه.

قال ابن القيم: (وقد نوع الله تعالى هذه الصفة في إطلاقها عليه تنويعا يستحيل معه نفي حقائقها بل ليس في الصفات الإلهية أظهر من صفة الكلام والعلو والفعل والقدرة بل حقيقة الإرسال تبليغ كلام الرب تبارك وتعالى، وإذا انتفت عنه حقيقة الكلام انتفت حقيقة الرسالة والنبوة، والرب تبارك وتعالى يخلق بقوله وكلامه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢] فإذا انتفت حقيقة الكلام عنه انتفى الخلق... فإذا كان كلامه وتكليمه وخطابه ونداؤه وقوله وأمره ونهيه ووصيته وعهده وإذنه وحكمه

(١) أخرجه البخاري (ك: التوحيد، ح: ٧٥١٢)؛ ومسلم (ك: الزكاة، ح: ١٠١٦).

(٢) أخرجه خ (ك: أحاديث الأنبياء، ح: ٣٣٣٤)، واللفظ له؛ ومسلم (ك: صفة القيامة والجنة والنار، ح: ٢٨٠٥).

وإنباؤه وإخباره وشهادته كل ذلك لا حقيقة له بطلت الحقائق كلها)[1].

اتفاق السلف الصالح على إثبات صفة الكلام لله تعالى: لقد اتفق السلف الصالح على إثبات صفة الكلام لله تعالى كما هو شأنهم في جميع الصفات، إثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل، من غير أن يخوضوا في البحث عن كيفيتها والتعرف على ماهيتها بل يثبتونها لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله وعظمته وكماله، فيثبتون له كلاما حقيقيا بحرف وصوت يسمعه المخاطب ويحفظه ويتلوه، ويصفونه بما وصف به نفسه من القول والكلام والنداء والمناجاة كما ينبغي له تعالى[2].

الكلام من صفات الله الذاتية والفعلية: الصفات التي أثبتها الله تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ من حيث تعلقها بالله تعالى تنقسم إلى قسمين: ذاتية وفعلية.

وصفة الكلام اجتمع فيها القسمان: الذاتية والفعلية[3] فهي من الصفات الذاتية له سبحانه وتعالى باعتبار نوع الكلام، فهو سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال متكلما ولم تتجدد له هذه الصفة بل كونه متكلما من لوازم ذاته المقدسة قائمة به سبحانه وتعالى من الأزل إلى الأبد، فهو موصوف به أزلا وأبدا كما يليق بجلاله وعظمته تعالى.

وهي من الصفات الفعلية له سبحانه وتعالى باعتبار أفراد الكلام، فهو سبحانه وتعالى يكلم من شاء بما شاء متى شاء، فكلامه مع الملائكة عن خلق آدم عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١] غير الكلام الذي خاطب به آدم وزوجه –عليهما السلام– فقال: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥]، وكلامه مع آدم عليه السلام غير الكلام الذي خاطب به نوحا عليه السلام في شأن ابنه فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، وكلامه مع نوح عليه السلام غير كلامه الذي خاطب به موسى عليه السلام فقال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، وكلامه مع موسى عليه السلام غير الكلام الذي خاطب به النبي ﷺ ليلة المعراج في شأن الصلاة فقال: «إني قد

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية و المعطلة (٢/٢٨٥-٢٨٦).

(٢) انظر: الرد على الزنادقة والجهمية (ص: ٢٦)؛ واعتقاد أئمة أهل الحديث (ص: ٥٧-٦٠)؛ وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/٢١٦-٣٦٢)؛ ورسالة السجزي إلى أهل زبيد (ص: ١٠٥)؛ وعقيدة السلف أصحاب الحديث (ص: ٧-١٤)؛ والاقتصاد في الاعتقاد (ص: ١٣٠)؛ ولمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد (ص: ١٥-١٩)؛ وسؤال وجواب في أهم المهمات للسعدي، مطبوع مع مجموعة مؤلفاته (٣/٦٣)؛ وشرح عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب الإمام مالك لمحمد الخميس (٣٠-٣١)؛ واعتقاد أهل السنة أصحاب الحديث له كذلك (ص: ٦٢-٦٤).

(٣) انظر: الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد (ص: ٧٠)؛ ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٢/٣٧-٣٨)؛ ومختصر الصواعق المرسلة (٢/٢٩٦)؛ والقواعد المثلى (ص: ٢٥)؛ والصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية (ص: ٢٦٢-٢٦٣)؛ ومقال لشيخنا الدكتور/محمد بن خليفة التميمي بعنوان: الصفات الإلهية تعريفها وأقسامها، منشور في مجلة الجامعة الإسلامية عام: ١٤٢١هـ العدد: ١١٢ – السنة: ٣٣ (ص: ١٢٤).

أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي، وأجزي الحسنة عشرا»[1]. وهذا كله غير الكلام الذي أنزله عليه وختم به كتبه، وهذا كله من كلام الله تعالى تكلم به حقيقة في أوقات مختلقة، فمتى شاء تكلم كما يليق به سبحانه وتعالى.

إن الله تعالى يتكلم بحرف وصوت: إن الله سبحانه وتعالى يتكلم بكلام يسمع، ولا خلاف بين العقلاء على كون الكلام حرفا وصوتا؛ فإن الكلام هو الحروف المتسقة والأصوات المقطعة[2]، وقد نادى سبحانه الأبوين –عليهما السلام–، ونادى موسى عليه السلام، وسينادي عباده يوم القيامة بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب.

والنداء باتفاق أهل اللغة لا يكون إلا بصوت مسموع، فإن انتفى الصوت انتفى النداء قطعا[3] ولهذا جاء تقييده بالصوت في الحديث الصحيح إيضاحا وتأكيدا كما قيد التكليم بالمصدر في قوله تعالى:﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤].

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم! يقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار. قال: يا رب! وما بعث النار؟ قال: من كل ألف أراه قال تسعمائة وتسعة وتسعين...» الحديث[4].

وعن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يحشر الله العباد، فيناديهم بصوت يسمعه من بعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ: أنا الملك، أنا الديان»[5].

فتبين من هذا أن الله تبارك وتعالى يتكلم بكلام يسمع منه تعالى، والكلام المسموع لا يكون إلا صوتا مشتملا على حروف منظومة، ولكن صوته تعالى ليس كمثل أصوات خلقه، ولهذا قال: «يسمعه

---

(١) أخرجه البخاري (ك: بدء الخلق، ح: ٣٢٠٧).

(٢) انظر: رسالة السجزي إلى أهل زبيد (ص: ٨١ و ١٤٩).

(٣) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (ص: ٧٩٦، مادة: ندي)؛ والمعجم الوسيط (٩١٢/٢، مادة: ندي)؛ ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣٠/١٢)؛ ومختصر الصواعق المرسلة (٢٧٧/٢)؛ وصفات الله عز وجل (ص: ٧٧-٧٨).

(٤) أخرجه البخاري (ك: التفسير، سورة الحج، ح: ٤٧٤١)، واللفظ له؛ ومسلم (ك: الإيمان، ح: ٢٢٢).

(٥) أخرجه خ تعليقا بصيغة التمريض (ك: التوحيد، ب: قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣] ٢٧١٩/٦)، وبصيغة الجزم في (ك: العلم، ب: الخروج في طلب العلم ٤١/١) وذكر رحلة جابر بن عبد الله إلى عبد الله بن أنيس ولم يذكر بقية الحديث؛ أخرجه كاملا بإسناده في الأدب المفرد (ب: المعانقة، ص: ٣٣٧ ح: ٩٧٠)؛ والإمام أحمد (٤٣١/٢٥-٤٣٢ ح: ١٦٠٤٢)؛ وابن أبي عاصم في السنة (٢٢٥/١ ح: ٥١٤)؛ وفي الآحاد والمثاني (٨٠/٤ ح: ٢٠٣٤)؛ والحاكم (ك: الأهوال، ٥٧٤/٤)؛ والخطيب في (الرحلة في طلب الحديث ص: ١٠٩-١١٥ح: ٣١-٣٢)؛ وفي (الجامع في أخلاق الراوي وآداب السامع ٢٢٥/٢-٢٢٦ ح: ١٦٨٦)؛ قال الحاكم: (صحيح الإسناد ولم يخرجاه)، ووافقه الذهبي، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٤٠٤/٤ ح: ٥٣)، وابن القيم كما في مختصر الصواعق المرسلة (٢٨٠/٢)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥١/١٠)، وحسن الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٧٤/١) إسناد قسم الارتحال منه، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص: ٣٧١-٣٧٢ ح: ٧٤٦)؛ وفي السلسلة الصحيحة (٣٠١/١-٣٠٢ ح: ١٦٠).

من بعد كما يسمعه من قرب» فهذه صفة خاصة بصوته تبارك وتعالى، وأما أصوات خلقه فيسمعها القريب فقط حسب قوة الصوت وضعفه[1].

كلام الله تعالى صفة له غير مخلوق: الله سبحانه وتعالى هو الخالق وحده بذاته وصفاته، وقد دلت الأدلة على أن الكلام من صفاته تبارك وتعالى، فما تكلم الله به فهو صفة له قائمة بذاته، وليس مخلوقا منفصلا عنه؛ لأن صفاته ليست غيره بل هي داخلة في مسمى اسمه، ولازمة لذاته المقدسة، فكما لم تدخل ذاته تعالى في الأشياء المخلوقة؛ فكذلك لا تدخل صفاته في الأشياء المخلوقة؛ فكل ما ثبت أنه من كلام الله سبحانه وتعالى فهو صفة له غير مخلوق[2].

إجماع السلف على أن القرآن كلام الله غير مخلوق: وقد أجمع السلف الصالح على أن القرآن كلام الله تعالى، بحروفه ومعانيه، منزل غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود[3].

قال الآجري: (اعلموا –رحمنا الله وإياكم– أن قول المسلمين الذين لم تزغ قلوبهم عن الحق، ووفقوا للرشاد قديما وحديثا: أن القرآن كلام الله عز وجل، ليس بمخلوق؛ لأن القرآن من علم الله تعالى، وعلم الله لا يكون مخلوقا، تعالى الله عن ذلك. دل على ذلك القرآن والسنة وقول الصحابة –رضي الله عنهم– وقول أئمة المسلمين، لا ينكر هذا إلا جهمي خبيث، والجهمي عند العلماء كافر)[4].

وقال اللالكائي ٤١٨هـ بعد أن ذكر خمسمائة وخمسين من أسماء العلماء من التابعين وأتباع التابعين والأئمة المرضيين سوى الصحابة الخيرين من شتى البلدان والأمصار مع اختلاف الأعوام والأعصار: (قالوا كلهم: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر)[5].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٥/١٢)؛ وصفات الله عز وجل (ص: ٧٧-٧٨).

(٢) انظر: الروح (ص: ٢٦٦)؛ وشرح العقيدة الطحاوية (ص: ١٧٨-١٨٧)؛ وصفات الله عز وجل (ص: ٧٠).

(٣) معنى قول السلف: "منه بدأ" أي: الله سبحانه وتعالى هو المتكلم به ابتداء، ولم يخلقه في غيره، فإنه لو كان مخلوقا في غيره لكان كلاما لذلك المحل الذي خلق فيه، ولم يكن كلاما لرب العالمين فهو سبحانه إنما يتصف بما قامت به من الصفات لا بما خلقه في غيره من المخلوقات.

ومعنى قولهم: "وإليه يعود" أنه يرفع من الصدور والمصاحف؛ فلا يبقى في الصدور منه آية، ولا في المصاحف، كما جاء ذلك في عدة آثار. انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٥٢٩/٦ و ٤٠/١٢-٤١) وشرح العقيدة الطحاوية (ص: ١٩٥).

ومن الأحاديث الدالة على رفع القرآن من الصدور والمصاحف ما رواه حذيفة بن اليمان مرفوعا قال: قال رسول الله ﷺ: يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدرى ما صوم، ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة وليسري على كتاب الله عزوجل في ليلة؛ فلا يبقى في الأرض منه آية ....الحديث. أخرجه جه (الفتن، ب: ذهاب القرآن والعلم ١٣٤٤/٢ ح: ٤٠٤٩)؛ وكم (الفتن والملاحم، ب: يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب ٤٧٣/٤ و٥٤٥) وقال: (صحيح على شرطهما ولم يخرجاه)، ووافقه الذهبي، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١٩٤/٤): (هذا إسناد صحيح رجاله ثقات)، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٦/١٣) عن سنده: (قوي)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٦/٣ ح: ٣٢٨٩)؛ وفي السلسلة الصحيحة (١٧١/١ ح: ٨٧).

ومعنى "وشي الثوب": نقشه ولونه. انظر: لسان العرب (٣١٢/١٥)؛ والمعجم الوسيط (١٠٣٥/٢).

(٤) الشريعة (٤٨٩/١).

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣١٢/٢).

وقال ابن أبي العز ٧٩٢هـ: (أهل السنة كلهم، من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف متفقون على أن القرآن كلام الله غير مخلوق)[١].

فهذا موقف السلف من كلام الله بإيجاز فيما يتعلق ببيان ما هو الحق الثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وما هو اللائق بكمال الله وجلاله وعظمته، وما يجب على العباد اعتقاده في كلام ربهم سبحانه وتعالى.

وأما موقفهم عما خالف الحق وجانب الصواب في المسألة، فإنهم بينوا الحق من الباطل، وميزوا الصحيح من السقيم بتأصيل العقيدة الصحيحة وبيان منهج الكتاب والسنة وسلف الأمة الصالح تارة، وأخرى بالرد على الباطل وأهله، فمنهم من رد على أهل الباطل عموما[٢]، ومنهم من رد على طائفة من أهل الباطل بعينها[٣]، ومنهم من رد على رئيس الطائفة وداعيتها وحامل لوائها[٤]، ومنهم من رد على مسألة معينة من المسائل التي خالفوا الحق وأخطئوا فيها[٥]، ومؤلفاتهم في ذلك معروفة مشهورة.

٩- المعية: المعية في اللغة العربية اسم لمطلق المصاحبة وهي أوسع مدلولا من المخالطة أو المصاحبة في المكان، ويتعين معناها بحسب ما تضاف إليه.

وصفة المعية ثابتة لله تعالى بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]

وجاء في حديث الهجرة أنه لما خرج سراقة بن مالك ﷺ في طلب النبي ﷺ وصاحبه، وكاد أن يدركهما إذ التفت أبو بكر ﷺ وراءه فإذا هو بفارس عظيم قد امتطى جواده، مسرع في سيره، متجه إليهما؛ فقال أبو بكر ﷺ: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ -وهو في غاية الطمأنينة-: «لا تحزن إن الله معنا»[٦].

أنواع المعية ودرجاتها: إن صفة المعية الثابتة لله سبحانه تعالى تنقسم إلى قسمين[٧]:

الأول: معية عامة: وهذه المعية تشمل كل أحد من مؤمن وكافر وبر وفاجر، وهذه المعية تستلزم

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٨٥).

(٢) مثل كتاب الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة لابي عبد الله بن بطة العكبري.

(٣) مثل كتاب الرد على الزنادقة والجهمية لأبي عبد الله الإمام أحمد بن حنبل الشيباني.

(٤) مثل رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد.

(٥) مثل رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت.

(٦) أخرجه البخاري (ك: المناقب، ح: ٣٦١٥ وك: فضائل أصحاب النبي ﷺ، ح: ٣٦٥٢).

(٧) انظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٢/٢٦٦)، والصفات الإلهية في الكتاب والسنة (ص: ٣٠٦-٣٠٩)، وشرح العقيدة الواسطية للعثيمين (١/٤٠١-٤٠٢).

الإحاطة بالخلق كلهم علما وقدرة وسمعا وبصرا وسلطانا وغير ذلك من معاني الربوبية. قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة: ٧].

الثاني: وهي المعية الخاصة وهي تستلزم النصر والتأييد، وهي تنقسم إلى قسمين:

أ- المعية الخاصة المقيدة بوصف، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ب- المعية الخاصة المقيدة بشخص معين مثل قوله تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠] وقوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله ﷺ لأبي بكر وهما في الغار: «يا أبا بكر! ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»[(١)].

وهذا أخص من المعية المقيدة بوصف، فالمعية درجات: عامة مطلقة، وخاصة مقيدة بوصف، وخاصة مقيدة بشخص، فأخص أنواع المعية ما قيد بشخص، ثم ما قيد بوصف، ثم ما كان عاما.

والمعية العامة من الصفات الذاتية لأن مقتضياتها ثابتة لله أزلا وأبدا، والمعية الخاصة من الصفات الفعلية لأن مقتضياتها تابعة لأسبابها توجد بوجودها وتنتفي بانتفائها.

لا تناقض بين معية الله لخلقه وبين علوه عليهم واستوائه على عرشه: إن الله سبحانه وتعالى مستوٍ على عرشه، عال على خلقه ذاتا وقدرا ومكانا، وفي الوقت نفسه إن الله سبحانه وتعالى متصف بالمعية مع خلقه كما يليق بجلاله وعظمته، ولا تناقض بين معية الله لخلقه وبين علوه عليهم واستوائه على عرشه، ويتبين ذلك من وجوه، وهي كما يلي:

١- قال تعالى:﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] فالله سبحانه وتعالى جمع بينهما فيما وصف به نفسه، ولو كان بينهما تناقض لما صح أن يصف الله بهما نفسه[(٢)].

٢- ليس بين المعية والعلو تعارض أصلا؛ إذ من الممكن أن يكون الشيء عاليا وهو معك، ومنه ما يقوله العرب: القمر معنا ونحن نسير، والشمس معنا ونحن نسير، والقطب معنا ونحن نسير، مع أن

---

(١) أخرجه البخاري (ك: فضائل أصحاب النبي ﷺ، ح: ٣٦٥٣)، مسلم (ك: فضائل الصحابة ح: ٢٣٨١)، واللفظ له.

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٢/٢٦٦).

القمر والشمس والقطب كلها في السماء؛ فإذا أمكن اجتماع العلو والمعية في المخلوق فاجتماعهما في الخالق سبحانه ممكن من باب أولى.

٣- إنه لو تعذر اجتماعهما في حق المخلوق لم يكن متعذرا في حق الخالق؛ لأن الله أعظم وأجل، ولا يمكن أن تقاس صفات الخالق بصفات المخلوقين، لظهور التباين بين الخالق والمخلوق.

وكان من دعاء رسول الله ﷺ عند سفره أنه كان يقول: «اللهم! أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل»[١] فقد جمع رسول الله في وصف الله تعالى بين كونه صاحبا له في السفر وبين كونه خليفة له في الأهل، مع أنه بالنسبة للمخلوق غير ممكن؛ إذ لا يمكن أن يكون شخص واحد صاحبا لك في سفرك وفي الوقت ذاته يكون خليفة لك في أهلك[٢].

فالله سبحانه وتعالى مع عباده حقا، وهو على عرشه في السماء حقا، لا تعارض بين نصوص العلو ونصوص المعية، ولا يفهم أحد التعارض بينها إلا من أراد أن يمثل الله بخلقه ويجعل معية الخالق كمعية المخلوق، وهذا واضح البطلان وغني عن البيان.

إثبات صفة المعية لله تعالى كما يليق بجلاله لا يقتضي المخالطة أو المصاحبة في المكان: إن إثبات صفة المعية لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته لا يعني أن الله سبحانه وتعالى موجود بذاته في كل مكان أو أنه حال في المخلوقين ومختلط بهم؛ فالله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك، والمعية في اللغة العربية اسم لمطلق المصاحبة وهي أوسع مدلولا من المخالطة أو المصاحبة في المكان، ويتعين معناها بحسب ما تضاف إليه. فإن قيل: سقوني لبنا مع ماء؛ أي: لبنا مخلوطا بالماء. وإن قيل: رأيت فلانا مع فلان يمشيان إلى الحرم؛ أي: ذهب الاثنان إلى الحرم معا يصاحب أحدهما الآخر ويمشيان مع بعض. وإن قال ملك لجنوده وهو في قصره في غرفة القيادة: اذهبوا إلى المعركة وأنا معكم، فهذا ليس فيه اختلاط ولا مشاركة في المكان[٣].

قال ابن القيم: (إنه ليس في ظاهر اللفظ ولا حقيقته أنه سبحانه مختلط بالمخلوقات ممتزج بها ولا تدل لفظة "مع" على هذا بوجه من الوجوه؛ فهي تختلف باختلاف متعلقاتها ومصحوبها؛ فكون نفس الإنسان معه لون، وكون علمه وقدرته ووقوته معه لون، وكون زوجته معه لون، وكون أميره ورئيسه معه لون، وكون ماله معه لون، فالمعية ثابتة في هذا كله مع تنوعها واختلافها)[٤].

فالنصوص الدالة على معية الله تعالى -سواء كانت معية عامة أو خاصة أو أخص منها- لا تقتضي اختلاطا ولا مشاركة في المكان بل هي معية لائقة بالله تعالى.

الثاني عشر: إدراك أن توحيد الإثبات والمعرفة مستلزم لتوحيد الطلب والقصد:

توحيد الإثبات والمعرفة مستلزم لتوحيد الطلب والقصد، وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، ومسلوب الأسماء والصفات ليس بشيء؛ بل هو عدم محض، كما قال بعض العلماء: (المشبه يعبد

---

(١) أخرجه مسلم (ك: الحج، ح: ١٣٤٢).

(٢) انظر: شرح العقيدة الواسطية (١/٤٠٥).

(٣) انظر: مختصر الصواعق المرسلة (٢/٢٦٥)، وشرح العقيدة الواسطية (١/٤٠٨)، وعلو الله على خلقه (ص: ٢٥٢-٢٥٤).

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٢/٢٦٦).

صنماً، والمعطل يعبد عدماً، والموحد يعبد إله الأرض والسماء)، وعبادة الله لا تكون من غير إثباته ومعرفته والإقرار به، ومعرفة الله والإقرار به دون عبادته وحده غير نافع البتة، ولذلك معرفة الله حق المعرفة، وعبادته وحده، كلتاهما متلازمتان.

والله تعالى هو الخالق المالك المدبر المنعم المتفضل على العباد، المتصرف في الكون، وذلك يستلزم أن يفرده العباد بجميع أنواع العبادة، وأن يشكروه وحده سبحانه وتعالى على هذه النعم الإلهية الكثيرة الوفيرة المتنوعة المتوفرة في كل حين وآن لجميع الخلائق والتي لا تعد ولا تحصى، وما دام هذه النعم كلها من الله وحده وجب ولزم أن يكون هو المعبود وحده، ولذلك جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم ذاكرة النعم الإلهية مقرونة بالدعوة إلى إفراد الله وحده بالعبادة، وداعية إلى نبذ الأنداد والشركاء والأرباب والآلهة الباطلة والتخلي منها، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾[مريم: ٦٥]، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٣]

وقد أظهر الله تعالى بطلان ألوهية الأصنام والأوثان وكل ما يعبد من دون الله لاتصافها بالنقص والعجز، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾[الأحقاف: ٥ – ٦]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل: ٢٠ – ٢١]، وقال عن إبراهيم وهو يحتج على أبيه: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٤٢]، وعلى قومه: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

[الأنبياء: ٦٦ – ٦٧] فالعاجز الناقص لا يصلح أن يكون إلها، والمتصف بصفات الكمال المطلق، والمنزه من جميع صفات النقص هو الذي يستحق أن تألهه القلوب وتحبه وتعظمه وتفرده بالعبادة[١].

الحاصل: إن الله عز وجل هو وحده المتصف بصفات الكمال والجمال ونعوت العظمة والجلال والتي لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وهو وحده الغني الكامل المنزه من جميع صفات النقص والعجز والعيب، وهو الخالق المالك المدبر المنعم المتفضل، وذلك يستلزم إفراده وحده سبحانه بالعبادة كلها وبجميع أنواعها وأصنافها وأفرادها.

رابعا: حقيقة توحيد القصد والطلب ولوازمه:

أولا: معنى توحيد القصد والطلب (توحيد الألوهية)، وتحديد علاقته بالشهادتين:

أولا: معنى توحيد الطلب والقصد (توحيد الألوهية):

أ– معنى "إله" لغة: يقال في اللغة: أَلَهَ إِلاهَةً وأُلوهة وألوهِيَّة: أي: عبد عبادة، وتوحيد الألوهية: توحيد العبادة، والإله بمعنى المألوه، أي: معبود، ويقال: أَلَّهَه: اتخذه إلاها؛ أي: معبودا، وكل ما اتخذ معبودا فهو إله عند متخذه.

ب– تعريف توحيد الألوهية اصطلاحا: (هو إفراد الله عز وجل بجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة قولا وعملا، ونفي العبادة عن كل ما سوى الله تعالى كائنا من كان)[٢].

ج– أسماء توحيد الألوهية: توحيد الألوهية يقال له كذلك: توحيد العبادة، وتوحيد الإرادة، وتوحيد القصد، والتوحيد الطلبي، والتوحيد الفعلي، وتوحيد العمل[٣].

ثانيا: علاقة الشهادتين بتوحيد القصد والطلب (توحيد الألوهية):

المراد بالشهادتين: شهادة المسلم بأن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله

أ– علاقة "لا إله إلا الله" بتوحيد الألوهية: إنَّ هذه الكلمة التي هي كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" متركبة من نفي وإثبات، "لا إله" نفي، و"إلا الله" إثبات:

ومعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت.

ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جلَّ وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) انظر للتفصيل: تحذير أهل الإيمان عن الحكم بغير ما أنزل الرحمن [وهو مطبوع في المجلد الأول من مجموعة الرسائل المنيرية](ص: ١٤٠)، والمواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص: ٧٩–٨٠)، وشرح العقيدة الطحاوية (٥٢/١)، ومعتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء و الصفات (ص: ٤٠–٤٢)، وتقريرات الأئمة الأربعة وأئمة مذاهبهم لعقيدة أهل السنة والجماعة (٩١/١–٩٥).

(٢) أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة (ص: ٥٠).

(٣) انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات (ص: ٣٧–٤٠).